

دكتور قاسم عبده قاسم

الخلفية الأيديولوجية للحروب الصليبية

الخلفية الإيديولوجية للحروب الصليبية

دراسة عن الحملة الأولى ١٠٩٥ - ١٠٩٩ م

دكتور قاسم عبده قاسم
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب - جامعة الزقازيق

الطبعة الأولى
١٩٩٩



عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية
EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

مدير النشر: محمد عبد الرحمن عفيفى

تصميم الغلاف : منى العيسوى

لوحة الغلاف : خطبة البابا إربان الثانى فى مجمع كليرمون ١٠٩٥م

الناشر : عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

٥ - شارع ترعة المريوطية - الهرم - ج.م.ع - تليفون ٣٨٧١٦٩٣

ص . ب ٦٥ خالد بن الوليد بالهرم - رمز بريدى ١٢٥٦٧

Publisher:ËIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

5, Maryoutia St ., Alharam - A.R.E. Tel : 3871693

P . B 65 Khalid Ben - Alwalid - Alharam P. C 12567

فهرس الكتاب

صفحة

إهــداء

إلى فلسطين ...

جرحنا الدامي ... وعذابنا القديم الجديد

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

منذ عصور موغلة فى القدم والحكام يستغلون الدين فى توجيه المحكومين لخدمة أغراضهم ولتدعيم سلطانهم . وهى ظاهرة متكررة فى التاريخ الإنسانى فى كل زمان ومكان .

وفى عصور التاريخ المختلفة استخدم الدين أيضا لتبرير العدوان على الشعوب واغتصاب أوطانها . فعلها الصليبيون على أرض فلسطين فى العصور الوسطى ، وهاهم الصهاينة يفعلونها على الأرض ذاتها فى القرن العشرين . فهل من مذكر ؟ !

بيد أن استخدام الدين فى العصور الوسطى لخدمة الأغراض السياسية يتجسد فى أوضح صوره فى الحركة الصليبية . ففى خضم تاريخ هذه الحركة يكتشف المرء كيف يصل الحكام فى استغلالهم للدين إلى حد نسج إيديولوجية تدعى الانتساب إلى الدين ، على حين أن هذه الإيديولوجية فى حقيقة أمرها تناقض الاتجاهات الأصلية والأساسية فى هذا الدين .

ورب سائل عن ماهية الإيديولوجية بشكل عام ، وما هى حقيقة المعنى المقصود بهذه الكلمة ؟ والإجابة على مثل هذا السؤال تماثل فى صعوبتها الإجابة عن أى سؤال يتعلق بماهية أى علم من العلوم الإنسانية ، أو العلوم الاجتماعية . فكلمة "إيديولوجية" كلمة معربة ، وأصلها فرنسى مركب من جزئين idée بمعنى فكرة ، و Logie بمعنى علم : فهى اشتقاقا علم الأفكار . وقد ابتكرها دستوت دى تراسى فى أواخر القرن التاسع عشر[1] . وقد اعتبر دى تراسى أن الإيديولوجيا فرع من علم الأحياء يختص بدراسة القدرات العقلية لأحد الكائنات الحية وهو الإنسان . وفى تلك الفترة لم يكن لهذا العلم أى معنى يتصل بطبيعة المعرفة كنشاط بشرى . وقد اختفى هذا العلم باختفاء الإيديولوجيين تحت وطأة نظام حكم نابليون فى فرنسا . ومرة أخرى ظهر هذا المصطلح ؛ ولكن بمفهوم جديد على يد كارل ماركس عندما ظهر

---

(١) انظر : معجم العلوم الاجتماعية ، (تصدير ومراجعة إبراهيم بيومى مدكور ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٥م) مادة إيديولوجيا ، ص٨٧ .

كتاب "الإيديولوجية الألمانية" الذى كتبه مع انجلز سنة ١٨٤٥م . ومنذ ذلك الحين ولفظ أيديولوجية يستخدم بعدة مفاهيم مختلفة فى كثير من المجالات الأكاديمية والسياسية ؛ بل وفى المحافل العامة . ويرى فريق ثالث أنها نظرية أو فلسفة ، بل يذهب بعض الباحثين إلى اعتبار الإيديولوجية علما قائما بذاته [٢] .

وعلى أية حال ، فإننا نميل إلى رأى جرامشى فى النظر إلى الإيديولوجية باعتبارها مرادفا للفلسفة والنظرة الكونية الشاملة ، والسياسة ؛ أى مجمل الأفكار التى تحرك مجتمعا ما ، أو تكون أساسا لوجوده وحركته . وهى لاتشمل فقط النظريات والأفكار العامة ؛ بل تشمل كذلك كل أنساق القيم والمعتقدات[٣] . ويعتبر جرامشى أن الإيديولوجيا تنبع من المجتمع ، ولكن محورها الطبقى ينبع من الطبقة المعنية . هذا التعريف للإيديوليوجية ينطبق إلى حد كبير مع الواقع التاريخى الذى سادت فيه الإيديولوجية التى أفرزت الحركة الصليبية .

فقد تقبل المجتمع الغربى هذه الإيديولوجية التى طرحتها البابوية ، ولكن بينما كان الجناح الكنسى فى الطبقة الحاكمة يرى فى الحرب الصليبية فرصة لإحكام السيطرة على المجتمع وتأكيد السمو البابوى ، كان الجناح العسكرى (النبلاء وفرسانهم) يرون فيها فرصة للحصول على مزيد من الأرض (عماد الثروة والسلطة فى المجتمع الإقطاعى فى غرب أوربا) . أما الفلاحون والأقنان وعامة سكان المدن الناشئة ، فقد رأوا فيها فرصة هائلة للتحرر من ربقة السيطرة الإقطاعية .

وعندما دارت عجلة الأحداث كشفت عن تناقض عجيب ، وتجلى الإفلاس الإيديولوجى فى حملة الأمراء . وهو الإفلاس الذى تأكد بعد ذلك فى الهجوم الذى شنته الحملة الرابعة على مدينة قنسطنطين المسيحية ، وأقامت بها إمبراطورية لاتينية إلى حين ، كما تأكد تماما حين أخذت البابوية تستخدم الحملات الصليبية كسلاح سياسى / عسكرى ضد خصومها من حكام الغرب الأوربى ومن بينهم أخلص المدافعين عن الكاثوليكية .

---

(٢) على مختار ، "إشكالية العلاقة بين الإيديولوجيا والعلوم الاجتماعية" بحث مقدم إلى : ندوة إشكالية العلوم الاجتماعية فى الوطن العربى – المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية . من ٢٦ إلى ٢٨ فبراير ١٩٨٣م ، ص٨٠١– ص١٧١ ..

(٣) المرجع نفسه ، ص١١٥ .

هذه الدراسة تحاول رصد تطورات الخلفية الإيديولوجية للحركة الصليبية خلال أحداث الحملة الأولى . وكان اعتمادنا الأساسى فيها على المصادر الأصلية ، واستعنا بالمراجع العربية والأجنبية كلما كانت هناك ضرورة لذلك . وأرجو الله أن تكون هذه الدراسة إضافة للمكتبة العربية عن الحركة الصليبية .. وهى مكتبة أثرتها كتابات أساتذة أجلاء وعلماء أفاضل مهدوا لنا طريق البحث ودروبه الشاقة .

والحق ، أن هذه الدراسة جاءت ثمرة جهدى المتواضع فى جزء منها ؛ ولكن المناقشات النافعة والملاحظات القيّمة ، والمساعدات التى تكرم بها الأصدقاء والزملاء ، كانت وراء هذه الصور التى جاءت بها الدراسة ؛ ومن ثم فإننى أتوجه بالشكر لصديقى وأستاذى الدكتور محمود مكى ، أستاذ الأدب الأندلسى بجامعة القاهرة ، الذى ساعدنى مشكورا بترجمة أجزاء هامة من كتاب أميركو كاسترو عن الأسبانية أفادتنى فى مناقشة التأثير الإسلامى . كذلك فإن الصديق العزيز الدكتور على مختار مدير المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، قد أمدنى بالمادة العلمية التى ساعدتنى فى صياغة الإطار النظرى للدراسة ، كما كان لمناقشاته الذكية الحية أثرها الواضح . وبشكر خاص وامتنان أخوى أتوجه إلى الصديقين العزيزين : الدكتور رأفت عبد الحميد ، أستاذ تاريخ العصور الوسطى بآداب عين شمس ، والدكتور أحمد إبراهيم الهوارى أستاذ الأدب والنقد الحديث بآداب الزقازيق ؛ لأنهما تجشما عناء قراءة مخطوط هذه الدراسة ، وكان لملاحظاتهما أثر كبير فى صياغة الأفكار واللغة .

وأخيراً ، فإننى أرجو أن أكون قد وفقت إلى مساهمة مفيدة لأبناء وطننا العربى ، والله الموفق والمستعان .

دكتور قاسم عبده قاسم

الهرم ٢٦ مايو ١٩٩٩م

الفصل الأول
روافد الإيديولوجية الصليبية

تمهيد – مكونات الفكرة الصليبية : (التيار المسيحى – أ) الحرب العادلة والحرب المقدسة (أوغسطين والحرب العادلة – ما بعد أوغسطين – تطور الموقف الرسمى للكنيسة تجاه الحرب – جريجورى السابع والحرب المقدسة – أربان والتطور النهائى) – ب) الحج المسيحى (المفهوم المسيحى الباكر عن ممارسة الحج – ربط الحج بالتكفير عن الذنوب والتوبة – المزج بين الحج والحرب المقدسة فى الحملة الصليبية) – التيار الجرمانى (تعديل التراث البطولى الجرمانى في صورة مسيحية – حروب العصر الكارولنجى – الحرب الإقطاعية بعد العصر الكارولنجى – حركة السلام وأثرها) – التيار الإسلامى (الجوار الإسلامى وتأثيره على البابوية – حرب الاسترداد فى أسبانيا وتأثيرها على فكرة الحرب المقدسة – هل هناك تأثير لفكرة الجهاد الإسلامية ؟) .

الحرب أقدم نشاط عرفه الإنسان . فمنذ قتل قابيل أخاه هابيل وهام فى البرية يحمل وصمة الذنب الذى جناه ، والإنسان لا يكف عن الحرب والقتال . وعلى الرغم من هذا ، وربما بسببه ، سعى الناس دوما إلى إيجاد المبرر الأخلاقى للحرب كى يجعلوا من قتل الإنسان لأخيه الإنسان أمرا مشروعا. وقد اختلفت هذه المبررات الأخلاقية للحرب من عصر إلى آخر وفقا للإيديولوجيا السائدة ، والتى تشكل نظرة المجتمع الشاملة تجاه الكون . ففى العصور القديمة كان حق الغزو لتحقيق الأمجاد ، أو البحث عن موطن أفضل ، مبررا كافيا لشن الحرب. وفى العصور الوسطى لبست الحرب ثياب الدين فى غالب الأحوال . وها نحن أولاء ، فى عصرنا الحالى ، نرى الحروب تندلع هنا وهناك : تقتل البشر بعشرات الألوف ، وتدمر المدن والمزارع ، وتمحو مظاهرة الحياة فى بعض البقاع ، متذرعة بنشر الحضارة بين قوم متخلفين تارة، وبحجة الدفاع عن الحرية وحقوق الإنسان تارة أخرى . بل إن أكثر الحروب تدميرا وتخريبا وفتكا بالإنسان تشن اليوم بحجة إقرار السلام .

وقد كانت **الحروب الصليبية** ، التى شنها الغرب الكاثوليكى على الشرق العربى الإسلامى، حربا مثل أية حرب أخرى من حيث العدوان وإراقة الدماء ، ومن حيث تذرعها بذريعة أخلاقية تبرر بها نفسها . كان الهدف المعلن للحملة الصليبية الأولى هو الحج إلى

الأرض المقدسة وقتال المسلمين لتحرير الأماكن التى شهدت قصة المسيح على الأرض من أيديهم . هذا الهدف المعلن جاء تلخيصا للإيديولوجية الصليبية التى أفرزت هذه الحملة وما تلاها من حروب وأحداث . ولا غرابة فى أن تشن الحرب باسم الدين فى أى زمان ومكان ، ولكن وجه الغرابة هو أن تشن الحرب باسم الدين المسيحى . ذلك أن من يمعن النظر فى الأناجيل المسيحية يجد اتجاها سلمياواضحا يفرض نفسه على أتباع هذا الدين ، ومن يتأمل تاريخ المسيحية الباكر يسترعى انتباهه على الفور ذلك الموقف المعادى للحرب من جانب المسيحيين[1] . فكيف ، اذن ، تحولت الكنيسة الغربية إلى كنيسة مقاتلة ؟ وما هى الروافد التى تجمعت لتخلق تيار الإيديولوجية الصليبية التى كانت هى الأرضية التى تحركت عليها جماهير الأوربيين للمشاركة فى الحملة الصليبية ؟ .

لقد كانت الإيديولوجيا الصليبية تعبيرا عن مجتمع غرب أوربا فى القرن الحادى عشر : أفكاره ومثله العليا ، وقيمه ، وآماله ، وعواطفه ، وأساطيره ، وخرافاته ، تدينه وقسوته وروحه العسكرية ، كما كانت تعبيرا عن التغيرات الإجتماعية التى طرأت على هذا المجتمع وعلاقات القوى الاجتماعية فى داخله . أى أن الإيديولوجية الصليبية كانت تعبيرا عن رؤية مجتمع غرب أوربا الكلية للكون من ناحية ، كما كانت تجسيدا لحقيقة التغيرات والعلاقات داخل هذا المجتمع من ناحية أخرى .

وفى تتبعنا للخلفية الإيديولوجية للحروب الصليبية نجد أمامنا روافد رئيسية ثلاثة تصب فى مجرى واحد خرجت من طياته فكرة الحملة الصليبية . وقد تفاعلت هذه الروافد الثلاثة سويا على مدى فترة زمنية طويلة ، وعندما توافقت مع حركة المجتمع الأوربى فى القرن الحادى عشر ، أفرزت الإيديولوجية الصليبية .

والرافد الأول يأتى من داخل المسيحية نفسها : ونقصد به التطورات الفكرية والممارسات الدينية التى تبلورت فى القرن الحادى عشر فى عامل من أهم عوامل صياغة الإيديولوجية الصليبية . هذا الرافد المسيحى يتجمع من تيارين هما : فكرة الحرب المقدسة ، والحج . أما الرافد الثانى ، فهو ينشأ عن التفاعلات الاجتماعية / الفكرية الناجمة عن استقرار القبائل الجرمانية على تراب الغرب الأوربى ، مع احتفاظها بتراثها البطولى بعد صياغته فى شكل مسيحى . أما الرافد الثالث ، فيأتى انعكاسا للتأثير الإسلامى على الغرب الأوربى فى تلك الآونة : سواء كان هذا التأثير مباشرا أو غير مباشر . وبطبيعة الحال ، فإن التفاعلات

الاجتماعية على أرض الواقع الأوربى كانت من عوامل الحسم فى صياغة الإيديولوجية الصليبية من جهة ، وتقبل أبناء الغرب الأوربى لهذه الإيديولوجية من جهة أخرى .

وإذا بدأنا فى تعقب الرافد الأول ، الذى يأتى من داخل المسيحية نفسها ، لوجدنا أن هناك مسارين أساسيين للتطور فى المسيحية الكاثوليكية تلاقيا فى الحملة الصليبية هما : **الحرب المقدسة والحج** . إذ كانت فكرة الحرب المقدسة بمثابة الأساس الفكرى فى الإيديولوجية الصليبية ، على حين كانت ممارسة الحج تمثل أحد جوانب الحياة العملية التى ساهمت فى صياغة هذه الإيديولوجيا.

وفيما يتعلق بفكرة **الحرب المقدسة** نجد أنفسنا فى مواجهة تطور فريد يسعى من النقيض إلى نقيضه . فمن الرفض الفكرى لفكرة الحرب فى المسيحية الباكرة إلى فكرة الحرب المقدسة التى جعلت من الحرب أمرا من الرب يشنه بنفسه وينفذه من خلال المسيحيين جنود المسيح miles Christi هذا التطور يكشف عن مثال فذ ومذهل لكيفية تسخير الأفكار الدينية فى خدمة السياسة بحيث يتم نسج فكرة أساسية ، مثل الحرب المقدسة ، على الرغم من تناقضها الواضح مع التعاليم المسيحية ذاتها .

ذلك أن من يقرأ الإنجيل يكشف دونما صعوبة أن المسيحى مأمور بعدم اللجوء إلى العنف : "**لأن كل الذين يأخذون السيف بالسيف يهلكون**" كما ورد بإنجيل متى على لسان المسيح عليه السلام[٢] والإنجيل يرفض مقابلة الشر بالشر والعنف بالعنف ، وإنما يطلب من المسيحى أن يتغلب على الشر بالخير ؛ فقد ورد على لسان بولس الرسول[٣] "**لاتجاوزوا أحدا عن شر بشر، معتنين بأمور حسنة قدام جميع الناس . لاتنتقموا لأنفسكم أيها الأحباء بل أعطوا مكانا للغضب .. لا يغلبنك الشر ، بل أغلب الشر بالخير**" هذا الاتجاه السلمى يتأكد مرة أخرى حين يرد فى إنجيل متى على لسان المسيح[٤] : "**سمعتم أنه قيل عين بعين وسن بسن ، وأما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر ، بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضا ..**" هكذا يتضح من هذه الأدلة ، وغيرها ، أن المسيحية تعارض العنف وتعاليمها تمنع المسيحى من أن يكرس نفسه للحرب . ومع هذا فإن الأمر ليس بهذه البساطة التى نظنها للوهلة الأولى .

فقد كانت المشكلة التى تجابه الفرد المسيحى فى المجتمعات المسيحية الباكرة تتلخص فى سؤال يدور حول مدى شرعية قيامه بالقتال دفاعا عن وطنه وعن نفسه . حقيقة أن المسيحية ديانة سلام . وحقيقة أيضا أن الأخلاقيات المسيحية تهتم كثيرا بحب الإنسان لجاره ، وأن

السلوك العنيف يقف على النقيض من فضيلة الحب . ومع هذا فإن المنازعات والخصومات الفردية ، والعداوات العامة بين المجتمعات لم تختف من المجتمع الغربى بعد أن اعتنق المسيحية . هذه الحقيقة كانت تشكل صعوبة حقيقية أمام المفكرين والكتاب المسيحيين الذين كانوا يحاولون باستمرار أن يوفقوا بين العنف وأعمال الحرب التى يمارسها المسيحيون ، وبين القيم اللاهوتية التى يؤمنون بها .

فالحرب تمثل الدرجة القصوى من العنف المنظم بين الجماعات البشرية ، وتعاليم المسيحية تحرم العنف فى أبسط صوره . ومن ثم كانت الحرب دائما موضوعا شائكا بالنسبة للأخلاقيين واللاهوتيين الأوائل[٥] . فعلى الرغم من المثل العليا والقيم السلمية التى كانوا يعتنقونها ، فإنهم كانوا مضطرين إلى الاعتراف بأن الحرب إحدى حقائق الحياة . ويتضح بالدليل التاريخى أن مسيحيين كثيرين كانوا يخدمون فى الجيش الرومانى وأن النزعة السلمية لم تكن هى السائدة تماما فى المجتمعات المسيحية الباكرة . حقيقة أنه عندما كانت روما ماتزال وثنية ، كان اللاهوتيون المسيحيون يشكون فيما إذا كان يحق للمسيحى أن يخدم فى الجيش الإمبراطورى تحت راية النسر الرومانى . بيد أن هذه الحقيقة لاتنفى أن هذه المشكلة لم تكن تؤرق الكنيسة كثيرا طالما كانت الجماعات المسيحية تعيش بمعزل عن الدولة ، وقد حسم المفكرون المسيحيون الأوائل الموقف ضد الحرب التى أدانوها[٦] . ولكن الموقف اختلف بعد انتصار المسيحية فى القرن الرابع ، وبعد تحول الإمبراطورية الرومانية إلى مملكة مسيحية ؛ إذ عاد السؤال يطرح نفسه من جديد . كما أن الظروف التى واكبت الغزوات الجرمانية فرضت على المفكرين الكاثوليك مهمة البحث عن إجابة مناسبة لهذا السؤال الهام .

ومن المهم أن نشير إلى أن الفكرة القائلة بأن الحرب ضد الأعداء يمكن أن تكون حربا مقدسة كانت تطورا انفرد به الغرب اللاتينى . وكان هذا التطور ، بطبيعة الحال ، نتاجا للظروف التاريخية والتغيرات التى تعرض لها مجتمع الغرب الأوربى من ناحية ، كما كانت استجابة لحاجات هذا المجتمع من ناحية أخرى . ففى الشرق البيزنطى سار التطور فى اتجاه آخر ؛ إذ أن سان باسيل القبادوقى ، أعظم مشرعى الكنيسة البيزنطية ، كان يعتبر أن الشهيد هو فقط الذى يموت متسلحا بالإيمان ، وليس هو الذى يقتل فى الحرب ضد الكفار ، بل إنه يوصى الجندى الذى قتل عدوه فى الحرب بأن يكفر عن ذنبه بالابتعاد عن الجماعة المقدسة سنوات ثلاث[٧] . والواقع أن الجندى البيزنطى لم يكن يعامل باعتباره قاتلا ، ولكن مهنته لم تكن تجلب عليه أية أمجاد فى رأى الكنيسة . ولعل هذا هو السبب فى الطابع الدفاعى الغالب للحروب البيزنطية على حد تعبير رنسمان[٨] . وكان الأباطرة البيزنطيون يفضلون الوسائل

السلمية فى غالب الأحوال . ولهذا كانت تصرفات الحكام البيزنطيين تبدو وكأنها ضرب من ضروب الجبن والتخاذل فى عيون المؤرخين الغربيين الذين تستهويهم الروح العسكرية . ولكن الحقيقة أن الدافع البيزنطى دائما كان هو الرغبة فى تجنب سفك الدماء كما يقول رنسمان . ويضيف باحث آخر مؤكدا كلام رنسمان أنه حقا أن الإمبراطور هرقل قد شن حربا ضد الفرس لاستعادة الصليب المقدس ، كما يبدو أن فكرة شبيهة بالفكرة الصليبية كانت تحرك أباطرة بيزنطة فى القرن العاشر ، ولكن بيزنطة كانت ترى فى الفرس والمسلمين من بعدهم قوى قائمة يجب التعامل معها . وغالبا ما كانت الإمبراطورية البيزنطية تلجأ فى تعاملها مع المسلمين إلى الوسائل الدبلوماسية فإذا ما لجأت للحرب ، فإنها تلجأ اليها باعتبارها إحدى الوسائل الدبلوماسية (٩) .

أما فى الغرب اللاتينى ، فقد برزت المشكلة بشكل ملح فى خضم الغزوات الجرمانية . ومنذ القرن الخامس الميلادى على الأقل تعين على آباء الكنيسة الكاثوليكية أن يواجهوا مشكلة الحرب ، وأن يجدوا إجابة مناسبة للسؤال عما إذا كان من الصحيح للمسيحى أن يقاتل دفاعا عن وطنه ، أو أن يتخذ الحرب مهنة يكرس لها نفسه . ومن بين الأصوات التى ارتفعت فى تلك الآونة لتطرح إجاباتها المختلفة عن هذا السؤال الهام ، يبرز صوت القديس أوغسطين (١٠) واضحا جليا .

كان أوغسطين مقتنعا بأن الرب هو الآمر بالحرب ، أو ببعض الحروب على الأقل . كما أنه كان مقتنعا بأن أهل الحق مجبرون ، أحيانا ، على شن الحرب نتيجة لأخطاء الأشرار . وفى رأى أوغسطين أن كل الحروب تشن بهدف فرض السلام ؛ وهو ما يعنى استبعاد الأهداف السلمية للحروب من العوامل التى تقرر ما إذا كانت الحرب مقبولة أخلاقيا أم لا ؛ ذلك أن كل طرف يشن الحرب لكى يحقق السلام ، ولكن السلام الذى ينشده ليس سلاما مطلقا ، وإنما هو السلام الذى يناسبه هو ، ويتوافق مع مصالحه بغض النظر عن مصالح الآخرين (١١) .

ويرتكز مذهب أوغسطين أساسا على التمييز بين الحرب العادلة والحرب غير العادلة . وهو تمييز يرجع فى أصله إلى المشرعين الرومان الكلاسيكيين . ذلك أن شيشرون ، على سبيل المثال، قد عالج هذه المسألة فى كتاباته . ولكن مفهوم أوغسطين للحرب العادلة تعدى الاعتبارات والمفاهيم الرومانية القديمة . فقد كان الرومان يظنون أن الحرب العادلة Bellum iustum هى التى يتم إعلانها بطريقة صحيحة تراعى الطقوس الدينية والشكل الاحتفالى العام ، كما يجب أن يكون لها محتواها الأخلاقى ؛ أى أن يكون هناك سبب عادل لشنها .

أما أوغسطين ، فكان يرى أن أية حرب تشن بناء على أمر مقدس هى حرب عادلة . وفى رأيه أن الرب فى هذه الحال يكون هو الذى أمر بشن الحرب ؛ ولما كانت حروب الرب حروبا عادلة ، فإنه يحق للحكام شن الحرب دفاعا عن الحق ، وبهذا تكون حروبهم عادلة استنادا إلى ما قاله بولس من أن الحكام يستمدون سلطانهم من الرب[١٢] . وبهذا فإن الحرب التى يرخص بها الرب تعتبر تفويضا إلهيا Bellum Deo auctore .

وإذ قدم أوغسطين التبرير المسيحى للحرب ، فإنه وجه اهتمامه إلى تعريف **"الحرب العادلة"** وكان ذلك التعريف الذى طرحة أوغسطين هو أول تعريف للحرب العادلة يضعه مفكر غربى بعد شيشرون . وفى رأيه أن الحرب العادلة تنتقم للأضرار Iust bella ulciscuntum in-iuris ؛ بمعنى أنها تجد لنفسها المبرر حين يتجاهل شعب ما ، أو مدينة ما حقوق الآخرين ، أو حين توجد رغبة فى استرداد ما قد يكون هذا الشعب ، أو هذه المدينة ، قد استولت عليه دون وجه حق . كما وضع أوغسطين شروطا للحرب العادلة Iustum bellum ، اختصرها من علقوا على كتاباته وشرحوها فى القرون التالية فى شروط ثلاثة هى :[١٣] أن يتم إعلان الحرب بواسطة حاكم شرعى Autoritas principi (سواء كان علمانيا أو كنسيا) ؛ لأن إعلان الحرب يدخل فى نطاق سلطاته الشرعية . والشرط الثانى هو أن يكون هناك سبب عادل Causa iusta يبرر شن الحرب ، مثل الدفاع عن الوطن ، والقانون ، والتقاليد ، أو استعادة الأرض التى استولى عليها الغير دون وجه حق ، أو لفرض حكم قضائى . أما الشرط الثالث ، فهو ألا يكون هناك بديل Ulterior للحرب ، أى أن تكون الحرب هى الوسيلة الوحيدة المتاحة In-tentio recta لتحقيق هدف مشروع .

هكذا يعود الفضل إلى أوغسطين فى وضع بذور فكرة الحرب المقدسة ؛ وكانت آراؤه فى هذا الصدد هى الخلفية التى قام عليها الموقف الأساسى لمعظم المفكرين الغربيين تجاه مسألة الحرب[١٤] . لقد عالج أوغسطين المفاهيم التى وردت فى الكتاب المقدس عن الحرب بشكل سياسى ، مما أدى إلى تغير الموقف الفكرى للكنيسة من الحرب ؛ إذ أن الحرب صارت ضرورة بعد أن كانت خطيئة ، أو عملا خاطئا . فجندى المسيح Mile Christi هو الذى يحارب الآخرين من البشر مثلما يحارب الخطيئة والشر . هذا الموقف الثورى الذى أحدثه أوغسطين فى الفكر الكنسى فرض الاعتراف بالعنف المادى كحقيقة من حقائق الحياة والمجتمع ؛ بيد أنه ، فى الوقت نفسه ، أنكر استخدام هذا العنف لتحقيق المصالح الفردية الخاصة لأن هذا يكون تعبيرا عن الحقد والكراهية التى تقف على النقيض من الحب الذى يوصى به الإنجيل . وكان الحكام ، هم فقط الذين يستطيعون ممارسة القتل الجماعى من خلال الحرب دون خشية إدانتهم بالكراهية أو انعدام الحب .

لقد وجد مشرعو العصور الوسطى الكنسيون تلخيصا لموقف أوغسطين من الحرب العادلة فى العبارة التى أوردها ايزيدور الاشبيلى[١٥] فى كتابه المعروف باسم "الاشتقاقات" ؛ إذ قال إن "**الحرب العادلة هى الحرب التى تشن بأمر لاستعادة الممتلكات أو لصد هجوم**"[١٦]. كذلك كان من رأى المشرعين الكنسيين بعد ايزيدور أن المشاركين فى الحرب العادلة لايرتكبون ذنبا بقتل الأعداء ؛ بل إنهم قالوا إن من يعاقب الخطاة يكون بمثابة خادم للرب نفسه . وقد عالج أولئك المشرعون الكنسيون مشكلة الطاعة عندما يختلف الجندى مع أميره حول عدالة الحرب . وبما أن طاعة الرعايا لملوكهم كانت قناعة إنسانية عامة آنذاك ، فقد تبنى أولئك المشرعون الموقف الأوغسطينى القائل بأن على الجندى أن يطيع أميره ، حتى ولو ساورته الشكوك حول عدالة الحرب التى يشارك فيها . وعلى الجندى أن يقاتل حتى ولو كان يرى أن الحرب غير عادلة ، طالما أن الملك أو الأمير لم يأمر بأعمال تتناقض تناقضا صارخا مع المفاهيم الدينية[١٧] .

والواقع أن هذا الجانب فى فكرة أوغسطين عن الحرب العادلة يعكس روحه الرومانية بجلاء شديد . فالروح الرومانية العسكرية التى جبلت على النظام والطاعة تتطلب طاعة الرعايا لحكامهم فى جميع الأحوال ، كما تستوجب انصياع الجنود لأوامر قادتهم أيا كان رأيهم فى هذه الأوامر . ومن ناحية أخرى يمكن تفسير الموقف الأوغسطينى فى ضوء الحقيقة القائلة بأن تعصب أوغسطين للمسيحية الكاثوليكية جعله يرى فى كافة أشكال الإيمان المخالفة لعقيدته الكاثوليكية خطرا ينبغى سحقه ؛ ومن ثم فإنه كان حريصا على صياغة الإيديولوجية بالشكل الذى يبرر استخدام القوة لمصلحة الكنيسة الكاثوليكية . ومن هذا الخط بدأ التطور الذى أدى إلى وجود فكرة الحرب المقدسة ثم الفكرة الصليبية داخل نطاق فكرة الحرب العادلة التى لم تكن تفرق بين الحرب الهجومية والحرب الدفاعية . وهكذا استطاع أوغسطين أن يهزم الاتجاه السلمى الذى تميزت به المسيحية فى عهودها الباكرة .

وعلى الرغم من محاولة البعض للتفرقة بين الحرب العادلة والحرب المقدسة ؛ على أساس أن الحرب المقدسة يتم خوضها فى سبيل أهداف دينية ، أو تعلنها سلطة مقدسة ، على حين أن الحرب العادلة تشن عادة على يد سلطة عامة فى سبيل تحقيق أهداف أكثر دنيوية ؛ مثل الدفاع عن الأرض ، والأشخاص ، والحقوق ، وعلى أساس أن المشاركة المسيحية فى الحرب المقدسة واجب على حين تخضع المشاركة فى الحرب العادلة لعدة قيود[١٨] - نقول إنه على الرغم من هذه المحاولة ، فالواقع أن التمييز بين هذين النمطين من الحرب اللذين سمح بهما

الفكر المسيحى فى العصور الوسطى كان صعبا على المستوى النظرى من ناحية ، كما أن أولئك الذين كانوا يهتمون بتبرير بعض الحروب على الصعيد الواقعى لم يهتموا كثيرا بهذه الناحية .

ومن ناحية أخرى ، فإن التحولات التى طرأت على واقع غرب أوربا فى تلك الفترة كان لها أثرها فى تطور فكرة الحرب المقدسة ، وقد تجسد هذا التطور فى موقف كل من البابا جريجورى الكبير[١٩]، والإمبراطور شارلمان . فمثل بطاركة العهد القديم ، كانت استجابة جريجورى لمشاكل عصره هى الإمساك بالمبادرة العسكرية ؛ فقد نظم الدفاع عن المدن التى يتهددها الأعداء ، كما قدم مشورته للمناورات التكتيكية ؛ بل إنه عقد معاهدات الهدنة أيضا . وكان يربط دائما بين قضية الرب والقديس بطرس والبابوية من ناحية ، والترتيبات العسكرية من ناحية أخرى . ولكنه كرجل كنيسة يفتقر إلى الشرعية السياسية تخطى حاجز الشكوك والهواجس ، وقام بدوره مباشرة فأخذ يحرض من بقى من الموظفين الإمبراطوريين على محاربة أعداء الكنيسة باعتبارهم "محاربى الرب Bellatores Domini"[٢٠] أما شارلمان ، فإن الدور الذى قام به لصالح البابوية ، ثم طلب البابوية المتكرر لمساعدة شارلمان ضد اللمبارديين ، فضلا عن حملاته ضد السكسون لإجبارهم على اعتناق المسيحية[٢١] - كل هذا أدى إلى التقريب بين فكرة الحرب العادلة والحرب المقدسة .

وفى منتصف القرن التاسع كتب مفكرون من أمثال هنكمار الرغسى Hincmar of Rheims وآرابانوس مووروس Harabanus Maurus وسيدوليوس سكوتوس Sedulius Scotus عن فكرة أوغسطين عن الحرب العادلة وحاولوا بعثها من جديد لتأكيد حق الدفاع عن الإمبراطورية والعقيدة المسيحية . وفى القرن التاسع كان الحوار والخلاف مايزال مشتعلا حول شرعية الحرب، وماهية الحرب العادلة ، وشارك فى الجدل الدائر آنذاك عدد كبير من مفكرى ذلك العصر . وهنا ينبغى أن نشير إلى حقيقة هامة مؤداها أن الغرب لم يبارك الحرب مباركة تامة فى أى وقت قبل سنة ١٠٩٥م ، بل أن "الحرب العادلة" أو "الحرب المقدسة" التى تعضدها الكنيسة بشكل أو بآخر لم تحظ بأى تأييد جماعى فى الغرب[٢٢] . ولكن كتابات المعاصرين من البابوات كانت تكشف عن اتجاه متزايد نحو إضفاء الشرعية على الحرب من قبل الكنيسة .

والواقع أن حركة المجتمع ، والأحداث التى فرضت نفسها على مسرح الحياة فى هذا المجتمع كانت وراء هذا الاتجاه لصياغة إيديولوجية تبرر الحرب ، بل وتجعلها عملا مقدسا وضرورة من ضرورات وجود المجتمع نفسه . وتكشف مجموعة القوانين الكنسية منذ منتصف القرن التاسع

وحتى سنة ١٠٩٥م عن أن التعاليم البابوية لتبرير القتل لم تتوقف عند حد عدم اعتبار من يذبحون أعداء الكنيسة مذنبين ، وإنما استثنت المسلمين واليهود ، وجعلت الحرب الدفاعية ضد المسلمين حربا مشروعة ووضعت أمام المشاركين فى هذه الحرب إمكانية التكفير عن خطاياهم والحصول على الغفران(٢٣) . ففى ديسمبر سنة ٨٥٣م طلب البابا ليو الرابع Leo IV (٨٤٧-٨٥٥) مساعدة الجيوش الفرنجية ضد المسلمين الذين هاجموا روما ، وذكر البابا الفرنج بانتصاراتهم السابقة ضد العدو نفسه ، ووعدهم بأن من يموت فى خضم الصراع سوف يجد مكافأة على ذلك فى السماء(٢٤) . وهكذا ربط ليو الرابع بين الحرب ضد المسلمين ومفهوم الخلاص ؛ إذ أن الكنيسة اعتبرت الحرب ضد أعدائها عملا يستحق الثواب ويضمن للمرء مكانا فى السماء . وكانت هذه خطوة أكثر تقدما فى سبيل صياغة إيديولوجية الحرب المقدسة أوجدتها الظروف التاريخية الموضوعية . فالبابوية لم تكن متورطة بشكل مباشر فى تنظيم الجيوش وتوجيهها للحرب حتى القرن التاسع عندما واجهت مشكلة الدفاع عن أملاكها فى وسط أوربا . وعندما حدث ذلك بدأت محاولات البابوية لتبرير الحرب على أسس دينية من ناحية ، وربطها بمفهوم الخلاص المسيحى من ناحية أخرى .

وبعد ذلك بعقدين من الزمان ، أى فى سنة ٨٧٨م ، برزت الفكرة مرة أخرى ، وبصورة أوضح على يد البابا يوحنا الثامن (٨٧٢-٨٨٢)(٢٥) الذى طلب فى سنة ٨٧٦ مساعدة شارل الأصلع ضد المسلمين ، وعبر عن خوفه من أنه بدون هذه المساعدة قد تتعرض الديانة المسيحية والمجد الإمبراطورى للخطر(٢٦) . وفى معرض الإجابة عن سؤال طرحته مجموعة من الأساقفة حول ما إذا كان أولئك الذين يموتون دفاعا عن الكنيسة ، والديانة المسيحية ، وحكومتهم ، سينالون الغفران أجاب البابا بأن من المؤكد أن أولئك المحاربين سينالون الخلود .

بيد أن الصراع الفكرى حول مسألة الحرب لم يكن قد حسم بعد . فقد أخذ المثقفون الغربيون فى تحليل الجوانب المختلفة لقضية الحرب ، وتزايدت السمة العقلانية فى كتاباتهم منذ القرن الحادى عشر حتى نهاية القرن الثالث عشر . وتركزت المناقشات حول الجوانب الأخلاقية واللاهوتية للحرب . ولكن حتى القرن الحادى عشر ، وفى أثناء هذا القرن ، كان هناك كثيرون يعارضون فكرة الحرب من بينهم رجل القانون الكنسى بير شارد الورمزى Bur-chard of Worms . وكذلك فإن بطرس دميانى Peter Damiani الذى يعتبره البعض أحد زعماء حركة الإصلاح الكنسى فى القرن الحادى عشر(٢٧) ، قد رفض الحرب تحت أية ظروف . بل إنه حتى الكاردينال هيومبرت الحاد الطبع(٢٨) قد رفض الحرب ضد الهراطقة .

وظل الحال كذلك حتى أخذ المتحدثون الرسميون باسم الكنيسة يتبنون رأيا مخالفا . فلم يحدث قبل منتصف القرن الحادى عشر أن تلقفت البابوية ، مرة أخرى ، فكرة الحرب المقدسة كأساس أيديولوجى لسياستها . فمع تصاعد حركة الإصلاح فى الكنيسة الغربية وجد البابا ليو التاسع Leo XI (١٠٤٩-١٠٥٤) ، أول البابوات الاصلاحين ، أنه فى موقف حرج يجابه صعوبات عسكرية عديدة . وبعد شهرين فقط من رسامته عقد مجمعا فى روما حض فيه على العمل العسكرى ضد العصاة التسكانيين الذين كانوا يعكرون صفو السلام فى كمبانيا Cam-pania ؛ بل إن البابا نفسه توجه على رأس قوة صغيرة ، بمساعدة الفرسان الألمان الذين أرسلهم الإمبراطور الألمانى ، لقتال النورمان سنة ١٠٥٣ . وكانت هذه الحملة البابوية كارثة عسكرية ؛ إذ أجهز النورمان على الجيش البابوى فى معركة Civitá ، وتم أسر البابا ليظل رهين محبسه لدى النورمان حوالى سنة . وعندما أطلق سراحة سنة ١٠٥٤م عاد إلى روما ليموت هناك بعد شهر(٢٩) . وثمة دلالة لايخطئها الباحث فى هذه الحملة على أن البابوية قد غيرت موقفها الفعلى من قضية الحرب . وأهمية هذه الأحداث فى تطوير الإيديولوجية الصليبية تكمن فى الدور النشيط الذى لعبته البابوية فى توجيه الحملات العسكرية لحماية أملاك الكنيسة . والواضح أن البابا ليو التاسع لم يكن يعتبر حملته ضد النورمان حربا عادلة فحسب ، وإنما كان يعتبرها أيضا حربا مقدسة دفاعا عن مصالح الكنيسة وأملاكها .

لقد صارت البابوية قوة سياسية ذات مصالح دنيوية مثل سائر الحكومات والقوى السياسية؛ ومن ثم كان طبيعيا أن تضطلع بهذا الدور العسكرى . بيد أن طبيعة البابوية كتجسيد للسلطة الدينية ، من ناحية أخرى ، فرض عليها أن تبحث عن تبرير يتناسب مع طبيعتها ، ولم يكن هناك ماهو أفضل من فكرة الحرب المقدسة التى كانت أساسا جيدا للسياسة البابوية العلمانية .

وفى سنة ١٠٦٣م سارت البابوية خطوة أكثر أهمية حين منح البابا إسكندر الثانى المحاربين المسيحيين الذين يقاتلون مسلمى الأندلس غفرانا ، وإعفاء من التوبة ، واعتبر قتالهم للمسلمين بمثابة تكفير عن خطاياهم . وكان هذا التصرف جزءا من سياسته العامة لتشجيع الحرب ضد المسلمين التى عرف باسم حرب الاسترداد Reconquista ، ففى خطاب موجه من البابا اسكندر الثانى (١٠٦١-١٠٧٣م) إلى أسقف ناربون Norbonne ، نجده يستثنى ذبح المسلمين من التحريم الكنسى العام للقتل ، كما يكشف بوضوح تام عن مساندته للحرب الكاثوليكية ضد المسلمين(٣٠) . وفى خطاب آخر إلى رجال الكنيسة فى فولتيرنو Volturno كشف هذا البابا عن المكاسب الروحية التى يمكن للمشاركين فى الحرب ضد المسلمين أن

يحصلوا عليها ؛ إذ يقول : "بتأكيد بابوى نحث أولئك الذين قرروا الذهاب إلى أسبانيا على أن يولوا جل انتباههم لإنجاز مهمتهم بنصيحة مقدسة . وليعترف كل جندى ، حسب طبيعة خطاياه ، لأسقفه أو لأبيه الروحى ، وليفرض عليه من يتلقى اعترافه التوبة والتكفير المناسب، لئلا يصبح الشيطان قادرا على غوايته بعدم التوبة . وعلى أية حال، فإننا بسلطة الحواريين المقدسين ، بطرس وبولس ، نعفيهم من توبتهم ونمنحهم الغفران لخطاياهم ، على حين تصحبهم صلواتنا .."(٣١).

لقد كانت هذه التطورات على المستوى الواقعى انعكاسا للتطورات النظرية التى مرت بها فكرة الحرب المقدسة من ناحية ، كما كانت من عوامل تطوير هذه الفكرة نفسها من ناحية أخرى . فقد أباحت تعاليم المشرعين الكنسيين استخدام القوة ضد المسلمين فى أسبانيا بحجة أنهم يضطهدون المسيحيين . وفى ظل هذه الظروف يجب على البابا كراع للشعب المسيحى أن يبيح استخدام القوة لحماية شعب المسيح . وهذا مافعلته البابوية بالفعل . ولكن هذا التغير فى موقف الكنيسة الرسمى من الحرب قد حدث بسبب هيلدبراند (الذى اعتلى الكرسى البابوى فيما بعد تحت اسم جريجورى السابع) فقد كان هذا "الشيطان المقدس" وراء إرسال البيرق البابوى إلى وليم الفاتح سنة ١٠٦٦ تشجيعا له على غزو انجلترا (٣٢) . ثم حدث التغير الجذرى فى السياسة البابوية تجاه الحرب إبان بابوية جريجورى السابع (١٠٧٣-١٠٨٥) الذى كان أكثر البابوات ميلا للحرب ، وكان هو المبتكر الحقيقى لفكرة الحرب المقدسة فى العصور الوسطى ، وقد أحدث ثورة أخرى فى موقف المسيحية من الحرب (٣٣) . ولم يكن هناك جانب فى حركة الإصلاح الكنسى فى القرن الحادى عشر أهم من هذا التغير فى موقف المسيحية الرسمى من الحرب . فبعد أن كانت الحرب عملية خاطئة ، صارت عملية مقرونة بالغفران والاستشهاد .

لقد قال جريجورى إن أولئك الذين يموتون فى القتال دفاعا عن المسيحية يستحقون التحرر من خطاياهم . حقيقة أن أسلاف جريجورى (خصوصا ليو الرابع سنة ٨٥٣م ، ويوحنا الثامن سنة ٨٧٨م ، وليو التاسع سنة ١٠٠٣م ، واسكندر الثانى سنة ١٠٦٣م) قد تكلموا بمصطلحات مشابهة ، ولكنهم كانوا يتحدثون عن الحرب الدفاعية . أما جريجورى السابع فقد تحدث عن الحرب الهجومية من أجل توسيع رقعة العالم المسيحى . لقد استخدم "الشيطان المقدس" عبارة Militia christi (أى حرب المسيح) كثيرا ، ومع أن هذه العبارة تنسب إلى بولس الرسول.فإن بولس كان يقصد بها حربا أخرى ضد الشر المعنوى وليست ضد اللحم والدم ؛ لقد كانت الحرب التى يقصدها بولس حربا يتسلح لها المسيحى بإنجيل السلام . وظلت الأجيال المسيحية التالية

تعتبر أن حرب المسيح Militia Christi هى المعركة الروحية التى يخوضها الشهيد أو الراهب ؛ فهى على النقيض تماما من الحرب الخاطئة التى تستخدم فيها الأسلحة المادية فى الحرب الدنيوية Militia Secularis . أما جريجورى السابع فقد أعلن أن الحرب الأرضية يمكن أن تكون جزءا حقيقيا وأصيلا فى حرب المسيح . وخلال صراعه ضد الإمبراطور هنرى الرابع(٣٤) ، نادى جميع الفرسان لتكريس سيوفهم فى خدمة المسيح والقديس بطرس لكى يؤكدوا إيمانهم المسيحى عن هذا الطريق(٣٥) .

ومن ناحية أخرى شهد عصر جريجورى السابع تكريس نمط جديد من القديسين الجنود . حقيقة أنه كان هناك قديسون/ جنود من قبل ؛ مثل سان موريس ، وسان سباستيان ، وسان جورج وسان مارتان ، ولكنك إذا قرأت الأساطير التى تدور حولهم فسوف تلاحظ أنهم قد حظوا بالقدسية على الرغم من أنهم جنود . فالقديس موريس ، مثلا ، كان أحد أفراد فرقة رومانية فى بلاد الغال ، وقد عصى الأوامر العسكرية (وفقا لرواية الأساطير) بتقديم القرابين الوثنية ، كما رفض معاقبة المسيحيين . كذلك فإن القديس مارتان ترك الجيش الرومانى وأعلن أنه جندى المسيح وليس مسموحا له أن يقاتل . ولكن البابا جريجورى السابع بدأ يعترف بالقديسين / الجنود بسبب كونهم جنودا ، مثل إيرلمبالد Erlembald of Milan الذى هلك سنة ١٠٧٥ أثناء أحداث العنف التى تسبب فى إثارتها بين أهالى ميلانو . فقد اعتبره جريجورى جنديا مسيحيا Miles Christi حقيقيا ، وفى سنة ١٠٧٨م أعلن اعتباره قديسا(٣٦).

لقد وصف جريجورى السابع ، بأنه أحد الذين ساهموا فى الصياغة الأساسية للأيديولوجية الصليبية ، وهو فعلا كذلك . فمن المؤكد أنه عندما قام البابا أربان الثانى Urban II (١٠٨٨-١٠٩٩م) بإعلان الحملة الصليبية فى كليرمون سنة ١٠٩٥م ، كانت الحرب المقدسة قد صارت هى النغمة الدالة فى السياسة البابوية والحوار الدينى فى الغرب . ولم يحدث أن صارت الدعوة إلى الحملة الصليبية أمرا ممكنا سوى بعد أن غير جريجورى السابع موقف الكنيسة الرسمى من الحرب ، وبعد أن قام الدعاة البابويون بالترويج لهذه الإيديولوجية الجديدة فى الربع الأخير من القرن الحادى عشر .

ولدينا مجموعة من الوثائق (٣٧) تدل دلالة واضحة على التغير الجذرى الذى أحدثه جريجورى فى الموقف الكنسى الرسمى تجاه الحرب . وأول هذه النصوص خطاب مؤرخ بتاريخ ٢ فبراير سنة ١٠٧٤م من جريجورى السابع إلى وليم الأول كونت بورجونى Bourgogne يدعوه لنجدة الكنيسة وجمع النورمان لقتال الكفار الذين يهددون القسطنطينية . والوثيقة الثانية بتاريخ أول مارس ١٠٧٤م يخاطب فيها "كل من يرغبون فى الدفاع عن العقيدة" ويحثهم على

القدوم لنجدة الإمبراطورية اليونانية (البيزنطية) التى يهددها الكفار الذين تقدموا حتى أسوار القسطنطينية . والوثيقة الثالثة عبارة عن خطاب موجه من جريجورى السابع إلى وليم السادس كونت بواتييه Poitiers يشكره على ماقدمه من خدمات للدفاع عن العقيدة . أما النص الرابع فهو عبارة عن خطاب بتاريخ ٧ ديسمبر ١٠٧٤م من البابا جريجورى السابع إلى الإمبراطور هنرى الرابع الألمانى ، يخبره أنه مستعد للسير لإنقاذ البيزنطيين وتخليص الضريح المقدس بجيش قوامه خمسين ألف رجل ؛ ويقترح عليه أن يقوم برعاية شئون الكنيسة فى غيابه. وفى السادس عشر من الشهر نفسه يوجه جريجورى خطابا إلى المؤمنين من أتباع القديس بطرس يستحثهم على القدوم لنجدة مسيحيى الشرق . والوثيقة السادسة عبارة عن خطاب من البابا إلى الكونتيسة ماتيلدا يدعوها لمرافقته فى الحملة التى أعدها ضد الكفار .

ويرى كثيرون من المؤرخين فى خطابات جريجورى الستة برهانا على أن البابا قد أعد مشروعا لحملة صليبية حقا ، وأن التعقيدات التى نجمت عن صراعه ضد الإمبراطور الألمانى هنرى الرابع هى التى حالت دونه وتحقيق مشروع الحملة الصليبية . ولكننى أعتقد أن هذه الوثائق لاتكشف سوى عن الجانب العسكرى العدوانى فى شخصية جريجورى (وهو الذى تجلى قبل ذلك فى موقفه من الغزو النورمانى لانجلترا سنة ١٠٦٦ رغم أنه كان مايزال كاردينالا باسم هيلدبراند ، كما تجلى بعد ذلك فى حادثة كانوسا الشهيرة عندما اشتعل الصراع ضد الإمبراطور) كما أنها من ناحية أخرى ، تجسيد لسياسة هذا البابا فى أن يحيط الكنيسة ، **المهددة بالهجمات من كل جانب** ، فى تصوره ، بجيش من المؤمنين المجندين للدفاع عن البابوية وتنفيذ سياستها .

وعلى الرغم من أن خطط جريجورى السابع كلها لم تسفر عن شئ ، فإن مشروعه بالتدخل العسكرى فى الشرق يعتبر خطوة هامة فى سبيل تطوير الفكرة الصليبية . إذ كانت تلك هى المرة الأولى التى يتم فيها الإعلان عن مشروع لشن حرب مقدسة تحت قيادة البابوية ؛ ففى سرحة من سرحات الخيال تصور جريجورى نفسه قائدا لجيش الخلاص الكاثوليكى المتجه إلى الشرق لتخليص المسيحيين . ومع أن هذا المشروع كان يهدف أساسا إلى الدفاع عن بيزنطة ، فإن عبارة "تخليص الضريح المقدس" التى وردت فى أحد خطابات جريجورى ، تشى بأن الإيديولوجية الصليبية فى أساسها الفكرى كانت قد قاربت حد النضج . لقد كان اقتراح جريجورى هو الرحم الذى ولدت فيه الفكرة الصليبية التى تجمع بين الحرب المقدسة والحج .

ومن الواضح أنه مع بداية بابوية أربان الثانى كانت فكرة الحرب المقدسة قد رسخت تماما فى الفكر الكنسى . فقد كانت الكنيسة قد اعترفت مرارا بأن الحرب ليست ممارسة مشروعة فحسب ، وإنما يمكن أيضا أن تكون خطوة فى سبيل الخلاص والحياة الخالدة لمن يشاركون فيها. حقيقة لم يكن ثمة مذهب عام للفكرة الصليبية قد تمت صياغته بعد ، ولكن الوجود الواقعى لأنماط "الحرب المقدسة" و"الحرب العادلة" كان يلقى القبول والاعتراف[٣٨] . وحين ربط جريجورى السابع بين الغفران المسيحى والحرب ضد المسلمين كان يجسد الفكرة القائلة بأن واجب البابا أن يستخدم القوة لحماية شعب المسيح من الأعداء . وهذه الذريعة نفسها هى التى ارتكزت عليها خطبة أربان الثانى فى كليرمون سنة١٠٩٥م[٣٩] .

والحقيقة أن أربان الثانى ، فقط ، هو الذى وجد الدعوة إلى الحملة الصليبية . لقد تمثلت مساهمة أربان الأساسية فى صياغة الإيديولوجية الصليبية فى أنه استطاع أن يجمع بين عدد من الأفكار المقبولة لدى الجماهير فى شكل جديد .. هذا الشكل الجديد كان هو الحملة الصليبية . وهكذا بدأ تاريخ كنيسة العصور الوسطى بالإنجيل المبشر والداعى إلى السلام لينتهى إلى الكنيسة المقاتلة تحت راية الصليب .

لقد استطاع أربان الثانى أن يوحِّد شعوب الغرب الأوربى فى مشروع عام ، على الرغم من أن لغات هذه الشعب وعاداتها المحلية ، واهتمامات أبنائها كانت تختلف اختلافا بينا . ولكن الفكرة الصليبية التى جمعت جماهير الغرب الأوربى لم تكن لتنجح لو لم تكن متوافقة مع حركة المجتمع ، هذا التوافق بين الفكر والواقع ، بين التبرير الأخلاقى للحرب وحركة المجتمع ، هو الذى خلق الإيديولوجية التى تحركت الجماهير الأوربية فى إطارها . فعلى المستوى الشعبى كان تفكير الناس فى أوربا الغربية فى القرن الحادى عشر يتوازى مع السياسة البابوية ، وفكرة الحرب المقدسة إلى حد ما . إذ أن أوربا كانت قد بدأت حركة إحياء دينية مع مشرق شمس القرن الحادى عشر . ومع اقتراب الألف الأولى بعد المسيح من اكتمالها سرت موجة بالإحساس بالذنب والرغبة فى التوبة فى غرب أوربا ، فقد تعمق لدى الإنسان الغربى الشعور بالخطيئة والإحساس بالذنب . والحقيقة أن من يقرأ مصادر تاريخ القرن الحادى عشر فى غرب أوربا لايمكن أن يغفل إصرار الناس فى ذلك الزمان على أن يضمنوا لأنفسهم غفران خطاياهم Remissio peccatorum . وكان هذا نتاجا للمشاعر الألفية والأخروية التى ملكت على الناس وجدانهم وعقولهم مع توقعاتهم لمجئ يوم الدينونة . وانتشر الوعاظ الجوالون فى كل أنحاء الغرب الأوربى يحثون الناس على الزهد والتوبة والتشبه بحياة الفقر التى عاشها

الحواريون . وفى غمرة هذا التدين العاطفى الذى حكم تصرفات المجتمعات الغربية سادت مشاعر الكراهية والتعصب ضد أتباع الديانات الأخرى ، بل وضد من يعتنقون مذهبا غير المذهب الكاثوليكى . وثمة دليل قوى على هذا فى طيات الملحمة الصليبية المعروفة باسم "أنشودة أنطاكية" La Chanson d'Antioche التى تعكس ، بشكل أمين ، روح الانتقام التى سرت فى المجتمع الكاثوليكى ضد "الوثنيين المخذولين" ، كما أن القصيدة لاتعتبر أن الأمة المعادية للمسيح هم المسلمون فقط ، وإنما يصدق هذا الوصف أيضا على كافة من لايعترفون بعقيدة الكنيسة الكاثوليكية (٤٠) وهى بهذا تجسد التفكير الشعبى فى أوربا القرن الحادى عشر . هذا التفكير الشعبى كان هو الآخر واحدا من ملامح الإيديولوجية العامة التى أفرزت الحركة الصليبية .

لقد تمثل نجاح أربان الثانى فى أن خطبته التى دعا فيها إلى الحملة الصليبية كانت بمثابة بؤرة تجمعت فيها كل الأفكار التى مثلت الإطار الإيديولوجى لحركة المجتمع الغربى آنذاك ، على الرغم من الاختلافات اللغوية والعادات والتقاليد (٤١) . وهكذا لم تكن استجابة جماهير المستمعين إلى البابا فى كليرمون مجرد رد فعل لبلاغة كلماته ، وإنما كانت هذه الاستجابة تعبيرا عن فرحة أولئك المستمعين بالمشروع الذى مس أوتار الآمال التى كانت تداعب كلا منهم تقريبا . وجاءت الحرب المقدسة ستارا مدهشا يمكن للجميع أن يتحركوا من خلاله لضمان تحقيق أحلامهم الدنيوية ، وخلاصهم الأخروى .

وبوسعنا أن نورد عشرات التعبيرات الواردة فى المصادر التاريخية والحوليات المعاصرة تصف الصليبيين بأنهم **"فرسان المسيح"** ، و**"رجال المسيح"** و**"أولئك الذين يكونون جيش المسيح"** و**"الشعب المقدس"** و**"شعب الرب"** . وهى كلها تعبيرات تشى بأن فكرة الحرب الصليبية كانت قد رسخت فى الأذهان بحيث كان الناس على اقتناع كامل بأنهم حين يشاركون فى هذه الحملة ، لايفعلون ذلك استجابة لأوامر أى مخلوق ، ولا حتى البابا نفسه ، وإنما هم يطيعون الرب . إذ كان الناس فى الغرب الأوربى قد باتوا يعتقدون أن الحرب الصليبية حرب مقدسة ، أعلنها البابا باسم الرب أو المسيح ، وأن هذه الحرب تكتسب شرعيتها من كونها مشروع الرب نفسه . والدليل على ذلك موجود فيما كتبه المؤرخ المجهول صاحب كتاب "أعمال الفرنجة" Gesta Francorum (٤٢) . "حين جاء الوقت الذى يحذر السيد المسيح شعبه المؤمن منه كل يوم ، خاصة فى الأناجيل حيث يقول : ".. إن أراد أحد أن يأتى ورائى فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعنى" (٤٣) حين جاء هذا الوقت كان ثمة شوق كبير يعتمل فى النفوس والقلوب فى

بلاد الفرنجة ، لدرجة أن أى انسان كان يريد حقا ، بكل قلبه وعقله أن يتبع الرب ويحمل الصليب خلفه .." كما أن فوشيه الشارترى Fulcher de Chartres ، الذى كان أحد شهود الحملة الصليبية الأولى ، كتب يقول : (٤٤) "أنه لشئ يبعث على السرور بين الأحياء ، بل أنه مفيد للموتى ، أن تتلى أعمال الرجال الشجعان ، لاسيما أولئك الذين يحاربون فى سبيل الرب من السجلات المكتوبة . أو يتم استرجاعها من الذاكرة ، لكى تنشر بين المؤمنين .. وكيف أنهم ساروا على تعاليم الأناجيل فتخلوا عن أجمل ما فى الكون وهجروا الآباء ، والزوجات ، وممتلكاتهم مهما عظمت ، لأنهم ملهمون بأن يتبعوا الرب ويعانقوه فى حماسة .." ومن ناحية أخرى ، فإن الشعر الصليبى المعاصر يكشف عن أن مشاركة الناس فى الحملة الصليبية ، كانت بدافع من رغبتهم فى الغفران والخلاص (٤٥) .

هكذا استطاع التيار الأغسطينى فى المسيحية الكاثوليكية أن يهزم التيار السلمى فى نهاية المطاف ، وإذ وضع أوغسطين تبريرا للحرب العادلة ، وجسد جريجورى السابع فكرة الحرب المقدسة ، فإن هذا التطور لم يكن ليصل إلى مرحلة النضج التى تمثلت فى الحركة الصليبية ما لم يكن قد ارتبط بالحج المسيحى من ناحية ، وما لم يكن قد تفاعل مع الروافد الأخرى لصياغة الخلفية الإيديولوجية التى لم يكن ممكنا للحركة الصليبية أن تنشأ دونها . وهنا نأتى إلى التيار الثانى فى الرافد المسيحى وهو تطور مفهوم **الحج المسيحى** ، وارتباطه بالتكفير ومفاهيم الغفران والخلاص بالشكل الذى جعله يتطور مع مفهوم الحرب المقدسة فى مفهوم واحد هو الحملة الصليبية .

كان تيار الحج المسيحى هو التيار الأقدم فى الرافد المسيحى الذى ساهم فى صياغة الخلفية الإيديولوجية للحروب الصليبية ، فمنذ العصور المسيحية الباكرة كان المسيحيون يشعرون بالرغبة فى التعرف على الأماكن التى شهدت تجسد المسيح عليه السلام وعذابه . وقد ورثت المسيحية عن اليهودية احتراما خاصة لمدينة أورشليم (القدس) . وحظيت هذه المدينة المقدسة باحترام جليل القدر لدى المسيحيين ، ثم شاءت التطورات التاريخية أن تظهر فيما بعد فكرة مؤداها أن المكان الذى شهد حياة المسيح واستشهاده أو استشهاد أحد القديسين توجد به قوة روحية تساعد على محو الذنوب والخطايا . وفى الوقت نفسه شاع الاعتقاد بين مسيحيى الغرب اللاتينى اعتقاد بأن الذخائر المقدسة (سواء كانت من رفات القديسين ، أو من الأشياء والملابس التى يستخدمونها) لها نفس القدرة على محو الذنوب . وبمرور الزمن تعين على الكنيسة الغربية أن تعترف بقيمة الحج إلى المزارات المقدسة كاعتقاد شائع فى العالم المسيحى

الغربى آنذاك . ولنبدأ فى استعراض تاريخى للحج المسيحى إلى الأماكن المقدسة ، حتى نرصد التطور الذى ربط الحج بمفهوم الخلاص من ناحية ، ثم أدى إلى المزج بين الحرب لمقدسة والحج فى فكرة واحدة خرجت منها الحملة الصليبية من ناحية أخرى .

فى خلال القرنين الأولين بعد المسيح لم يكن الحج إلى بيت المقدس سهلا ، ذلك أن المدينة نفسها كانت قد دمرت سنة ٧٠ ميلادية على يد القائد الرومانى تيتوس Titus (وهو الذى تولى عرش الإمبراطورية الرومانية بعد ذلك) ، أثناء ثورة اليهود [٤٦] . ومن ناحية أخرى فإن السلطات الرومانية لم تكن تسمح بأية رحلات من الخارج إلى هذه الأماكن [٤٧] .

بيد أن أحدا لم ينسْ الأماكن المقدسة . فقد كان المسيحيون الذين زاروا الأماكن المقدسة قبل عصر الحروب الصليبية يريدون أن "يقتفوا خطوات السيد وحوارييه ، وخطوات الأنبياء" ، ويقول : سان باولينوس النولاوى St. Paulinus of Nola إن سبب الحج إلى فلسطين كان هو "الرغبة فى رؤية ولمس الأماكن التى تجسد فيها .. وديننا يحفزنا على أن نرى الأماكن التى جاء إليها المسيح .." [٤٨].

لقد كان المسيحيون يحجون إلى الأماكن المقدسة ، فما هى حقيقة الأماكن المقدسة بالنسبة لهم ؟ الأمر واضح جلى ، ففى القرون الأولى ، عندما كانت الرغبة سائدة لاستعادة أفضل ذكريات العهد القديم كانت الرحلة مزدوجة : إلى القدس وإلى طريق الأنبياء [٤٩]. كانت تلك هى الحقيقة الحية للأماكن المقدسة ، ولكن الضريح المقدس صار هو قلب ومركز حركة الحج رويدا رويدا ؛ فقد كان ذلك هو المكان الذى يذهب إليه المرء ليبكى ويصلى : مثل ذلك القديس التى تحكى سيرته أنه كان يغسل الضريح المقدس بدموعه يوميا . والأماكن والأشياء التى يهتم بها الحاج إنما يهتم بها لأن المسيح زارها أو استعملها عندما تجسد بشرا لخلاص البشر ، وفى الرحيل إلى الأماكن المقدسة كان يمكن للمسيحى أن يرى بعينه ويلمس بيديه بعض الأشياء التى لمسها يسوع ورآها . إذ يخبرنا صفرونيوس أسقف القدس فى قصيدتيه المعبرتين عن شوقه للعودة إلى الأرض المقدسة (حوالى سنة ٦٠٢ ميلادية) ، ومشاهدة نفس الأماكن المرتبطة بقصة المسيح وقصص الكتاب المقدس ، ويختتم قصيدته الأولى مخاطبا جبل الزيتون بقوله :

يالحلاوتك الفائقة أيها الجبل اللطيف

يامن نظر المسيح من فوقك فى صفحة السماء

وهو يكرر المعانى نفسها ، تقريبا ، فى قصيدته الثانية ، وإن كان يختتمهاقائلا :

فلأصل إلى الكهف
الذى ذبح فيه الإخوة
بسبب غضب هيرود وإخوته
حين تجسدت الكلمة فى ميلاد بشرى [٥٠].

ونسمع عن بعض الحجاج يأكلون فى كهف أكل فيه المسيح مع بعض حوارييه [٥١]، والبعض الآخر يستحمون فى مكان تعميد المسيح فى مياه نهر الأردن[٥٢].

ومن ناحية أخرى، كان جميع الحجاج يحرصون على العودة إلى ديارهم ومعهم ذكرى من نوع ما. مثل هذه الأشياء سرعان ما ارتبطت بتجربة الحج برباط وثيق؛ إذ كانت تساعدهم على إبقاء ذكرى الحج حية عند العودة للوطن. وكانت بعض هذه الأشياء تعطى للحجاج على سبيل البركة blessing، وهى كلمة كانت، وماتزال، تعنى "هدية من مضيف مسيحى إلى ضيفه" وفى القرن السادس نجد الكلمة نفسها تستخدم الدلالة على ما يأخذه الحاج من مكان ما بقصد التبرك[٥٣] وكان متوقعا لمثل هذه الهدايا المباركة أن تجلب سعدا كثيرا؛ فقد اعتقد الحجاج أنها تشفى من المرض؛ مثل الزيت الذى كان يؤخذ من القلزم (بجوار السويس الحالية) ليشفى الذين استولت عليهم الشياطين[٥٤].

وقد ارتبطت برحلة الحج إلى الأماكن المقدسة الحاجة إلى جمع الذخائر المقدسة (أى رفات القديسين والشهداء وملابسهم وأدواتهم الشخصية .. وما إلى ذلك) وكان كل أولئك القادمين من الغرب يكتسبون مكانة ومجدا بقدر ما يمكنهم الحصول عليه من بعض البقايا الثمينة التى تخلفت عن عصر المسيحية الباكر، وأهمها مخلفات الشهداء والقديسين التى كانت توضع لتزيين الكنائس ورفعة شأنها، كما كان ملوك ذلك الزمان وأمراؤه يكنون قدرا كبيرا من التبجيل لهذه الذخائر المقدسة[٥٥] ذلك أن العدد الأكبر من القديسين والشهداء قد عاشوا فى فلسطين فى بواكير العصر المسيحى؛ ومن ثم كان الاحتمال قائما بوجود الذخائر المقدسة هناك[٥٦]. ومن بين جميع الأماكن فى العالم الذى كان يعرفه مسيحيو ذلك الزمان كانت القدس هى أشهر مورد للذخائر المقدسة. ويخبرنا سان أمبروز St. Ambrose أن هيلين أم قنسطنطين قد أخذت المسامير من صليب المسيح إلى ابنها الإمبراطور[٥٧]. كما أن قنسطنطين أرسل إلى القدس يطلب الذخائر المقدسة لوضعها فى كنيسة الحواريين فى القسطنطينية.

وفى القرن السادس تسمع عن سلسلة طويلة من المسافرين جاءوا من بلاد الغال (فرنسا) إلى فلسطين بحثا عن الذخائر المقدسة . ومن المؤكد أن رحلات حقيقية كثيرة قد غادرت الغرب الأوربى لهذا الغرض ، ولكن من المؤكد أيضا أن بعض هذه الرحلات ، أو الروايات التى صيغت حولها ، كلها كانت من نسيج خيال أولئك الذين كانوا يريدون ترويج بعض الذخائر المقدسة الزائفة(٥٨) .

هذا هو الجانب العاطفى فى حركة الحج المسيحى إلى الأرض المقدسة . وهنا ينبغى أن تشير إلى أن تقوى الحجيج مسألة موجودة فى كل الديانات القديمة والحديثة على السواء ، وذلك لأن الحج يرتبط بأكثر العواطف طبيعية لدى الإنسان . فإذا كان مرأى الأرض أو الآثار التى ترتبط بذكرى الأبطال والملاحم كافيا لأن يثير بداخل الناس أقوى نوازع الخير ، وذكريات البطولة والنبل ، فإن مرأى الأرض التى ترتبط بمولد الدين الذى يعتنقه الناس فى مجتمع ما ، يكفى لأن يلهب فيهم مشاعر الحماسة والعاطفة الدينية الفوارة . ولاشك فى أن مشهد الأرض التى شهدت تجسد المسيح تطرح أمام المسيحيين وفى خيالهم صورة منبت هذا الدين الذى يحيون به. ومن ثم فإن حركة الحج المسيحى إلى فلسطين لم تتوقف أبدا ولم يجف نبعها المتدفق ما بين الغرب الأوربى والقدس حتى سنة ١٠٩٩م عندما استولى الصليبيون على هذه المدينة .

فبعد انتصار المسيحية فى القرن الرابع ، اختفى الاسم الوثنى لمستعمرة القدس وهو أيليا كابيتالينا Aelila Capitalina ، وبرز اسم "أورشليم" القدس التى لم تعد مدينة اليهود منذ ذلك الحين ، ولكنها صارت مدينة المسيح والمسيحيين . فقد زارتها هيلينا أم الإمبراطور قنسطنطين التى ترتبط بها قصة اكتشاف الصليب الأعظم وبفضل هيلينا وابنها الإمبراطور بنى كنيسة الضريح المقدس فى أورشليم كما بنيت كنيسة بيت لحم(٥٩). وكان لذلك أثره فى امتداد خيط الحج إلى فلسطين ، وتزايد عدد الاستراحات والنُزُل التى أعدت لاستقبال الحجاج(٦٠) .

ومن المهم أن تشير إلى أن آباء الكنيسة الباكرة لم يكونوا سعداء بهذه الظاهرة فى أول الأمر . فعلى الرغم من أن جيروم أقام فى فلسطين فى القرن الرابع (٦١) ، فإنه أعلن أن إقامته فى فلسطين قد أعانته على فهم الكتاب المقدس بوضوح أكثر . وكان جيروم يسعى وراء المغزى الروحى لأسماء الأماكن المقدسة ، وهو ما حاوله من خلال الاشتقاقات التى اقترحها من أسماء هذه الأماكن . كذلك فإن جيروم نفسه قال إن المسيحى لن يخسر شيئا إذا لم يحج إلى الأماكن المقدسة . أما أوغسطين ، المعلم الأول للكنيسة الكاثوليكية ، فقد أدان الحج واعتبره مضيعة للوقت وخطرا يجب تحاشيه . ومن آباء الكنيسة الشرقية اتخذ حنا فم الذهب

(القصيح) موقفا مماثلا تقريبا ، فعلى الرغم من أنه كان يود ألاّ تحول واجباته الكنسيه بينه وبين السفر إلى فلسطين ، فإنه كان يسخر من صورة العالم الذى يتحرك بأسره ويسافر إلى فلسطين .. لا لشئ سوى إلقاء نظرة على تل يعقوب على حد قوله (٦٢) .

وعلى الرغم من ذلك ، فإن حركة الحج إلى فلسطين لم تتوقف ؛ فقد تمت آلاف من رحلات الحج إلى فلسطين قبل وصول الصليبيين ، ولكن الذين كتبوا عن تجاربهم كانوا عددا ضئيلا للغاية . وكان أول مسيحى يسجل تقريرا مفصلا عن رحلته للقدس رجلا من بوردو Bor-deaux فى سنة ٣٣٣م (٦٣) ، ثم تلته سيدة تدعى Egeria جاءت بعده بنصف قرن ، وأقامت فى الأرض المقدسة سنوات ثلاث . وفى منتصف القرن الخامس استقرت أيدوكيا Eudocia ، زوجة ثيودوسيوس الثانى فى أورشليم ، ومن هناك أرسلت إلى أخت زوجها صورة العذراء مريم التى يقال إن القديس لوقا كان قد رسمها لها (٦٤) .

ولم تستطع المنازعات المذهبية بين كنيستى الشرق والغرب أن توقف تدفق حركة الحج إلى فلسطين . وعلى الرغم من الكوارث التى حلت بأوربا الغربية من جراء الغزوات الجرمانية ظل الشرق المقدس قابعا فى وجدان الغربيين المسيحيين ؛ إذ كانت الرحلة إلى القدس قد صارت ممارسة دينية مسيحية يؤمن أهل الغرب الأوربى بجدواها . ومن المهم أن نشير إلى أن كتاب الحوليات والمدونات التاريخية ، وسير القديسين (الهاجيوجرافيا Hagiography) أخذوا يشيرون إلى رحلات الحج التى قام بها الأساقفة والرهبان ومقدمو الأديرة باعتبارها من الحوادث الهامة الجديرة بالتسجيل . فالحج إلى الأرض المقدسة كان يعتبر أهم إنجاز فى الحياة(٦٥) . وخلال القرن السادس استمر الحجاج يزورون الشرق بأعداد كبيرة ، وكتبت رسائل عديدة لمساعدتهم فى الطريق (٦٦) ومن نماذج هذه الكتب والمؤلفات التى كانت تصف الطريق إلى الأماكن المقدسة ، وأماكن الزيارة فيها بقصد التسهيل على الحجاج ، لدينا كتاب يسمى Breviarius of Jerusalem (أى وصف مختصر للقدس) (٦٧) ، وهذا الكتاب الذى يرجع تاريخه إلي بداية القرن السادس عبارة عن تقرير وصفى بالشعر لمدينة القدس . وكانت مثل هذه الكتب تعد لكى تكون دليلا للحاج حول الأماكن المقدسة ، وكانت توزع فى بلاد الغرب الأوربى وفى الأماكن المقدسة على حد سواء . وربما كانت تنتج على شكل صفحات عريضة يقوم وكلاء السفن بعرضها على المسافرين من الحجاج فيما يشبه ملصقات الدعاية السياحية فى زماننا .

ثم حدث الغزو الفارسى لبلاد الشام ، وأعقبه الفتح الإسلامى فى القرن السابع دون أن يتأثر تيار الحج إلى فلسطين بهذه الأحداث . ومن المعلوم أن المسلمين يقدسون الحج أكثر من

المسيحيين ، فالحج إلى بيت الله الحرام من الفروض الأساسية "لمن استطاع إليه سبيلا" وقد نزل التشريع به فى القرآن الكريم [٦٨] ، ولهذا السبب تعاطف المسلمون مع الحجاج المسيحيين وتسامحوا تجاه الرحلات الدينية التى قام بها مسيحيو الغرب اللاتينى لزيارة القدس [٦٩] . ولدينا وثيقة تاريخية تدل على مدى تسامح المسلمين تجاه مسألة الحج المسيحى ، وهذه الوثيقة المعروفة باسم "مفكرة بكنائس القدس Commeratorium on the Churches of Jerusalem عبارة عن مفكرة ملخصة عن كنائس وأديرة مدينة القدس والمناطق المجاورة لها ، وأسماء وأعداد الأساقفة والشمامسة والرهبان الذين يتولون الخدمة فى هذه الأماكن [٧٠] . وقد كتبت هذه الوثيقة حوالى سنة ٨٠٨ ميلادية فى ظل العلاقات الطيبة بين العباسيين وشارلمان ، إذ يبدو من المستحيل أن يتم إنجازها دون موافقة رسمية من السلطات الإسلامية الحاكمة وهى تكشف عن أن المؤسسات المسيحية فى فلسطين كانت مزدهرة آنذاك .

ولكن طابع حركة الحج المسيحى تغير منذ القرن السابع فصاعدا . وكان هذا التغير هو الذى سار بالحج صوب الحملة الصليبية . فبينما اتخذت رحلات الحج فى القرون المسيحية الأولى طابعا عاطفيا خالصا ، اتخذت رحلات الحج منذ القرن السابع شكل العمل التكفيرى الذى يجب على الخطاة المعترفين أن يقوموا به . ولم يلبث أن تحول إلى طقس من طقوس التوبة المقننة كنسيا . وكان هذا التغير نتيجة واضحة للتأثير المتزايد للكنيسة الإيرلندية عموما فى تلك الآونة . فمنذ وقت مبكر ، ربما يعود إلى زمن القديس كولمبان Columban ، كان نظام التكفير الأيرلندى يقتضى غالبا أن يقوم الشخص الذى ارتكب بعض الخطايا الخطيرة برحلة حج طويلة فيما وراء البحار تكفيرا عن ذنوبه[٧١] . وبحلول القرن الثامن كان القيام بالحج كإجراء تكفيرى قد صار ممارسة دينية شائعة فى القارة الأوربية . وظهرت كتيبات التكفير الصغيرة Poenitentialia ، التى كتبها بعض رجال الكنيسة ، توصى بأنماط تكفيرية معينة كان الحج من بينها ، على الرغم من أنها لم تحدد مقصدا معينا للحج .

حقيقة أن القدس كانت ذات جاذبية طاغية بالنسبة للحجاج المسيحيين بسبب ارتباطها بقصة المسيح ، وقصص الكتاب المقدس ، فضلا عن طول رحلة القدس وصعوبتها ، ولكن الحج كعقوبة أو ممارسة تكفيرية لم يكن قاصرا على القدس[٧٢] . ولأن الرحلة نفسها كانت حافلة بالأخطار والمصاعب فإن ذلك يجعلها ممارسة دينية تناسب التوبة ؛ ففى أثناء الرحلة كان الحاج يتعرض لأخطار كثيرة ولايجد لنفسه معينا غير الرب .

كانت هناك مزارات أخرى يتوجه إليها الحجاج فى شتى أنحاء أوربا ، فقد اكتشف المسيحيون الأسبان ما اعتقدوا أنه رفات سان جيمس St. James وأسسوا ضريحا له فى كومبو ستيلا . ولم يلبث مزار سانتيا جودى كومبو ستيلا Santiago de Compos-tella أن صار مركزا من مراكز الحج ذات الأهمية القصوى فى العالم المسيحى(٧٣) كما كان قبر القديس بطرس فى روما ، وسان ميخائيل فى مونت جورجانو من بين الأماكن التى تحددها الكنيسة للخطاة المعترفين لكى يحجوا إليها تكفيرا عن ذنوبهم . وكانت مدة الرحلة التكفيرية التى تحددها الكنيسة تصل أحيانا إلى سبع سنوات . وأول حالة حج تكفيرية واضحة وصلت إلينا حدثت فى القرن التاسع . فقد ارتكب ثلاثة من الإخوة فى جنوب إيطاليا جريمة قتل عمهم الذى كان قسيسا ، وحكم عليهم أساقفتهم بأن يكبلوا أنفسهم بالسلاسل الحديدية ، ثم يدورون حول الأماكن المقدسة "فى التراب والغبار حتى يحين الوقت الذى يقبل فيه الرب توبتهم" (٧٤) . وثمة قصة حفظها لنا أحد الرهبان تحكى أنه حدث سنة ٨٦٨م أن قام رجل ثرى من أهل فرنسا بقتل عمه وأصغر إخوته . وحين مثل هذا الرجل ، الذى كان يدعى فروتمون Frotmond ، بجريمته أمام الملك والأساقفة حكموا عليه بأن يقيد بسلاسل الحديد ، وأن يكفر عن ذنبه بالرحيل إلى الشرق ، وقد قام هذا الرجل برحلتى حج تكفيريتين ، وحين عاد إلى وطنه استقبله الناس استقبال القديسين بسبب المشاق التى تجشمها فى رحلتيه(٧٥) .

هذان المثالان ، وغيرهما ، برهان على أن الكنيسة الغربية حين فشلت فى وقف تيار الحج ، جعلته ممارسة كنسية قانونية . فقد فشلت الكنيسة فى إجهاض الاعتقاد الشعبى بأن الحج لبيت المقدس يمكن أن يكون وسيلة لنيل الغفران . وعلى الرغم من إدانة مجمع شالون Chalon فى سنة ٨١٣م لمن يعتقدون أن الحج إلى القدس يمكن أن يمحو الذنوب(٧٦) ، فقد كان هذا موقفا نظريا لايتسق مع الواقع الذى أجبر الكنيسة على تغيير موقفها وتبنى فكرة الحج التكفيرى . فالحقيقة أن فكرة التكفير والخلاص لم تبدأ فى اتخاذ شكلها الفعال سوى بعد أن ارتبط الحج بمدينة بيت المقدس . وهنا ينبغى أن نشير إلى أن بعض الحجاج كانوا يبالغون فى تعريض أنفسهم للخطر والعذاب حتى يحوزوا بذلك شهرة وقداسة أكثر من غيرهم(٧٧) .

وخلال القرن العاشر تحسنت الأحوال فى عالم البحر المتوسط بشكل يسر من إمكانية السفر إلى فلسطين من ناحية ، كما ظهرت قيمة الحج كوسيلة للتكفير عن الذنوب تبنتها الكنيسة من ناحية أخرى . وكانت لهذا النظام قيمة عملية من الناحية الاجتماعية ؛ إذ كان يبعد

المجرمين عن المجتمع لعدة شهور فإذا ما نجوا من مخاطر الطريق وعادوا فإنهم يكونون قد تطهروا روحيا[٧٨] . وكان الحاج بمثابة صاحب امتياز بين المسيحيين ، وحين كان ينهى رحلته كان يحوز شهرة بالقداسة والتقوى . كذلك فإن رحيل الحاج وعودته كان يتم فى احتفال دينى.. وعند العودة يتوجه الحاج ليؤدى صلاة الشكر فى الكنيسة المحلية ويسلم القسيس فرعا من سعف النخيل ، أحضره معه من فلسطين ، لكى يوضع فى الكنيسة دليلا على رحلته الموفقة .

وخلال القرنين العاشر والحادى عشر تزايدت رحلات الحج إلى فلسطين وتضخمت أعداد الحجاج . وكان للظروف السياسية العالمية آنذاك أثرها فى تزايد رحلات الحجيج المسيحى ؛ إذ كان الفاطميون هم سادة بيت المقدس ، وقد اشتهروا بتسامحهم الشديد مع أصحاب الديانات الأخرى ، كما أنهم عقدوا معاهدات سلام مع البيزنطيين بعد نهاية عهد الحاكم بأمر الله[٧٩] . ومن ناحية أخرى ، كان لاعتناق ملك المجر وشعبه للمسيحية أثره فى تأمين الطريق البرى إلى الشرق[٨٠] . وفى الوقت نفسه كانت الحركة الإصلاحية الكلونية فى القرن العاشر من عوامل ازدهار حركة الحج[٨١] . فقد كانت الأديرة الكلونية ، التى كونت شبكة واسعة النطاق ، تساعد الحجاج وتقدم لهم التسهيلات بفضل قدرتها التنظيمية الفائقة . ومن ناحية أخرى ، أنشئت الأماكن لضيافة الحجاج على ضفاف الأنهار ، وفوق قمم الجبال وفى الصحراء ، كما أسس المسيحيون فى القدس وغيرها من المدن الفلسطينية منازل كرست للحجاج وكان بعضها مخصصا للنساء . كذلك كان التجار الإيطاليون من أمالفى والبندقية وجنوة وبعض الحجاج الأثرياء يتبرعون بالأموال اللازمة للإنفاق على هذه الأماكن . وفى كل سنة كان يفد إلى أوربا عدد من الرهبان المقيمين فى الشرق بهدف جمع التبرعات من المتدينين الأثرياء لكن تخصص للإنفاق على هذه الأماكن المخصصة لضيافة الحجاج المسيحيين[٨٢] .

وفى القرن الحادى عشر صارت رحلات الحج التكفيرية غاية فى الكثرة والتكرار ، ولم يقتصر خروج الحجاج المسيحيين على المناطق التقليدية فى الغرب الأوربى ، وإنما بدأت أعداد كبيرة من أبناء الشعوب التى اعتنقت المسيحية حديثا يتوجهون إلى القدس[٨٣] ولدينا نص كتبه راهب عاش فى دير كلونى بعد سنة ١٠٠٠ ميلادية ، هو رودلف جلابير[٨٤] وهو يكشف لنا عن موقف من الحج لم يظهر فى أى مصدر تاريخى قبله . فالحج الجماهيرى إلى القدس يبدو تتويجا لإنجازات الحياة الدنيا ، إذ يقول ".. فى الوقت نفسه بدأت أعداد لاتحصى تتجه إلى ضريح المخلص فى أورشليم من جميع أنحاء العالم ، وفى أعداد أكبر مما كان أى إنسان يظن أنها ممكنة من قبل ، ولم يكن هناك العامة والمتوسطون من الناس فقط ، وإنما كان هناك

أيضا العديد من الملوك الكبار .. وكان عديدون يرغبون فى الموت هناك بدلا من العودة للوطن.."

كانت الرحلة إلى الأرض المقدسة تفرض بواسطة الكنيسة على أولئك الذين يدانون بخطاياهم فى حق إخوانهم المسيحيين ، وعلى أولئك الذين ألحقوا الضرر بثروة الكنيسة ، وعلى من ينتهكون "هدنة الرب" (٨٥) . وكان المذنبون يؤمرون بترك أوطانهم ليهيموا فى البرية فترة من الوقت مثل قابيل . وثمة شخصيات كبيرة بين حجاج القرن الحادى عشر قاموا برحلاتهم تكفيرا عن ذنوب اقترفوها منهم كونت أنجو المدعو فولك الأسود Foulque Nerra الذى اتهم بقتل زوجته ، ومنهم روبير دوق نورماندى ، أبو وليم الفاتح ، الذى اتهم بدس السم لأخيه ريتشارد(٨٦) . لقد تزايد عدد الحجاج التائبين فى القرن الحادى عشر بالشكل الذى جعل من تيار الحج عاملا من أهم عوامل صياغة الخلفية الإيديولوجية للحروب الصليبية .

فقد كان الناس فى ذلك الزمان تواقين لضمان خلاص أرواحهم ؛ إذ سيطرت على وجدانهم المشاعر الألفية والأخروية (أى المشاعر التى ارتبطت بفكرة نهاية الحياة الدنيا بعد اكتمال الألف الأولى بعد المسيح والحياة الآخرة) . وكان يذهبون إلى الضريح المقدس والأماكن المقدسة لكى يكونوا هناك زمن المسيح الدجال ، لكى يحاربوه ، ولكى يعانوا من أجل الرب ؛ وبذلك يستحقون المشاركة فى مجد المختارين يوم الدينونة . والواقع أنه ظهر اتجاه فى القرن الحادى عشر يعتبر القدس غاية نهائية ، وهدفا أسمى يجب على المؤمن أن يسعى للوصول إليه . فقد ساد اعتقاد ، بأن ملك الأيام الأخيرة قبل نهاية العالم (والذى تصوره المعاصرون على أنه إمبراطور الغرب الأوربى) ينبغى أن يعود بشعبه صوب القدس . وقد اختلطت القدس السماوية بالقدس الأرضية فى أذهان المعاصرين ، كما امتزجت الرؤى الدينية بالحقائق المادية امتزاجا كاملا بشكل يؤكد فكرة الخلاص التى كانت من أهم التطورات التى طرأت على الحج المسيحى بحيث جعلته رافدا من روافد الإيديولوجية الصليبية .

وفى أماكن متفرقة من أوربا ظهرت علامات تداولها الناس بالحكاية وفسروها على أنها دليل على اقتراب الساعة . هذه المشاعر الأخروية أكدت ضرورة التوجه إلى مدينة بيت المقدس iter Hyerosolimitanum وحوالى سنة ٣٠ بعد الألف ، أى بعد حوالى ألف سنة من حادثة صلب المسيح عليه السلام ، وفى إطار التطور الكبير فى إيديولوجية المجتمع الغربى ، تزايدت أعداد رحلات الحج والحجاج الذاهبين إلى القدس . وشاعت أخبار الرؤى الإعجازية والحوادث الخارقة التى رأى الغربيون أنها من العلامات التى تسبق قيام الساعة . ولا يمكن لمن يقرأ فى تراث القرن الحادى عشر أن يخطئ تلك النغمة الأخروية التى كانت بمثابة الإيقاع الدال فى

الفكر والمشاعر السائدة آنذاك . وها هو "رودلف جلابير" يكتب سنة ١٢٠٨ مانصه :".. بعض الأشخاص من ذوى المكانة والسلطة ، يتشاورون فى موضوع الأحداث الخارقة التى جرت للشعب فى أورشليم ، وهى أحداث عجيبة للغاية ، وكانوا يجيبون بحكمة بأن هذه هى علامة ماقبل مجيئ المسيح الدجال الخائن الذى كان الناس ينتظرون قدومه قرب نهاية الألف ، بإيمانهم بالكتاب المقدس : كما أن كل الأمم شقوا طرقا صوب الشرق لكى يسيروا عليه لملاقاته.."(٨٧) .

فى ظل هذا الجو النفسى والفكرى كان لابد أن يتحول الحج من شعيرة من شعائر التطهر الفردى إلى عملية تكفير جماعية . وفى لحظة التحرك ذاتها ، وبسبب طبيعة الأحداث التى واكبت الحج الجماعى ، أخذ المحور الدينى لعملية الحج يتلاشى شيئا فشيئا . فقد أخذ الحجاج يشكلون جماعات كبيرة تحمل السلاح(٨٨) . وتذكر المصادر التاريخية المعاصرة أن إحدى مجموعات الحجاج سنة ١٠٥٤م وصلت إلى ثلاثة آلاف حاج . وفى سنة ١٠٦٤-١٠٦٥م وصلت إلى الأرض المقدسة مجموعة قوامها سبعة آلاف حاج مسلح مما أدى إلى وقوع اشتباك بينهم وبين المسلمين بالقرب من الرملة(٨٩) . وهكذا كانت جماعات الحج الكبيرة تواجه بعض المتاعب ؛ بيد أنها كانت تتسبب بدورها فى خلق هذه المتاعب بسبب ضخامة أعدادها وما تحمله من سلاح .

وهنا نصل إلى النقطة الحرجة التى تفصل بين الحج والحملة الصليبية . فقد كانت الحملة الأولى فى نظر من عاصروها حجا ، ولكنه حج مسلح(٩٠) منحته الكنيسة امتيازات خاصة . ويرى بعض الباحثين أن الحملة الصليبية كانت امتدادا منطقيا للحج ؛ وأنه لم يكن ليطرأ ببال أحد أن يتوجه لغزو القدس لو لم يكن آلاف الحجاج قد ساروا على درب الحج على مدى القرون السابقة ، إذ أن فكرة أن الضريح المقدس يجب أن يكون بأيدى المسيحيين قد ولدت فى رحم حركة الحج(٩١) . وفى تصورنا أن الحملة الصليبية كانت نتاجا لكل من حركة الحج والحرب المقدسة معا ؛ فقد شاعت فى الغرب الأوربى قصص كثيرة عن تعسف المسلمين مع الحجاج المسيحيين . وعلى الرغم من رائحة المبالغة والكذب التى تفوح من هذه الروايات فإن الحوليات والمصادر التاريخية المسيحية(٩٢) قد رددتها بالشكل الذى يؤكد بأن رأيا عاما فى الغرب يحبذ فكرة الاستيلاء على الأراضى المقدسة من المسلمين ، وهو اتجاه من أهم ملامح الإيديولوجية الصليبية . هذه القصص كانت هى الذريعة التى تحتاجها الحرب المقدسة أو الحرب العادلة التى كان أوغسطين ، ومن بعده ، فقد أرسوا نظريتها فى الغرب الأوربى .

وفى ذلك الحين امتزجت مفاهيم الحج بمفاهيم الحرب المقدسة . وأسبغ الخيال الشعبى حيويته الخاصة على مضمون الحج ، فقد شاع اعتقاد بأن أولئك الذين يموتون خلال رحلة الحج شهداء يضمنون دخول الفردوس فى الحال ، ولدينا أغنية صليبية باكرة تقول كلماتها(٩٣) :

إن من يرحل إلى هناك

ليلقى المنية

سيفوز بأفراح السماء

ويبقى مع القديسين

وهذا المعنى وارد فى أشعاركثيرة من أشعار الحركة الصليبية(٩٤) . والجدير بالذكر أن الشعر كان من أهم وسائل نشر الإيديولوجية الصليبية . فقد ولدت الحركة الصليبية فى زمن كان الشعر العامى قد ازدهر فى شمال فرنسا آنذاك ، فقد كان الشعراء ينظمون كافة مواضيعهم ، حتى التاريخية منها ، بالشعر لكى يفهمها من لا يعرفون اللغة اللاتينية . ولما كان المجتمع الأوربى يعانى من انتشار الأمية ، فإن أغانى الشعراء الشعبيين كانت وسيلة فعالة لنشر الأفكار والمعلومات .

والواقع أن هناك صلة تربط بين الحج والحرب المقدسة تجلت فى عيون المعاصرين آنذاك. والأسباب التى أدت إلى ذلك كانت من نتاج الجو الفكرى والنفسى المشبع بالأفكار الأخروية وهو الجو الذى كان سائدا عشية الحروب الصليبية . فقد كان الناس يتوقعون القيامة ، وأذكى المبشرون الجوالون والحجاج العائدون نيران الكراهية ضد المسلمين الذين شاعت عنهم قصص تدمير الكنائس وقتل المسيحيين وتعذيبهم فى الأرض المقدسة . ومن ناحية أخرى كان الجهل يبسط رداءه القاتم على مجتمع الغرب الأوربى بحيث كان الأريج الفكرى فى هذا المجتمع مزيجا من المفاهيم الدينية الغامضة والخرافة والخزعبلات . وفى هذا الجو المحموم كانت تشيع أنباء عن الرؤى والأحلام المقدسة والنبوءات والخوارق(٩٥) . وفى هذا المجتمع كان لابد من ربط الحج بالحرب المقدسة وبالخلاص من ناحية ، وبحادثة صلب المسيح وانتظار القيامة وقدومه الثانى من ناحية أخرى . وهو الأمر الذى يبدو واضحا فى كتابات المؤرخين وفى الشعر الصليبى على السواء . فالواقع أن تاريخ الحركة الصليبية يقوم إلى حد بعيد على أرضية من تراث حركة الحج فى الفترة التى سبقت سنة ١٠٩٥م . وكانت الحملات الصليبية ، فى جانب

منها على الأقل ، هى التطور النهائى الذى انبثق عن تراث الحج فى القرن الحادى عشر ؛ فهى تمثل التزاوج بين الحج والحرب المقدسة .

ومن المهم أن نشير إلى أن الكتاب اللاتين كانوا حتى القرن الثالث عشر يستخدمون كلمة واحدة هى Peregrinus (Peregrinos) للدلالة على الحاج غير المسلح وعلى الصليبى فى آن واحد معا(٩٦) وحين نطالع الحوليات والمؤرخات اللاتينية المعاصرة للحركة الصليبية لا نستطيع أن نحدد ما إذا كان الشخص المقصود بكلمة Peregrinus ، محاربا صليبيا أو حاجا غير مسلح(٩٧). ومن ناحية أخرى ، يصف بعض الكتاب اللاتين الحملات الصليبية بمصطلح Per-egrinationes بمعنى رحلات الحج . ولم يحدث سوى بعد مضى قرن أو يزيد على الحملة الأولى أن ظهرت مصطلحات دالة على الحملات الصليبية بشكل محدد ، مثل عبارة Ex-peditio Curcis ، و Passagium ، و Passagium generale . وفى هذا دلالة واضحة على أن كلمة "حاج" كانت مرادفا لكلمة "صليبى" طوال القرن الثانى عشر على الأقل ، وهو ما يتأكد لنا على نحو أكثر من خلال عبارات وليم الصورى الذى كتب تاريخه عن الحروب الصليبية فى القرن الثانى عشر .

ولم تكن الوضعية القانونية للصليبى تختلف كثيرا عن وضعية الحاج ، فكلاهما كان يخرج فى رحلته بناء على أمر من الكنيسة ، أو بتصريح منها ، كما كان كلاهما يحظى بحماية البابوية لأمن عائلاتهم وأراضيهم خلال فترة غيابهم . وبعبارة أخرى كانت المكانة القانونية للصليبى هى التطور النهائى للمكانة القانونية للحجاج ؛ ذلك أن الامتيازات الصليبية كانت فى حقيقة أمرها إضافات إلى الامتيازات التى كان الحجاج يتمتعون بها قانونا(٩٨) . وفى مقابل هذه الامتيازات الإضافية كان الصليبيون مرتبطين بشكل تعاقدى مع الكنيسة بمقتضى القسم الذى قطعوه على أنفسهم بالمساهمة فى الحرب . وقد أصدر مجمع كليرمون (١٨-٢٧نوفمبر ١٠٩٥م) مرسوما يمنح الغفران لمن يشاركون فى الحملة الصليبية ، وعلى الرغم من أن هذا الغفران محدود فى نطاق الإعفاء من التكفير عن الذنوب ، فإنه قرر بشكل واضح أن هدف الحملة هو تحرير القدس(٩٩) . كان أول عناصر الحملة الصليبية هو القسم الصليبى ، وكان هذا القسم هو الفارق الحاسم بين الحاج غير المسلح والصليبى الذى اعتبرته الكنيسة حاجا مسلحا . وكان هذا القسم الوسيلة التى تمكنت البابوية بها من تحويل حماسة المشاركين فى الحملة إلى التزام دائم يمكن فرضه من خلال إجراءات رسمية وقانونية إذا لزم الأمر . أما إذا أقسم فرد ما على الذهاب فى الحملة ، ولكنه لم يخرج مع رفاقه أو عاد دون أن يخاطر بالموت فى مواجهة العدو ، فإنه كان يعرض نفسه لعقوبة القطع أو الحرمان

الكنسى[١٠٠]. وفى التحليل الأخير ، فإن الحسم لم يكن من نصيب الفكر الألفى ، ولكن من نصيب تسليح الحج والمكافأة التى تضمنها الغفران الصليبى . هكذا استطاعت البابوية أن تمزج فكرة الحرب المقدسة بمفاهيم الحج المسيحية ، وفكرة الخلاص التى كانت تؤرق الناس مع توقعاتهم لاقتراب نهاية العالم ، فى بوتقة واحدة . ولما كان ذلك العصر هو عصر التبشير الشعبى ، وعصر الرؤى والأحلام المقدسة ، فقد تقاربت روافد متعددة لتصنع الإيديولوجية التى أفرخت الحركة الصليبية .

وكان طبيعيا أن تروق فكرة الحج المسلح لفئة الفرسان قبل غيرهم من جماهير الغرب الأوربى . وذلك بسبب التراث والمفاهيم البطولية التى كانت نتاجا لاستقرار القبائل الجرمانية على تراب الغرب الأوربى . وهكذا نصل إلى الرافد الثانى من روافد الإيديولوجية الصليبية ، وأعنى به **الرافد الجرمانى** .

وعندما كان رجال الكنيسة يدعون الفرسان للخدمة فى جيش القديس بطرس أو جيش المسيح ؛ فإنهم كانوا يخاطبون مجتمعا يشهد فجوة تفصل بين الأفكار اللاهوتية العليا ، وأفكار الناس العاديين ؛ شأن كل المجتمعات . وكان طبيعيا أن يصوغ الكنسيون رسالتهم إلى العلمانيين بطريقة مفهومة وجذابة ، أى أنه تعين عليهم أن يخاطبوهم بلغتهم ومفاهيمهم ومصطلحاتهم . فقد كانت المثل والقيم التى تحرك مجتمع القرن الحادى عشر قيما عسكرية الطابع ، كما كان لها طابعها الدينى فى الوقت نفسه . وكان أبطال هذا المجتمع رجالا محاربين يتميزون بالقوة ، والشرف ، والشجاعة ، والمهارة القتالية ، والولاء .. وهى كلها قيم مادية .

فقد كان التراث الجرمانى فى غرب أوربا يمجد صفات العسكرية والبطولة . وعندما اعتنق الجرمان المسيحية صارت الحرب وتقاليدها جزءا من البناء الأصلى فى المجتمع المسيحى ، بل إن الفكرة الجرمانية عن الملكية كانت تحتم أن يكون الملك الجرمانى ملكا محاربا King-Warrior [١٠١] . ولم تستطع الكنيسة المسيحية أن تقضى على الروح العسكرية الجرمانية؛ ومن ثم كان عليها أن تواثم نفسها مع ما لم تتمكن من القضاء عليه . وكان لابد لهذا المجتمع العسكرى الذى اعتنق المسيحية أن يجد تبريرا مسيحيا لعاداته وقيمه العسكرية التى ورثها عن ماضيه . كما كان هذا المجتمع ذو الميول العسكرية يحتاج إلى ديانة عدوانية . ويبدو من المصادر التاريخية أن العلمانيين فى هذا المجتمع كانوا على اقتناع تام بوجوب استخدام العنف فى تحويل الوثنيين إلى المسيحية ، على الرغم من تعليمات آباء الكنيسة بأن يكون الحب والعقل هو السبيل لإدخال الناس فى ديانة المحبة . ولكن الفترة الكارولنجية شهدت حروبا

عديدة ضد الوثنيين ، تم فيها إدخال هذه الشعوب إلى حظيرة ديانة السلام على أسنة الرماح وأنصال السيوف [١٠٢] . وكانت هذه الحروب بدورها عاملا فى تطور إيديولوجية الحرب المقدسة فى الغرب ، فالحروب التى خاضها ملوك الأسرة الكارولنجية وملوك أسرة أوتو كانت من عوامل تحويل الشعوب المغلوبة إلى المسيحية . وقد شارك الأساقفة وغيرهم من رجال الدين فى العمليات التى تلت تلك الحروب . وكان نشاط رجال الكنيسة فى هذه الحروب هو الذى أدى إلى الربط بين الحرب والخلاص ؛ كما أن النجاح العسكرى لهذه الحملات كان يعزى إلى رضاء الرب لأن هذه الحروب تزيد من عدد المسيحيين . والواقع أن الحرب ، بهذا المفهوم ، صارت من الواجبات المسيّحية بالنسبة للأساقفة الألمان فى عصر أسرة أوتو[١٠٣] .

ومن ناحية أخرى ، يمكن للمرء أن يتتبع جذور فكرة الحرب المقدسة فى مسار العملية التى تم بها تحويل التراث البطولى الجرمانى إلى تراث مسيحى . ذلك أن اعتناق الشعوب الجرمانية لم يكن يعنى أن ينبذ أبناء هذه الشعوب تراثهم وثقافتهم المتوارثة عبر أجيال عديدة ؛ ومن ثم لجأ الجرمان إلى تعديل القيم والمثل الجرمانية القديمة فى صياغات مسيحية جديدة . وحلت الصياغات المسيحية محل الصياغات الوثنية القديمة ، بيد أن القيم العسكرية للمجتمع الجرمانى ظلت باقية . فعلى سبيل المثال ، شهدت الفترة التى أعقبت العصر الكارولنجى اتجاها متزايدا بين هذه الشعوب إلى تقديس كبير الملائكة ميخائيل ، الذى روت الأساطير أنه قاد معركة فى سبيل الرب فى مونت جورجانو فى القرن الخامس . وقد صار مزاره فى هذه البقعة من أهم المزارات التى كان يحج إليها النورمان[١٠٤] . ويرى بعض الباحثين أن ميخائيل، قائد جيوش الرب قد حل محل فودين Woden[١٠٥] الإله الذى كان يعبده الجرمان فى وثنيتهم . وثمة مثال صارخ نجده فى الطقوس الدينية فى القرن العاشر ، حين بدأت الكنيسة تبارك الفرسان وأسلحتهم لكى تكرسهم للدفاع عن العقيدة وعن ممتلكات الكنيسة . لقد كان المجتمع المسيحى ، ذو الأصول الجرمانية ، يغير موقفه من الحرب ليعطى قيمة أكثر للحرب وللمحارب ضمن إطار الخلاص . وقد روجت أسطورة قيادة ميخائيل لجيوش السماء للسؤال القائل **"إذا كان الرب يتقبل الخدمة العسكرية من الملائكة ، فلماذا لا يتقبلها من البشر أيضا ؟"** .

هذا السؤال ، وما تفرع عنه بالضرورة ، كان فى حقيقة الأمر صياغة مسيحية للعادات والقيم الحربية التى ورثها الجرمان عن ماضيهم . وقد تطور قانون الفروسية فى المجتمعات الإقطاعية الأوربية من خلال الحاجة إلى القواعد والأصول التى تحكم وتوجه عمليات الحرب والقتال، وهذا ماتولته الكنيسة بنفسها . ففى بداية الأمر وجه رجال الكنيسة فى الإمبراطورية الكارولنجية انتقادات مريرة للعلاقات الإقطاعية ؛ إذ كانوا يعتقدون أنها سوف تؤدى إلى

انهيار الإمبراطورية المسيحية ، وهو ماحدث بالفعل . ولكنهم حين فشلوا فى القضاء على النظام الجديد اندمجوا فيه وتوافقوا معه . وصار الأساقفة ومقدمو الأديرة سادة إقطاعيين وأفصالا ، شأنهم فى ذلك شأن النبلاء العلمانيين ، واندمجوا فى شتى وجوه الحياة الإقطاعية ولكنهم بذلوا ما فى وسعهم لإقرار السلم فى المجتمع الإقطاعى ، ومحاولة إضفاء الصبغة المثالية المسيحية على العلاقات الإقطاعية : فصار الاحتفال بأداء اليمين الإقطاعى احتفالا دينيا تتم فيه مباركة سلاح الفارس(١٠٦) .

ذلك أنه حين انهارت الإمبراطورية الكارولنجية استشرت الفوضى الإقطاعية بشكل أدى إلى تدهور سلطة الدولة ، كما أدى إلى انهيار عام فى الأخلاقيات . ففى كل مكان فى غرب أوربا القرن العاشر كانت توجد طبقة من المحاربين الذين لم يتعلموا شيئا فى صباهم سوى القتال . وبغروب شمس القرن العاشر كانت الحقوق والواجبات الإقطاعية قد تحددت بشكل حاسم فى إطار علاقة السيادة والتبعية الإقطاعية Lordship and Vassalage كذلك صار من الشائع أن يقسم كل أمير إقطاعه إلى إقطاعات أصغر مساحة فيما عرف باسم Sub-infeudation . وكانت نتيجة ذلك أن فقد الملك سيطرته على صغار الإقطاعيين وفرسانهم لأن ولاءهم كان موجها إلى سادتهم المباشرين . وقد أدى هذا بدوره إلى نشوب العديد من الحروب الإقطاعية التى مزقت المجتمع الغربى .

كان هذا المجتمع الإقطاعى عسكريا بالضرورة : فى أخلاقياته ومثله وأفكاره . وحين تدخلت الكنيسة فى الصياغات الإقطاعية حاولت أن تضفى عليها نوعا من القداسة ، تمثلت فى الصياغات القانونية الكنسية للعلاقات الإقطاعية ، وهى الصياغات التى برع فيها رجال الكنيسة ، وهى أيضا صياغات كانت تفترض وجود مستوى حضارى وأخلاقى أسمى من مستوى أولئك المقاتلين الأجلاف الذين كانوا يمثلون نسبة تبلغ حوالى ٩٥٪ من الطبقة الإقطاعية . ولكن المثير حقا فى هذا الأمر أن الكنيسة كانت توقع عقوبة الحرمان على من يجرؤ على خرق شروط الوثيقة الإقطاعية(١٠٧) . بيد أن التدخل الكنسى كان يهدف إلى سد الفجوة التى تفصل بين القيم والمثل التى تلهم كبار رجال الكنيسة ، وتلك التى تلهم العلمانيين وتحركهم . وقد ناضل رجال الكنيسة من البابوات والدعاة والمبشرين لسد هذه الفجوة ولكنهم لم يحققوا النجاح .

لقد كانت القيم البطولية هى التى تلهم هذا المجتمع وتحركه . ومن بين أبطال الماضى لم يكن هناك من هو أكثر إلهاما لمشاعر أبناء الطبقة الإقطاعية فى هذا المجتمع من شارلمان ،

فقد غزا أسبانيا ، وألمانيا ، وحيثما كانت تتوجه جيوشه كان أبناء الشعوب المغلوبة يعتنقون المسيحية. والأسطورة التى شاعت فى الغرب الأوربى عن حملة شارلمان الصليبية إلى فلسطين، كانت هى التجسيد الأمثل للفروسية المسيحية التى تحارب ضد المسلمين(١٠٨) . ألم تكن هذه الأسطورة فى حقيقة أمرها إحدى الوسائل العديدة التى استخدمت لتبرير الحرب المقدسة والحط من شأن أعداء الكنيسة ؟ لقد تم نسج هذه الأسطورة التى سرعان ما شاعت وتضخمت من خلال حملات شارلمان ضد السكسون واللمبارديين ، ومن خلال حروبه ضد المسلمين فى الأندلس، واهتمامه بالأرض المقدسة من خلال علاقاته الطيبة بالخليفة العباسى هارون الرشيد . لقد كان شارلمان تجسيدا للملك الجرمانى الذى هو فى حقيقته ملك – محارب King - Warri-or . ولم يكن بوسع المحاربين الجرمان فى جيوش الغرب الأوربى أن يحترموا مليكهم ما لم يثبت جدارته فى ميدان القتال ، ومن ثم فإن طراز شارلمان كان هو الطراز الذى يلهب خيالهم . ومن ناحية أخرى ، فإن المسيحية ممثلة فى البابوية قد لجأت فى محنتها إلى شارلمان ، وخلعت عليه تاج الإمبراطورية فى عيد الميلاد سنة ٨٠٠م (١٠٩). وكان هذا فى الواقع زواجا بين المثل الحربية الجرمانية والمفاهيم المسيحية ، أى أنه كان تجسيدا لفكرة البطل المسيحى المدافع عن حقوق الكنيسة . ولعل من المثير حقا أن نعرف أنه أثناء الدعوة إلى الحملة الصليبية الأولى سرت إشاعة فى ألمانيا تقول بأن شارلمان قد قام من بين الموتى للمشاركة فى الحملة الصليبية . ولعل هذا هو السبب فى أن قادة الحملة الصليبية الأولى ، عموما ، قد أكدوا على أنهم ينحدرون من نسل شارلمان ، كما سنرى فى الفصل الرابع من هذه الدراسة .

هذا التزاوج بين التراث البطولى الجرمانى والمفاهيم المسيحية يتجلى فى أغانى المآثر Les chansons de geste التى انتشرت فى أوربا فى ذلك الحين ، وهى عبارة عن قصائد ملحمية طويلة كانت تصور أعمال البطولة وغيرها من جوانب الحياة الإقطاعية فى فرنسا بشكل خاص، وفى الغرب الأوربى بشكل عام . ومحور هذه الأغانى أو القصائد هو الولاء الذى كان أهم ملامح العلاقات الإقطاعية . وتتجلى هذه الخاصية بشكل واضح فى أنشودة رولان La chanson de Roland التى تدور حول حروب شارلمان ضد المسلمين(١١٠) . هذه القصائد كانت بمثابة تكريس لقيم الحرب الجرمانية فى صياغة مسيحية . إذ كانت الروح العسكرية ، وقيم البطولة والإقدام محل تقدير فى الغرب الأوربى بفعل تأثير التقاليد الجرمانية ، لأن هذه الصفات هى التى كانت تميز النبلاء عن الأقنان . وكان لابد من صياغة مسيحية لهذه المثل والقيم العسكرية الجرمانية ، وهو ماحدث بالفعل .

ومن ناحية أخرى ، فإن الفوضى التى استشرت عقب الفترة الكارولنجية بسبب الحروب والمنازعات الإقطاعية التى مزقت أوربا شر ممزق جعلت الكنيسة تحاول الحد من العنف . كما أن الكنيسة كانت قد تورطت خلال القرنين التاسع والعاشر فى الشئون العلمانية إلى حد كبير بسبب دخولها فى نسيج العلاقات الإقطاعية . ذلك أن الأراضى الشاسعة التى امتلكتها الأسقفيات والأديرة والتى كان السادة الإقطاعيون يشرفون عليها بمقتضى قانون الخدمات الإقطاعية ، حتمت على الكنسيين أن يقوموا بالخدمة المطلوبة منهم باعتبارهم أتباعًا لهؤلاء السادة الإقطاعيين ، بأنفسهم ، أو من خلال من ينوب عنهم . ومن ثم كان بعضهم يقود جيوشه فى المعارك الإقطاعية زاعمين أن ذلك لايعد خرقا للقانون الكنسى الذى يمنع إراقة الدماء ، على حين استخدم البعض الآخر رجالا مدنيين لقيادة جيوشهم الكنسية الإقطاعية . وعلى الجانب الآخر كان الكنسيون يعملون فى خدمة النبلاء العلمانيين مستشارين وإداريين(١١١) .. وكان لهذا الوضع أثره السئ على الأداء الروحى للكنيسة .

ومنذ القرن العاشر تنبه بعض المتدينين إلى هذا الوضع ومحاذيره . وعلى أمل تحسين النظام الديرى قام الدوق وليم أمير أقطانيا فى سنة ٩١٠ بتأسيس دير كلُونى Cluny . وكان ممنوعا على هذا الدير أن يمتلك أرضا بمقتضى قانون الخدمة الإقطاعية . وكان على من يهب أرضا لهذا الدير أن يهبها دون قيد أو شرط ؛ فقط مقابل أداء رهبان الدير للصلوات من أجل خلاصه(١١٢) . وبحلول القرن الحادى عشر كان دير كلونى قد صار له نفوذ ضخم ، وتبعته عدة أديرة سارت على نهجه الذى هو صيغة معدلة من النظام البندكتى . وبمساعدة أسرة أوتو فى ألمانيا ، والإمبراطور هنرى الثالث خصوصا ، قام الرهبان الكلونيون بإصلاح العديد من الأديرة الألمانية .

وسرعان ما قام المتحمسون من أتباع كلونى بحركة إصلاحية عامة بين رجال الكنيسة لمنع كثير من المساوئ والشرور التى استشرت بينهم . وكانت هذه الحركة الإصلاحية تستهدف إصلاح الحياة الديرية والكنيسة والعالم . كان إصلاح الكنيسة يعنى إصلاح البابوية بالقدر الذى يمكنها من التصدى للحكام العلمانيين ، وكان إصلاح العالم يعنى إخماد الحروب الإقطاعية التى باتت هى النغمة الدالة فى الحياة الأوربية آنذاك . ففى أعقاب الفوضى التى سادت إبان القرن العاشر ، وبفضل النظام والسلطة التى عادت تفرض نفسها من جديد فى القرن الحادى عشر ، تشجعت الكنيسة للبحث عن صيغة ملائمة للحد من العنف الذى تميز به النبلاء العلمانيون ، وتوظيفه فى خدمة أغراض الكنيسة .

ولم يجد المصلحون وسيلة تمكنهم من منع الحروب الإقطاعية تماما ، ولكنهم توصلوا إلى صيغة عملية لتحديد نطاقها . ومن ثم بدأت حركة "السلام المقدس" أو "سلام الرب" كحركة دينية اجتماعية فى غرب فرنسا قرب نهاية القرن العاشر .

ذلك أنه على الرغم من أن كبار رجال الكنيسة كانوا قد بدأوا يروجون لفكرة الحرب المقدسة، كما أوضحنا من قبل ، فإن بعض المفكرين الغربيين كانوا ما يزالون يرون فى الحرب خطرا وإثما يجب تحاشيه . كذلك فإن الأوضاع الأمنية المتدهورة من جراء الحروب الإقطاعية أوجدت فى المجتمع رغبة جارفة فى حماية غير المحاربين وأملاكهم . وبدأت بالفعل حركة من أجل السلام فى فرنسا . فقد تم عقد مجمع كنسى فى شارو Charroux سنة ٩٨٩م ، تحت رئاسة جنبالد Gunbald كبير أساقفة بوردو ، وأصدر هذا المؤتمر مرسوما بالسلام بين المسيحيين . وتوضح هذه الوثيقة أن الكنيسة تحرم مهاجمة الممتلكات الكنسية ، والفلاحين وأملاكهم ، كما تحرم مهاجمة رجال الكنيسة ، ويهدد المرسوم كل من ينتهك هذه الشروط بتوقيع عقوبة الحرمان [١١٣] . وفى السنة التالية عقد مجمع كنسى آخر فى لى بوى Le Puy، تم فيه التأكيد على الموضوع نفسه . وبعدها بسنوات قليلة ، سار وليم الكبير ، دوق جوين Guinne بالفكرة شوطا أبعد . ثم عقد مجمع بواتييه سنة ١٠٠٠ ميلادية ، وفيه تقرر عدم اللجوء إلى العنف لفض المنازعات ، مع التهديد بحرمان كل من يرفض الامتثال لهذا القرار [١١٤] .

لقد كان اهتمام الكنيسة بحركة السلام نابعا من اهتمامها بحماية أملاكها من عمليات النهب والتدمير التى تصاحب الحرب . إذ أن الفوضى الإقطاعية التى أعقبت انهيار الإمبراطورية الكارولنجية جعلت أملاك الكنيسة تتعرض لغارات المتحاربين الإقطاعيين على نحو ما كان يحدث إبان هجمات الفيكنج والمجريين الوثنيين قبل ذلك . وقد حذا هذا بالكنيسة، التى رأت هذه الحال التعسة تستشرى فى الغرب الأوربى ، إلى أن تحاول حماية أملاكها أولا ، ولا بأس من أن تعود المحاولة بالنفع على المجتمع ككل بعد ذلك .

على أية حال ، استمر عقد المجامع الكنسية لفرض "السلام المقدس" . وفى سنة ١٠١٦م عقد مجمع كنسى فى فيردن Verdun-sur-le-Doubs ، وفيه تم التوصل إلى صياغة قسم معين يقسم النبلاء بمقتضاه على ألا يجبروا الفلاحين ورجال الكنيسة على الانضمام لقواتهم ، وألا يغيروا على محاصيل الفلاحين ، أو يصادروا حيواناتهم . كانت مراسم هذا القسم تتم فى كنائس فرنسا ، وسط تهليل جموع القساوسة الذين تتعالى صيحاتهم "السلام . السلام .

السلام" [١١٥] . وحين لقيت الحركة تأييد الكلونيين انتشرت فى سائر أنحاء فرنسا وإيطاليا وغيرهما من المناطق التى كانت السلطة الملكية ضعيفة فيها . ولكن هذه الحركة لم تمتد إلى انجلترا حيث كان الحكم النورماني قويا ، أو إلى ألمانيا حيث كان الأباطرة يفرضون سلامهم . ويرجع الفضل إلى الحركة الكلونية فى التطور الأخير الذى طرأ على هذه الحركة .

والنجاح الذى لقيته حركة السلام استحث بعض الأساقفة المتحمسين فساروا بمشروع السلام إلى مدى أبعد . ففى سنة ١٠٣٨م أصدر أيمون Aymon كبير أساقفة بورج Bourges ، أمرا بأن على كل مسيحى تجاوز الخامسة عشرة من عمره ، أن يعلن أنه عدو لمن يخرقون السلام ، وأنه على استعداد لقتالهم إذا اقتضى الأمر [١١٦] .

وهكذا ، اتخذت الكنيسة موقفا فعليا تجاه الحرب ، أو بالأحرى تجاه المشاركة فى الحرب الإقطاعية بما تتميز به من عنف وتدمير يهدد أملاك الكنيسة ومكانتها . ولكى تعاقب الكنيسة من يعكرون صفو السلام ألفت نفسها متورطة فى تنظيم الحملات العسكرية وتوجيهها . بل إنها اعتبرت أن حروبها ضد من يخالفون شروط السلام "حروبا مقدسة" يتم خوضها باسم الرب فى سبيل الدين المسيحى [١١٧] . فقد كانت الاستجابة حماسية لما أعلنه أيمون أسقف بورج ، وتشكلت "ميليشيات" السلام التى ضمت الفلاحين ورجال الكنيسة . وبدأ هؤلاء يدمرون قلاع النبلاء المخالفين السلام ، وسرعان ما باتت هذه "الميليشيا" الرعناء مصدر خطر جسيم بحيث اضطرت السلطات العلمانية إلى قمعها .

وقد حدث ذات مرة فى ألمانيا ، أن أفلت زمام جيش السلام الكنسى فأخذ ينهب البلاد ، وأحرق جنود "جيش السلام المقدس" قرية بنسى Bénecy ، مما اضطر أودو Odo كونت ديول Déols إلى استئصال شأفة هذا الجيش على ضفاف نهر شير Cher . وتروى المصادر التاريخية أنه حين انقشع غبار المعركة كانت هناك سبعمائة جثة من جنود جيش السلام تغطى ساحة القتال [١١٨] .

فى الوقت نفسه كانت هناك حركة جديدة وأكثر فعالية لتحديد نطاق الحرب . ففى سنة ١٠٢٧م تم عقد مجمع دينى فى روسيللون Roussillon لتحديد نطاق الحرب فى أيام معينة . هذه الحركة التى عرفت باسم "هدنة الرب" كانت جانبا آخر من حركة السلام انبثق فى القرن الحادى عشر عن "سلام الرب" . رويدا رويدا اتسع نطاق هدنة الرب ليتقيد الحرب فى نطاق محدود فى السنة (شهور الصيف فقط تقريبا) ، كما منعت هدنة الرب القتال فى أربعة أيام من الأسبوع . وما أن انتصف القرن الحادى عشر حتى كانت فكرة هدنة الرب قد تأكدت . وفى

مجمع ناربون سنة ١٠٥٤م ، سعت الكنيسة إلى التوفيق بين "هدنة الرب" التى تحرم القتال فى أيام معدودة من الأسبوع ، وأوقات محددة على مدار السنة ، وبين "سلام الرب" الذى يحمى أملاك الكنيسة وأملاك الفقراء وأرواحهم من شرور الحرب . ولدينا وثيقة ترجع إلى سنة ١٠٦٣م وهى مرسوم بالهدنة التى عقدت لأسقفية تيروان Terouanne فى هذه السنة(١١٩٠). والوثيقة الأخرى عبارة عن مرسوم بالهدنة التى أعلنت على يد أسقف كولون Cologne سنة ١٠٨٣م (١٢٠) ويبدو من خلال المقارنة بين هاتين الوثيقتين أن التشدد فى العقوبات التى كانت تفرضها الكنيسة ضد من ينتهكون السلام كان يتصاعد بمضى الزمن ، إذ تبدو الوثيقة الأولى أقل تشددا من الثانية التى صدرت بعدها بعشرين سنة . وهو ما يشير إلى أن الكنيسة قد تورطت بقدر أكبر فى الشئون العلمانية .

لقد كان موقف الكنيسة من حركة السلام خير دليل على تغير موقفها من قضية الحرب حقا. بيد أن عامل الحسم هنا لم يكن من نصيب اللاهوتيين والمفكرين ، وإنما كان من نصيب الروح العسكرية للمجتمع الذى توارث القيم الحربية الجرمانية . وعلى الرغم من كثرة إخفاقات حركة السلام ، فإن الكنيسة طورت من خلال هذه الحركة نفسها عدة نظم ووسائل عسكرية بالدرجة الأولى(١٢١) . كما خاضت جيوش السلام الكنسية "حروبا مقدسة" لإقرار "السلام المقدس" بمباركة الكنيسة . ومن ثم فإن هذه الحركة لم تكن بالضرورة حركة سلمية ؛ لأنها كانت موجهة ضد العنف ، ولم تكن موجهة ضد الحرب ذاتها .

والواقع أن حركات السلام ، فى كل العصور ، حين تصطدم بالواقع تفقد الكثير من بريقها وفعاليتها التى كانت واضحة وهى ماتزال فى طورها النظرى . هذه الحقيقة تنسحب أيضا على حركة السلام التى حاولت الكنيسة فرضها على المجتمع الغربى فى أخريات القرن العاشر وخلال القرن الحادى عشر . ذلك أن كثيرين من الأمراء قد حنثوا بأيمانهم التى قطعوها بالحفاظ على السلام ، كما أن هذه الحركة لم تكن تحظى بمساندة أحد الأمراء الكبار ما لم تكن له فيها مصلحة شخصية . فقد حارب وليم الفاتح أخاه فى المسيحية هارولد (فى معركة هاستنجز ١٠٦٦م) فى يوم سبت ، وهو من الأيام التى شملتها هدنة الرب . ولم يكن وليم الفاتح استثناء فى هذا ، ولكنه مثال على كثيرين غيره . كذلك فإن أملاك الكنيسة والفلاحين لم تحظ أبدا بسلام الرب بشكل شامل(١٢٢) . لقد كان من الصعب أن يتخلص الغربى من ذوقه العسكرى ، وأن يتخلى عن ميوله الحربية ، وتقديره لقيم الشجاعة والبطولة والإقدام التى كانت (فى شطر كبير منها على الأقل) ميراثه الجرمانى .

ومن ناحية أخرى ، وجدت الأرستقراطية الغربية نفسها فى وضع غير مريح بسبب حركة السلام . ذلك أن النبلاء من أبناء هذه الطبقة لم يتعلموا شيئا منذ صباهم غير الحرب والقتال[١٢٣] . وقلائل منهم هم الذين كانوا يرضون بأية حياة أخرى . لقد كانت حروبهم فى الداخل تجلب عليهم عداوة الكنيسة التى لم يكونوا يحترمونها كثيرا ؛ إذ لم يكن بينهم كثيرون يفهمون العقيدة المسيحية فهما صحيحا ، أما الذين يلتزمون بتعاليمها فكانوا أقل عددا . أما الغالبية الساحقة منهم فلم يكونوا يفهمون من الدين سوى أنه تناول القربان من حين لآخر تكفيرا عن الخطايا ، أو أن هذا الدين هو مجرد تبجيل الذخائر المقدسة ، ومنح الهبات للكنيسة .. وما إلى ذلك من مظاهر الدين المادية . ولكن عقولهم كانت قاصرة عن فهم ما هو أسمى من ذلك .

وعلى الرغم من هذا ، فإن القرن الحادى عشر قد شهد رغبة جارفة بين الناس فى التكفير عن ذنوبهم . فقد كانوا يتوقعون اقتراب القيامة ونهاية العالم ، ومادام هناك متسع من الوقت، قبل يوم الحساب الأخير ، فلماذا لا يكفرون عن خطاياهم لضمان خلاص أرواحهم ؟ وبالنسبة لأبناء الطبقة الإقطاعية كانت هناك وسيلتان للتكفير عن الذنوب : فإما أن يهجر الفارس الحرب وحياة الفرسان ، ليعيش فى دير يتحول فيه إلى راهب ؛ وإما أن يذهب فى رحلة حج تكفيرية إلى أحد المزارات المقدسة . وفى الحالين كان الفارس يتخلى عن مكانه بين "الذين يحاربون". صحيح أن من يتحول للرهبنة كان يتخلى عن مكانه بصفة دائمة بحيث تصير حياته كلها تكفيرا وتوبة ، على حين كان الحاج يتخلى عنه مؤقتا ؛ لأن الحاج كان يجب أن يسافر بلا سلاح (قبل التطور الأخير فى ممارسة الحج) ، ولكن هذه الإجراءات التكفيرية كانت تسبب القلق والضجر بين أبناء هذه الطبقة العسكرية . ومن ثم ، فإن الكنيسة وجدت نفسها مضطرة إلى توجيه الطاقة الزائدة لدى الفرسان الغربيين ضد أعداء الكنيسة والدين المسيحى .

وقد دفع التأثير الناتج عن الحركة الإصلاحية الكلونية بأعداد كبيرة من هؤلاء المحاربين إلى المشاركة فى الحرب ضد المسلمين فى أسبانيا . فقد كانت الأديرة الكلونية تدعو الأمراء الإقطاعيين وفرسانهم إلى التكفير عن خطاياهم العديدة قبل أن تنقضى حياتهم المليئة بالعنف والعدوان . وكان التكفير عن ذنوبهم هذه المرة يتم من خلال مهارتهم القتالية ؛ وذلك بالحج المسلح إلى أحد المزارات المقدسة فى أسبانيا ثم المشاركة فى الحرب ضد المسلمين . وهكذا تجسدت فى أوروبا الغربية ، فى القرن الحادى عشر ، قيم التدين والبسالة من خلال رحلات

الفرسان المسيحيين . وحين كون البابا جريجورى السابع جيشه الذى أسماه "جيش القديس بطرس Militia Sancti Petri كان ذلك تجسيدا لنجاح الكنيسة فى توظيف الميول الحربية لدى نبلاء الغرب ذوى الأصول الجرمانية ، فى خدمة مثال الحرب المقدسة .

لقد كانت الدعوة الصليبية ، التى أطلقها أربان الثانى ، دعوة تناسب العصر تماما . ففى واقع الأمر كان المجتمع المشغول بأمر الخلاص يرى فى هذه الدعوة شكلا أكثر قبولا من أى شكل آخر ، فقد صار بوسع الفارس أن يكفر عن خطاياه وينال الخلاص من خلال مهارته العسكرية . وهذا ما قرره البابا أربان الثانى فى كليرمون على حد رواية جيوبرت النوجنتى(١٢٤) . لقد كان المجتمع الغربى زمن الدعوة الصليبية مجتمعا إقطاعيا إلى حد كبير وكان العلمانيون فى هذا المجتمع ينظرون إلى العلاقات داخل هذا المجتمع فى ضوء العلاقة الإقطاعية بين الفصل الإقطاعى وسيده . وقد انعكست هذه الرؤية على علاقة الإنسان بالرب والرجل بزوجته . كانت العلاقة الإقطاعية علاقة شخصية وتعاقدية ذات التزامات تبادلية بين طرفيها : فقد كان على السيد أن يبذل العطايا والحماية ، وعلى الفصل أن يسدى له خدماته الإقطاعية (١٢٥) . ولم يكن رجال الكنيسة سعداء بالتصور الإقطاعى لعلاقة الإنسان بالرب أو بالمسيح ؛ إذ أن هذا التصور كان يفترض أن الرب أو المسيح ملزم بمكافأة الفرسان الذين يحاربون فى سبيله . وعلى الرغم من عدم سعادة رجال الكنيسة بهذا التصور فإنهم استخدموا المصطلحات الإقطاعية فى صياغتهم لبعض جوانب الإيديولوجية الصليبية كما تكشف عن ذلك خطبة البابا أربان الثانى فى كليرمون ، وكما تكشف بعض أغنيات الحروب الصليبية(١٢٦) . وبفضل روح القتال لدى فرسان الغرب الأوربى أمكن للفكرة الصليبية أن تنجح على حين فشلت حركة السلام .

لقد كان المجتمع الإقطاعى المادى ، بانحيازاته وتعصبه الشديد ، ورغبته العارمة فى الخلاص من خلال أعمال تتناسب مع أخلاقياته Mores السائدة - كان هذا المجتمع مستعدا لأن يستجيب للرسالة التى طرحها أربان الثانى فى كليرمون ، لأنه فسرها فى ضوء المصطلحات التى يفهمها(١٢٧) . لقد كانت البابوية تقصد شيئا من وراء الإيديولوجية التى طرحتها على المجتمع من خلال الدعاة والمبشرين ومن خلال البابا نفسه . ولكن القوى الاجتماعية فهمت هذه الإيديولوجية فى ضوء مصطلحاتها الخاصة على نحو ماسنرى فى الفصل الثانى من هذه الدراسة .

والواقع أن من يحاول تصور الحياة الأوربية فى العصور الوسطى دون أن يضع نصب عينيه ملامح الصدام والوفاق بين المسلمين والمسيحيين ، يشبه شخصا يغمض عينيه عن ضوء الشمس الذى يفرض نفسه . وهكذا نصل إلى مناقشة الرافد الثالث من روافد الإيديولوجية الصليبية ، أعنى به الرافد الإسلامى .

كانت القوى الإسلامية تتحكم فى حوض المتوسط الغربى من قطالونيا (أكوتيانيا Aquin-tania) حتى تونس . ولم يكن المسيحى الغربى بغافل عن أن الحضارة العربية الإسلامية أرقى من حضارته ، كما أنه كان فريسة للخوف الدائم من المسلمين الرابضين على حدوده عبر جبال البرانس . ومن ناحية أخرى ، كان البحارة المسلمون ينقضون على السفن الأوربية فى حوض المتوسط الغربى ، كما تعرضت روما لغاراتهم ، ونهب المغيرون كنيسة القديس بطرس سنة ٨٤٦م . كذلك بنى المسلمون لأنفسهم قلاعا فى إيطاليا وفى البروفانس . ومن مكامنهم الحصينة فى أسبانيا ، كان المسلمون يشكلون خطرا يمكن أن ينساب عبر جبال البرانس إلى فرنسا مرة ثانية .

ولم يكن الغرب الأوربى آنذاك يمتلك التنظيم الذى يمكنه التصدى لمثل هذا الهجوم المحتمل. حقيقة أن بعض الجهود الفردية من قبل حكام مثل شارل مارتل وشارلمان نجحت فى الماضى فى التصدى للهجوم الإسلامى ، ولكن المواجهة فى القرن العاشر كانت تستوجب تركيزا أكثر فى الجهود وتنظيما أكمل فى مجال العمل العسكرى . ففى القرن العاشر كان مسلمو أسبانيا يشكلون خطرا حقيقيا على العالم المسيحى فى غرب أوربا ؛ إذ قام الخليفة العظيم عبد الرحمن الثالث (٩١٢-٩٦١م) ، الذى كان أول خلفاء بنى أمية فى الأندلس[١٢٨] ، بفرض سلطانه على شبه جزيرة أيبيريا بحيث بات سيد هذا المناطق بلا منازع عند منتصف القرن العاشر . وبوفاته سنة ٩٦١م تبدلت الأمور إلى الأحسن بالنسبة للمسيحيين . فقد كان خليفته "الحكم الثانى" (٩٦١-٩٧٦م) رجلا مسالما ركز جل اهتمامه بالمسائل الثقافية . وبعد وفاته تحكم فى مسرح الأحداث الوزير محمد بن أبى عامر الذى كان يعرف بالمنصور . وكان هذا رجلا عسكرى الميول ، فبدأ يشن هجماته على القوى المسيحية الأسبانية التى كانت تتزعمها مملكة ليون .. وقد أحرز عدة انتصارات هائلة . ولكن وفاته سنة ١٠٠٢ جاءت لتضع حدا لخوف القوى المسيحية . وبدأ التدهور ينخر فى الجبهة الإسلامية فى الأندلس[١٢٩] .

ثم بدأ الهجوم المسيحى المضاد بقيادة سانشو الثالث Sancho III ملك نافار . وحظى سانشو بحليف قوى هو النظام الديرى الكلونى الذى اهتم زعماؤه دائما بحروب الحجاج المسيحيين ضد مسلمى أسبانيا ، كما قدموا التسهيلات العديدة على الطريق إلى مزار سانتياجو فى كومبو ستيلا فى أسبانيا . لقد كانت البابوية ترقب عن كثب الصراع الدائر بين المسلمين والمسيحيين فى أسبانيا . ولاشك فى أن البابوات قد اهتزوا فرحا وهم يرون الرقعة المسيحية تتزايد على خريطة شبة الجزيرة . ومن هنا بدأت البابوية تبارك الحروب ضد مسلمى الأندلس .

هكذا ، إذن ، ينبغى أن نبحث عن جذور الفكرة الصليبية فى طيات الصراع بين المسلمين والمسيحيين فى أسبانيا ، وأن نتأمل كيف تبلورت الفكرة اللاتينية عن الحروب المقدسة ، بشكل واقعى ، من هذه الخلفية . لقد بدأت الحرب ضد المسلمين فى القرن العاشر لكى تستمر حتى سنة ١٤٩٢م ، حين تحقق النصر النهائى للمسيحيين فى أسبانيا . وكانت هذه الحرب الطاحنة الطويلة التى استمرت ضد الإسلام على مدى ما يزيد عن خمسة قرون هى النغمة الدالة فى تاريخ أسبانيا المسيحية ، بل إن من الباحثين من يرى أنها كانت عامل الحسم فى تكوين الشخصية الأسبانية المتمايزة (١٣٠) . وربما يكون الأسبان المسيحيون ، فى خضم الصراع ضد المسلمين ، قد استوحوا فكرة الجهاد الإسلامى القائلة بأن أفضل ميتة للإنسان هى أن يموت فى سبيل الله . وربما يكون هذا الاستيحاء قد تم دون وعى بفضل التفاعل بين القوتين المتصادمتين على التراب الأسبانى آنذاك . ويذهب المؤرخ الأسبانى المعاصر "أميركو كاسترو Ameritco Castro" فى كتابة "حقيقة أسبانيا التاريخية"(١٣١) إلى أن فكرة الحرب المقدسة المسيحية كانت مستوحاة من مفهوم الجهاد الإسلامى ، إذ يقول (١٣٢) : "الحقيقة عندى هى أن الحياة الأوربية عامة ، والحياة الأسبانية خاصة ، كانت نوعا من التصادم والتعايش بين المسلمين والمسيحيين .. إن الحرب ضد المسلمين فى فلسطين وأسبانيا استلهمت من فكرة الجهاد لدى المسلمين ، ولا يهمنا فى هذا المقام شكل هذا الاستيحاء ؛ وإنما يهمنا أن نؤكد على وجوده بصفة قاطعة .. وفى رأيى أنه لايمكن تصور أن البابا ليو الرابع فى سنة ٨٤٨م ، أو البابا أربان الثانى فى سنة ١٠٩٥م ، كانا يجهلان أن القادة المسلمين كثيرا ما كانوا يذكرون جنودهم ، وهم يحثونهم على قتال الكفار ، بأن الله قد وعد الذين يقتلون فى سبيله بجنات تتوفر فيها شتى صنوف المتع . وكان هذا هو ما يدفع بالمسلمين ، المؤمنين تماما

بهذه الوعود ، إلى النضال بكل قوة وبسالة . ولابد أن تأثير هذه الآيات [التى تتحدث عن فضل الشهداء] هو الذى مكن المسلمين من السيطرة على رقعة هائلة الاتساع من أرض العالم. ولسنا نظن أن قادة العالم المسيحى فى العصور الوسطى كانوا بحاجة إلى يصيروا مستشرقين، أو حتى إلى معرفة اللغة العربية ، لكى يدركوا قيمة الجهاد عند المسلمين ، كما أننا لانتصور، أيضا ، أن الجهاد فى الأندلس كان يستهدف الحصول على الأسلاب والمغانم" .

ويمضى المؤرخ الأسبانى ليوضح كيف أن هذا التأثير قد تجلى واضحا فى الرهبنات العسكرية التى تولت أمر الحرب ضد المسلمين . ويوضح باحث آخر أن "الرباط" الإسلامى (الذى كان يقام على الحدود ويرابط فيه المجاهدون بقصد الانقطاع للعبادة وصد الهجمات على حدود دار الإسلام) قد ترك بصماته الواضحة على الرهبنات العسكرية فى أسبانيا(١٣٣) ، فقد ظهرت مؤسسات رهبنية عسكرية فى أسبانيا مثل فرسان القنطرة Alcantara وفرسان كالاترافا Calatrava ، وفرسان القديس يوحنا (سانتياجو Santiago) فى غضون القرن العاشر . ثم قام فرسان المعبد Templars بتوطيد وجودهم هناك خلال حكم الفرنسو الأول (١١٠٤-١١٣٤م) ملك أرغونة ونافار . وكانت هذه الرهبنات العسكرية تمزج بين الحماسة الدينية والقتال ضد المسلمين ، وهو الأمر الذى يشى بوجود التأثير الإسلامى من خلال الرباط الذى كان المزج بين الحماسة الدينية والجهاد فى سبيل الله من أهم سماته . وعلى الرغم من عدم وجود الدليل القاطع على هذا التأثير الإسلامى ، فإن هذا الافتراض لايبدو بعيدا عن الصواب .

وفى تصورنا أن التقدم الذى أحرزته الحرب ضد المسلمين فى أسبانيا ، قد جعل البابوية تضعها فى مكانة الحرب المقدسة . وسرعان ما بدأ البابوات أنفسهم يوجهون الحرب فى أسبانيا.. فقد أعلن اسكندر الثانى الغفران لكل من حاربوا من أجل الصليب هناك ، وبدأ يعمل على جمع الجيوش لمحاربة المسلمين(١٣٤) . ومنذ ذلك الحين أخذت البابوية تروج لفكرة الحرب المقدسة ضد المسلمين فى الأندلس ، وهو ما تكشف عنه مراسلات البابا جريجورى السابع(١٣٥). فقد دعا هذا البابا أمراء العالم المسيحى لمساعدة أسبانيا ، مؤكدا أن المملكة الأسبانية تتبع لكرسى القديس بطرس ، كما أعلن أن من حق الفرسان المسيحيين أن يستمتعوا بالأرض التى يستولون عليها من المسلمين . وفى ذلك الحين كان الفرسان المسيحيون يتدفقون على أسبانيا للتصدى للمرابطين الذين كان وصولهم إلى أسبانيا تدعيما للقوة الإسلامية .

أما البابا أربان الثانى ، فقد أسبغ حمايته وعطفه على الحرب ضد المسلمين فى أسبانيا . بل إنه نصح بعض الأمراء وغيرهم ممن كانوا يريدون القيام برحلة حج إلى فلسطين ، بأن من الأفضل لهم أن ينفقوا الوقت والجهد فى إعادة تعمير إحدى المدن التى دمرت أثناء القتال ضد المسلمين[١٣٦] . وهكذا ، كانت فكرة الحرب المقدسة قد نفذت على صعيد الواقع مع نهاية القرن الحادى عشر من خلال المعارك التى جرت على التراب الأسبانى ؛ إذ أن السلطات الكنسية كانت تشجع الفرسان المسيحيين على نبذ حروبهم ومنازعاتهم الداخلية ، وتحثهم على التوجه إلى حدود العالم المسيحى لقتال مسيحيى الأندلس . أما المكافأة التى قدمتها الكنيسة لهؤلاء الفرسان فكانت ذات شقين ؛ أولهما ، إقرار حق أولئك المقاتلين فى امتلاك الأرض التى ينتزعونها من المسلمين ؛ شريطة أن تكون إقطاعات تابعة لكرسى القديس بطرس ، أى للبابوية ، وثانيهما أن الكنيسة أسبغت عليهم بعض المكاسب الروحية التى لانعرفها على وجه محدد قاطع ، وإن كنا نعرف أنها تضمنت بعض الإعفاءات من التكفير ، وبعض الوعود بالغفران[١٣٧] .

لقد كانت البابوية توجه الحروب المقدسة فى أسبانيا ، وتعين قادتها فى غالب الأحوال ، أما الأرض التى كانوا يستولون عليها ، فكانت تظل جزءا من أملاك القديس بطرس ، ومن يأخذها من الفرسان إنما يأخذها كإقطاع يجعله فصلا تابعا لكنيسة روما . ولاشك فى أن البابوية قد سُرّت بنتائج هذه الحركة ، ولاشك أيضا فى أن السؤال قد طاف بخاطر زعمائها حول إمكانية تطبيق مثال الحرب المقدسة ، على نطاق أوسع ، على الحدود الشرقية للعالم المسيحى (أى فى فلسطين) بعد أن بدأت تحرز النجاح على الحدود الغربية (أسبانيا) وأخذت البابوية تتطلع صوب الشرق البعيد ، حيث الأماكن المقدسة التى ترتبط بقصة المسيح ، لتكون ميدانا لحرب مقدسة أوسع مجالا وأبعد هدفا .

كان هذا السؤال محصلة للتأثير الإسلامى سواء فى شكله المباشر (من خلال الحرب والقتال فى أسبانيا) ، أو فى شكله غير المباشر (من خلال تأثير فكرة الجهاد الإسلامى على فكرة الحرب المقدسة) وعلى الرغم من أنه لايوجد دليل مباشر على تأثير فكرة الجهاد ، فإنه لايوجد أيضا دليل مباشر على انعدام هذا التأثير . وهو ما يؤدى بنا إلى افتراض وجود هذا التأثير على نحو ما .

وهنا يجدر بنا أن نشير إلى أن هذا لايعنى التماثل والتطابق بين مفهوم الجهاد الإسلامى ومفهوم الحرب المقدسة فى المسيحية الكاثوليكية ، وإنما يعنى أنه تم استيحاء الفكرة بشكل

غامض ، ثم تمت صياغتها على أيدى المفكرين واللاهوتيين الكاثوليك بالشكل الذى يناسب العقل الغربى من جهة ، ويرضى النزعات العسكرية لدى شعوبه من جهة أخرى . لقد ذهب بعض الباحثين إلى أن فكرة الحرب المقدسة المسيحية كانت تطورا انفرد به الغرب الأوربى نتيجة للتطورات الداخلية[١٣٨]. وهو رأى صحيح إلى حد كبير .

فالمؤثرات الإسلامية تبدو واهية فى ضوء قراءتنا لنصوص أوغسطين ونصوص الملاحم الجرمانية التى تجسد التراث البطولى . بيد أن ذلك لاينفى تماما وجود المؤثرات الإسلامية لاسيما وأن المسلمين والمسيحيين كانوا على حال من التصادم والتعايش يصعب معها عدم تصور وجود هذا التأثير . وعلى أية حال ، فإن استيحاء فكرة الجهاد الإسلامية وصياغتها فى قالب مسيحى ، هو فكرة الحرب المقدسة ، كان لمواجهة القوى الإسلامية نفسها . لقد كانت المسيحية الغربية فى حاجة إلى مانسميه اليوم بعقيدة القتال لكى تواجه عدوها الذى يحارب على أساس من عقيدة قوية . وفى تصورنا أن اقتباس الغرب لفكرة الجهاد الإسلامية وتطويرها ليس أمرا مستبعدا . ولكن ينبغى أن نتذكر أن الإيديولوجيا التى أفرخت الحملة الصليبية قد تكونت من ثلاثة روافد كان الرافد الإسلامى واحدا منها .

وإذا كنا قد أشرنا إلى احتمال وجود التأثير الإسلامى على فكرة الحرب المقدسة من خلال مفهوم الجهاد فالواجب أن نشير إلى أن الخلافات بين الجهاد والحرب المقدسة عميقة وبعيدة . فمن المعروف أنه قد تم تشريع الجهاد فى الإسلام بعد الهجرة لقتال الكفار دفاعا عن دار الإسلام وعن دين الله ، أى تقريرا لحق الدفاع عن النفس ، ففى قوله تعالى : "كتب عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لاتعلمون"[١٣٩] فى هذه الآية تكليف للمسلمين بالقتال . ويرد مثل هذا التكليف فى قوله تعالى : "وقاتلوا فى سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم[١٤٠] . وتحفل آيات القرآن الكريم بعشرات الأمثلة المشابهة التى تحض على الجهاد فى سبيل الله . ومن المهم أن نشير إلى أن هذا البحث لايهدف إلى دراسة الجهاد الإسلامى ؛ من حيث فلسفته وغايته وشروطه .. وما إلى ذلك [١٤١] . وإنما يهدف إلى رصد التأثير الإسلامى على فكرة الحرب المقدسة التى خرجت منها الحرب الصليبية .

والمعروف أن الجهاد تشريع إسلامى يرتبط بالدين منذ البداية ، على حين نجد أن فكرة الحرب المقدسة تطور إيديولوجى فى المسيحية الكاثوليكية يخالف المفاهيم المسيحية الباكرة

كما وردت فى الأنجيل . وقد فُرض الجهاد فى الإسلام تقريرا لحق الدفاع عن النفس ؛ ففى القرآن الكريم : "أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير" (١٤٢) . أما الحرب المقدسة فلا ترتبط بالكتاب المقدس ، وإنما هى على العكس ، تناقض الإتجاهات السلمية الواضحة فى الإنجيل ، وهى ، كفكرة ، ترتبط بفكر فلاسفة الكنيسة الكاثوليكية ، كما ترتبط بالتطورات التاريخية التى كان الغرب الأوربى مسرحا لها . وعلى الرغم من الخلافات الجوهرية بين الجهاد والحروب الصليبية ، فإننا نعتقد أن فكرة الغفران الصليبى قد استوحيت من مفهوم الثواب الذى يناله الشهداء من المجاهدين بشكل أو بآخر . فقد أكرم الإسلام من يستشهدون فى سبيل الله من المجاهدين ، ومنحهم حياة خالدة فى جنات النعيم. فقد ذكر الله تعالى فى القرآن الكريم عن الشهداء مانصه : "ولاتحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا ، بل أحياء عند ربهم يرزقون . فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ، ألا خوف عليهم ، ولا هم يحزنون" (١٤٣) . وقد استعار رجال الكنيسة هذا المفهوم وطوره فلاسفتهم وبابواتهم فى ثوب مسيحى اتخذ شكله النهائى على النحو الذى ورد فى خطبه أربان الثانى فى كليرمون سنة ١٠٩٥م .

وهكذا ، فإننا لانستطيع تجاهل الرافد الإسلامى ، كواحد من الروافد الأساسية فى التيار الذى صاغ الخلفية الإيديولوجية للحروب الصليبية . وإذا كان من يأخذون بفكرة التأثير الإسلامى على الفكرة الصليبية ، وأنا منهم ، لم يستطيعوا أن يقدموا القرينة المادية أو الدليل المباشر على هذا التأثير ؛ فإن هذا لاينفى وجود هذا التأثير ، لاسيما وأن استقراء الظروف التاريخية يقودنا فى طريق الموافقة على وجوده .

وإذا كنا قد عرضنا للروافد الثلاثة الرئيسية التى شكلت الإيديولوجية الصليبية على هذا النحو المفصّل ؛ فإننا ، فى الوقت نفسه ، نعتقد أنها كانت متداخلة ومتشابكة بشكل يصعب تحديد مداه ، وعلى نحو جعل تفاعلها سويا ينأى بها عن أية محاولة لفصل كل رافد من هذه الروافد عن الآخر . ومن ناحية يجب أن نتذكر أن هذه الروافد الرئيسية الثلاثة لم تكن هى ، وحدها ، التى شكلت الخلفية الإيديولوجية التى خرجت منها الحركة الصليبية فى القرن الحادى عشر ، وإنما ساهمت عوامل فرعية أخرى عديدة فى صياغة هذه الإيديولوجية بحيث جاءت فى نهاية الأمر تعبيرا عن المجتمع الأوربى آنذاك ، وبحيث شكلت النظرة الكونية الشاملة لهذا المجتمع . وعلى الرغم من أن الكنيسة ودعاتها كانوا هم أصحاب الفضل الأكبر فى صياغة

الفكرة الصليبية والترويج لها ؛ فإن البابوية حين دعت الناس إلى الحملة الصليبية كان لابد أن تخاطب فيهم أطماعهم الدنيوية ، وأهدافهم المادية حتى يفهموا دعوتها . حين طرحت الكنيسة الفكرة الصليبية على المجتمع ، كانت تعتمد على الخلفية الإيديولوجية السائدة ، بيد أنها استهدفت من العمل الصليبى شيئا ، وفهمت الطبقة الإقطاعية من هذه الدعوة شيئا آخر ، أما العامة من جماهير المقهورين والمطحونين من الفلاحين وسكان المدن الناشئة ، فقد كانت الدعوة الصليبية تعنى بالنسبة لهم شيئا مختلفا تماما . ولم يكن ممكنا أن يجتمع هؤلاء وأولئك جميعا سوى فى ظل الإيديولوجية السائدة والصياغة الفضفاضة للفكرة الصليبية كما طرحها أربان الثانى .

بيد أن الفكرة بحد ذاتها ، لم تكن لتتسبب فى حدوث الظاهرة التاريخية التى نحن بصددها : أعنى الحروب الصليبية ، ما لم تكن متوافقة مع حركة المجتمع الذى أفرزها ، ومع الظروف التاريخية السائدة من ناحية ، وما لم تكن استجابة للدوافع والتطلعات والآمال التى كانت تحفز الطبقات الاجتماعية على الحركة والعمل من ناحية ثانية .. وتلك قضية أخرى .

هوامش الفصل الأول

(١) على سبيل المثال ، جاء في إنجيل متى على لسان المسيح عليه السلام (٥ : ٢١) "قد سمعتم أنه قيل للقدماء لاتقتل ، ومن قتل يكون مستوجب الحكم" . وسوف نناقش هذه المسألة بتفصيل أكثر في الصفحات التالية .

(٢) جاء بإنجيل متى (٢٦ ك ٤٧-٥٢) "وفيما هو يتكلم إذا يهوذا أحد الاثنى عشر قد جاء ومعه جمع كبير بسيوف وعصي من عند رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب . والذى أسلمه أعطاهم علامة قائلا الذى أقبله هو هو . أمسكوه . فللوقت تقدم إلى يسوع وقال السلام ياسيدي . وقبله . فقال له يسوع ياصاحب لماذا جئت . حينئذ تقدموا وألقوا الأيادي على يسوع وأمسكوه . وإذا واحد من الذين مع يسوع مد يده واستل سيفه وضرب عبد رئيس الكهنة فقطع أذنه . فقال له يسوع رد سيفك إلى مكانه لأن كل الذين يأخذون السيف بالسيف يهلكون .." .

(٣) رسائل بولس الرسول إلى أهل رومية (١٢ ك ١٧-٢١) .

(٤) متى ، ٥ : ٣٨-٣٩ .

(٥) James A. Brundage, "Holy War and the Medieval lawyers", in The Holy War, (edited by : Thomas Patrick Murphy, (Ohio State Univ. Press), pp. 99-101 .

(٦) Saunders, J.J., Aspects of the Crusades, (Univ. of Canturbury 1962), p. 17 .

(٧) Runciman, S., A Hist. of the Crusades, (Harper Torchbooks, New York, 1964), vol. I, p. 83; Saunders, Aspects, p. 17 .

(٨) يرى ستيفن رنسمان (op.cit., pp. 83-4) أن حروب جستنيان في القرن السادس كانت تهدف إلى تحرير الرومان من الحكام الهراطقة (الوندال والاوستروقوط الآريوسيون) وأن حروب باسيل الثانى ضد البلغار كانت تهدف إلى استعادة الأملاك الإمبراطورية .

عن حروب جستنيان أنظر : كانتور ، التاريخ الوسيط - قصة حضارة البداية والنهاية (ترجمة قاسم عبده قاسم ، دار المعارف ١٩٨١م) ، ص٢١٧- ص٢٣٢ ، وعن حروب باسيل الثانى أنظر : وسام عبد العزيز فرج، "الإمبراطور باسيل الثانى سفاح البلغار - ٩٧٦ - ١٠٢٥ ، العوامل التى أثرت على السياسة في عصره" في ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط (تحرير قاسم عبده قاسم ورأفت عبد الحميد ، دار المعارف ١٩٨٢م) ص١٦٧- ص٢٠٢ .

(٩) Kenneth M. Setton (ed)., Hist. of the Crusades (Philadelphia 1955), vol. I, p. xix .

(١٠) هو أوريليوس أوغسطينوس Aurelius Augustinus (٣٥٤-٤٣٠م) من أبناء شمال أفريقية ولد لأب وثنى وأم مسيحية ، كان لآرائه تأثير هائل فى الكنيسة الكاثوليكية لدرجة جعلت البعض يقول "أنك لن تجد مؤلفا دينيا جيدا الا وفيه اقتباس من أوغسطين" . أهم مؤلفاته التى تحمل آراءه فى الدين والفلسفة والتاريخ "الاعترافات Confessiones و"العقيدة المسيحية de doctrina Christiana" ، و"عن الثالوث de trinitate" و "مدينة الله Civitate Dei" ومن المهم أن نشير إلى أنه لم يراجع أفكاره التى طرحها على مدى حياته بحيث يجعل منها نظاما فكريا متسقا : فلم يكن لديه الوقت لذلك - راجع :

Vernon J. Bourke (ed.) The Essential Augustine, (U.S.A. 1964) ; E. K. Rand, Founders of The Middle Ages, (Dover, New York 1957), pp. 251-284; Cantor, Med. Hist., pp. 69-76 .

وعن تبريره لاستخدام القوة لمصلحة الكنيسة انظر :

Norman F. Cantor, The Medieval World, 300-1300 (Macmillan, 1968) pp. 44-46 .

(١١) Frederick H. Russell, The Just War in the Middle Ages, (Cambridge University Press 1973), pp. 21-22 ; James A. Brundage, Medieval canon law and the Crusades,

(The University of Wisconsin Press, 1969), p. 19 .

(١٢) جاء فى رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية (١٣ : ١-٣) "لتخضع كل نفس للسلاطين الفائقة ، لأنه ليس سلطان إلا من الله ، السلاطين الكائنة هى مرتبة من الله ، حتى أن من يقاوم السلطان يقاوم ترتيب الله .." .

(١٣) Brundage, "Holy War", p. 102; Med. Canon law, p. 19; Russell, The Just War, p. 18 .

(١٤) حول الفكرة المسيحية عن الحرب بشكل عام أنظر :

Robert Regout, La Doctrine de la guerre juste de Saint Augustin a nos jours d'aprés les theologiens et les canonistes Catholiques, (Paris, A Pendon, 1935); Ernst Nys, La Droit de guerre et les précurseurs de Grotuis, (Brussels, 1919); Windass and J. Newmann, "The early Christian attitude to War", Irish Theological Quarterly, 29 (1962), pp. 235-47 .

(١٥) اسمه اللاتينى Isidorus Hispolenius (٥٦٠-٦٣٦م تقريبا) وعلى الرغم من أنه عاش حياته فى أسبانيا تحت الحكم القيزيقوط Visigoths ، وعاصر تسعة من ملوكهم ، فإنه لم يكن جرمانيا بل

كان سليل أسرة رومانية عريقة انتقلت من شمال أفريقية إلى أسبانيا فى القرن السادس . ويعد من أهم المساهمين فى التراث الثقافى الغربى فى العصور الوسطى الباكرة . ويعتبره البعض همزة الوصل بين الثقافة القديمة وثقافة العصور الوسطى . وقد وضع عدة مؤلفات تاريخية أهمها Chronica التى وصلت بتاريخ العالم إلى أحداث عصره ، وتاريخ الفاندال Historia Vandalar-um . ولكن أهم مؤلفاته هو كتاب الأصول أو الاشتقاقات Origines sive etymologia ، وهو عبارة عن موسوعة من عشرين كتابا ، أنظر : نورمان ف. كانتور ، التاريخ الوسيط ، ص١١٨- ص١١٩ .

(١٦) Brundage, Med. Canon law, p. 20 .

(١٧) Russell, The Just War, pp. 21-22; Brundage, op. cit., pp. 20-21 .

(١٨) Russell, The Just War, p. 2 .

(١٩) جريجورى الأول أو الكبير Gregory I The Great (٥٩٠-٦٠٣) . على الرغم من أن فترة بابويته لم تكن طويلة ، فإنها تعتبر من أهم نقاط التحول فى تاريخ كنيسة العصور الوسطى . وتتمثل أهميته فى أنه صاغ منهج سياسة البابوية الذى انتهجته طوال القرنين التاليين . وعندما ارتقى عرش البابوية كان موقف الكنيسة الرومانية مزعزعا للغاية ، ولكنه أرسى دعائم السياسة التى سار عليها خلفاؤه لحققوا زعامة الكنيسة على مجتمع الغرب الأوربى . أنظر: كانتور ، التاريخ الوسيط ، ص٢٧٢- ص٢٧٨ ؛ وكذلك :

Walter Umann, Medieval Political Thought, (Penguin Books 1979), pp. 49- ff; Margaret Deanesly, A hist. of the Medieval Church (Methuen and Co. London), pp. 15-28; G. Barraclough, The Medieval papacy (Thomas and Hudson, London 1968), pp. 27-34 .

(٢٠) Russell, The Just war, pp. 27-28 .

(٢١) Ullmann, op. cit., pp. 66-73; Robert S. Hoyt and S. Chodorow, Europe in the Middle Ages, (Harcourt Brace Jovanovich, New York 1976), pp. 151-161 .

(٢٢) H.E.J. Cowdrey, "The Genesis of The Crusades : The springs of Western Ideas of Holy War", in The Holy War, pp. 18-19; Russell, op. cit., pp. 29-32 .

(٢٣) Brundage, Med. Canon law, pp. 20-21 .

(٢٤) Russell, The Just War, p. 32; Brundage, "Holy War", p. 104 .

(٢٥) Barraclough, Med. papacy, pp. 58-60 .

(٢٦) Russell, op. cit., p. 32 .

(٢٧) Cantor, Med. Hist, pp. 274-288; 352-373 .

(٢٨) Ibid, pp. 274-284; Cowdrey, "The Genesis of the Crusades", p. 19 .

(٢٩) H.E. Mayer, The Crusades (Transl. from German by : John Gillingham. Oxford University Press, 1972), p. 19; Brundage, Med. Canon law, pp. 22-23; Barraclough,

Med. Papcy, pp. 73-74; 90 .

(٣٠) Brundage, Med. Canon law, pp. 23-24 .

(٣١) Ibid., p. 24 .

(٣٢) عن غزو وليم النورمانى لانجلترا ومعركة هاستنجز Hastings سنة ١٠٦٦م ، وأنظر :

Cantor, Med. Hist. pp. 305-312; Hoyt and Chodorow, Europe in the Middle Ages, pp. 332-336 .

(٣٣) Cowdrey, "The Genesis of the Crusade", p. 19; Brundage, "Holy War", p. 104 .

(٣٤) أنظر : Hoyt and Chodorow, op. cit., pp. 292-302 .

(٣٥) Cowdrey, op. cit. pp. 10-20 .

(٣٦) Cowdrey, "The Genesis of the Crusade", p.20; Mayer, The Crusades, p. 19 .

(٣٧) Archives de L'Orient Latin, (Publiées sous la patronage de la Société de l'Orient Latin - Paris 1881) , Tom. I, pp. 56-68 .

وقد ناقش هذه الوثائق الكونت ريان Comte Riant تحت عنوان :

"Inventaire critiques des lettres historiques des croisades", pp. 1-195.

ويرى ريان أن صحة هذه الوثائق وتاريخها ترقى فوق مستوى الشك .

(٣٨) Brundage, Med. Canon law, p. 28 .

(٣٩) لم يصلنا النص الأصلى لخطبة البابا فى كليرمون ، وإنما وردتنا فى عدة روايات تعكس كل منها تصورات كاتبها عن الكلام الذى يمكن للبابا أن يقوله فى هذا الصدد ، أنظر :

Edward Peters (ed.), The First Crusade - The Chronicle of Fulcher of Chartres and other Sources materials, (Univ. of Pennsylvania press, 1971), pp. 2-16 .

حيث يورد روايات كل من روبير الراهب، والمؤرخ المجهول ، وبلدريك وجيوبرت النوجنتى على التوالى. أنظر كذلك :

Louise and Jonathan Riley - Smith (eds), The Crusades, Idea and Reality 1095-1274, (E. Arnold, England 1981), p. 37 .

حيث يرود نص الغفران الذى منحه مجمع كليرمون للمشاركين فى الحملة .

(٤٠) Lewis A.M. Sumberg, La Chanson d'Antioche - Etude historique et littrature, (Paris 1968), p. 146 .

(٤١) Louis Bréhier, L'Eglise et l'Orient au Moyen Age-Les Croisades, (Paris, 1907), p. 61 ; Brundage, "Holy War", p. 105 .

(٤٢) Gesta Francorum et Aliorum Hierosolimitanorum (The deeds of the Franks and other pilgrims to Jerusalem), edited and transl. by Rosalind Hill, (Thomas Nelson and sons. U.S.A. 1962), pp. 1-2 .

(٤٣) متى ، ١٦ : ٢٤ .

(٤٤) Fulcher of Chartres, A history of the expedition to Jernsalem, 1095-1127, (Edited and transl. by : Harold S. Fink, Knoxville 1969), p. 57 .

(٤٥) Joseph Bedier et Pierre Aubry, Les chansons de Croisades avec laurs mélodies, (Paris 1909, Hatkine reprints 1974), pp. ix-x; Sumberg, La Chanson d'Antioche, pp. 143-44.

(٤٦) عن هذا هذا الموضوع أنظر :

Josephus, The Jewish War, (transl. by G.A. Williamson, Penguin Books, 1967).

(٤٧) Steven Runciman, "The Piligrimages to Palestine before 1095" in : Setton (ed.) History of the Crusades, Vol. I, pp. 68-70 .

(٤٨) Jerusalem Pilgrims befors the Crusades, (Edited by : John Wilkinson, Aris and Phillips, England 1977), p. 42 .

والجدير بالذكر أن هذا الكتاب يقدم ترجمة انجليزية لثمانية عشر نصا تعالج الحج المسيحى إلى الأرض المقدسة كُتبت فيما بين سنة ٣٨٥ عندما وصلت القديسة باولا لتحج مع القديس جيروم ، وسنة ١٠٩٩ عندما استولى الصليبيون على بيت المقدس .

(٤٩) Paul Alphandery, La Chrétienté et l'idée de Croisade- Les Prémieres Croisades, (Paris 1954), pp. 20-22 .

(٥٠) Sophronius of Jerusalem, Anacreontica 19, 20 - Extracts, in Jerusalem Pilgrims, pp. 91-92 .

(٥١) Theodosius, The Topography of the Holy Land, in Jerusalem Pilgrims, p. 79 .

(٥٢) Hugeburc, Life of st. Willibald - Extracts, in Jerusalem Pilgrims, p. 131 .

(٥٣) Jerusalem Pilgrims, p. 141 .

(٥٤) Piacenza Pilgrim, p. 88 .

(٥٥) Michaud, Histoire de Croisade, (Paris 1877), Tom, I p. 8 .

(٥٦) Runciman, "The Pilgrimages", p. 70; Alphandéry, La Chrétienté, p. 14 .

(٥٧) An Anonymous "Life of Constantine", in Jerusalem Pilgrims, p. 202 .

(٥٨) Ibid, p. 42 .

(٥٩) An Anonymous, "Life of Constantine", pp. 202-204 .

أنظر أيضا : رأفت عبد الحميد ، الدولة والكنيسة ، جـ٢ (دار المعارف ، ١٩٨٢) ، ص١١٧-ص١١٨ .

(٦٠) Runciman "The Pilgrimages", p. 70; Alphandéry, La Chrétilnté, p. 10 .

ويذكر رنسمان ان عدد هذه النزل المعدة لاستقبال حجاج الغرب قد وصل إلى حوالى ثلاثمائة مع مطلع القرن الخامس الميلادى .

(٦١) القديس جيروم من آباء كنيسة القرن الرابع المتأخر وبداية القرن الخامس . وهو سليل عائلة مسيحية ولكن تعليمه كان كلاسيكيا ، وبفضله تمكن من ترجمة الكتاب المقدس إلى اللاتينية ، وهى الترجمة التى عرفت باسم "النسخة الشعبية Vulgata" لأنها كتبت باللاتينية الدارجة . مارس حياة النسك والرهبنة وهو فى أواسط عمره ، ثم عاد إلى القسطنطينية . وفى شيخوخته استقر بمدينة بيت لحم فى فلسطين حيث أكمل ترجمته اللاتينية للكتاب المقدس . وله خطابان عن تجربة الحج التى قامت بها سيدتان نبيلتان من روما قابلهما فى أنطاكية وصحبهما فى رحلة الحج التى وصفها فى هذين الخطابين ، أنظر :

St. Jerome, Leter 108 to Eustochium - Extracts. in Jerusalem Pilgrims, pp. 47-52 .

(٦٢) Runciman, "The Pilgrimages", p. 70 .

(٦٣) Jerusalem Pilgrims, p. 1; Mayer, The Crusades, p. 13 .

(٦٤) Runciman, op. cit, pp. 71-75.

(٦٥) Alphandéry, La Chétienté, pp. 18-19; Brundge, Med. Canon Law, pp. 5-7 .

(٦٦) Runciman, op. cit., pp. 70-71; Jerusalem pilgrims, p. 3.

(٦٧) Breviarius of Jerusalem, Pilgrims, pp. 59-61 .

وأحد هذه الكتب يبدأ بأبيات من الشعر تقول :

إذا كان هناك من أهل الغرب من يريد الذهاب إلى أورشليم ، فليذهب باتجاه الشرق ولسوف يجد أماكن الصلاة في أقليم القدس كما هي موصوفة هنا .

(٦٨) سورة الحج : آية ٢٧ "وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق".

(٦٩) Michaud, Histoire, I. p. 15 .

(٧٠) Jerusalem Pilgrims, pp. 137-38 .

(٧١) Brundage, Med. Canon law, pp. 7-8; Cantor, Med. Hist., p. 172

والواقع أن الحج كوسيلة للتكفير قد عرف فى الشرق المسيحى منذ وقت مبكر ؛ فالقديس ماركيانوس St. Marcianus (القرن الخامس) كان يقنع العاهرات التائبات بالذهاب إلى القدس كى تكفرن عن ذنوبهن . وفى القرن السادس يحكى لنا ميخائيل السريانى عن أن بعض أهل الرها الذين ارتكبوا جريمة التجديف فى حق الرب ، وفرض عليهم الصوم "وعندما ثابوا إلى رشدهم ارتدوا السواد حزنا على ماحدث ، وذهبوا جماعة إلى القدس" ، أنظر : . Jerusalem Pilgrims, p. 43

(٧٢) يبدو أن أهم حافز على الحج إلى القدس كان هو السعى إلى الكمال ، وهو أمر يمكن السعى وراءه بالذهاب إلى الأماكن التى تجلت فيها أعمال الرب العظيمة وعبادته هناك .. ومن ثم كان الحاج يتوقع أن يكرس نفسه للرب من جديد ، وأن يبدأ حياة جديدة . وكانت هذه الرحلة بداية لحياة النسك والزهد لكثير من الحجاج . أنظر : Jerusalem Pilgrims, p. 42 .

(٧٣) Benjamin W. Wheeler, "The Reconquest of Spain before 1095", in Setton (ed.), Hist. of the Crusades, vol. I., pp. 33-34 .

(٧٤) Jerusalem Pilgrims, p. 43 .

(٧٥) Michaud, Histoire, Tom. I, p. 8.

(٧٦) Mayer, The Crusades, p. 28 .

(٧٧) يحكى لنا التاريخ قصة راهب يدعى ريتشارد كان يقف على أبواب المدن الإسلامية بفلسطين يحتفل بالقربان المقدس ، ويستفز المارين من المسلمين بشكل جلب عليه المهانة والأذى ، وهو أمر

كان يرضيه تماما ظنا منه أنه يكسب مجده وخلاصه بمعاناة كافة صنوف الأذى فى سبيل يسوع المسيح ، أنظر :

Michaud, op. cit., Tom. I, p. 13 .

وحول هذا الموضوع بشكل عام ، أنظر :

Brundage, Med. Canon law, p. 8; Mayer, op. 13-14 .

(٧٨) Runciman, "The pilgrimages", pp. 74-75; Ernle Brad ford, The Sword and the S Cimitar - The Saga of the Crusaders, (London, 1974), pp. 13-14 ; Michaud, Histoire,

Tom I, p. 14 .

(٧٩) شهد عهد الحاكم بأمر الله الفاطمى بعض الاضطرابات فى علاقة الدولة بأهل الذمة من المسيحيين واليهود ، ولكن هذه الفترة الطارئة لاتغير من الحقيقة القائلة بأن العصر الفاطمى كان يعتبر العصر الذهبى بالنسبة لأهل الذمة ، أنظر عن هذا الموضوع :

قاسم عبده قاسم ، أهل الذمة فى مصر العصور الوسطى - دراسة وثائقية (دار المعارف ١٩٧٧م) ص٥١ - ص٥٦ .

(٨٠) Runciman, op. cit, p. 75; Alphandéry, La Chrétienté, p. 20 .

(٨١) عن الحركة الكلونية أنظر :

Hoyt and Chodorow, Europe in the Middle Ages, pp. 284-85 and passim .

(٨٢) Mayer, The Crusades, p. 14; Michaud, Histoire, tom. I, pp. 13-14; Brundage, Med. canon law, p. 9; Bradford, The Sword, pp. 15-16 .

(٨٣) بدأت رحلات الحج الروسية ، مثلا ، عقب تحول الروس إلى المسيحية قرب نهاية القرن العاشر ، أنظر :

Saewulf (1102-1103), in : Palestine Pilgrims' Text Society, (transl. by The Right Ravd. The Bishop of Clifton - London 1896), vol. IV, pp. iii-v .

(٨٤) Rodulf Glaber, History - Extracts, in Jeruslem Pilgrims, p. 147 .

وأنظر أيضا الترجمة الكاملة للنص فى ملاحق هذه الدراسة .

(٨٥) أنظر ترجمة بعض هذه النصوص فى الملاحق .

(٨٦) Michaud, Histoire, tom. I, pp. 15-16; Cowdrey, "The Genesis of the Crusade", p.

23 .

(٨٧) Aephandéry, La Chrétienté, pp. 24-25 .

(٨٨) Ibid., pp. 25-26 .

(٨٩) Runciman, "The Pilgrimages", p. 77; Brundage, Med. Canon law p. 9.

(٩٠) من اللافت للنظر أن جميع المؤرخين المعاصرين للحملة الأولى يستخدمون كلمة Peregrinos (أي حاج) للدلالة على أفراد الحملة الصليبية أنظر على سبيل :

Gesta Francorum, pp. 18, 29 and passim; Fulcher of Chartres, pp. 71. 81, and passim .

(٩١) Mayer, The Crusades, pp. 13-15 .

(٩٢) William of Tyre, A History of Deeds Done Beyond the Sea, (transl. and annonated by : Emily Atwater Babcock, and A.C. Krey. Columbia University Press 1943), vol. 1, pp. 80-81; Chronique de Michel le Syrien Patriarche Jacobite d'Antioche - 1166-1199, (Editée et traduite par J.B. Chabot, Paris 1889-1910), III, p. 182 .

(٩٣) T.S.R. Boase, Kingloms and strongholds of the Crusaders, (Thomas and Hudson, London 1971), p. 16 .

(٩٤) أنظر على سبيل المثال :

Sumberg, La Chanson d'Antioch, pp. 146-154, 156 and passim; Paul Meyer "Fragment d'une Chanson d'Antioche en Provincal" Archives de l'Orient Latin, tom. II, pp. 466-509 .

(٩٥) أنظر : L'An mile - oeuvres de : Luitprand, Raoul Glaber, Ademar Chabannes, Adalberon, et Helgaud, (tranduites et présentées par : Edmond Pognon ; Gallimard 1947, Tours-France); Mayer, The Crusades, pp. 12-13 .

(٩٦) فى الترجمة اللاتينية التى أعدها جيروم للكتاب المقدس استخدم مصطلح Peregrinis بمعنى "غريب" أو "مسافر" أو "أجنبى" ، كما استخدمت كلمة Peregrinatio للدلالة على المعنى نفسه دونما تحديد قانونى للمسافر الذى يرحل إلى مكان مقدس لأغراض دينية ، أنظر :

Brundage, Medieval Canon law, pp. 3-4 ..

ومنذ الحملة الصليبية الأولى حتى نهاية القرن الثانى عشر ظل هذا المصطلح يستخدم للدلالة على كل من الصليبى والحاج العادى . ثم ظهرت مصطلحات محدودة مثل Crusesignatus للدلالة على الصليبى ولكن مصطلح Peregrinus ظل يستخدم طوال القرنين الثانى عشر والثالث عشر Ibid, pp. 30-31

(٩٧) Sumberg, La Chanson d'Antioche, 318.

(٩٨) Brundage, Med. Canon law, pp. 10-11; Boase, Kingdoms and Strongholds, p. 16; Riley - Smith, The Crusades, p. 1.

(٩٩) لم تصلنا القوانين التى أصدرها مجمع كليرمون فى أية صيغة رسمية ، وإنما وصلت من خلال مجموعات خاصة بالمراسيم البابوية تحوى النصوص الكاملة لبعض المراسيم ونبذا من بعض المراسيم الأخرى ، ومعها الملاحظات التى كتبها المشاركون ، أنظر :

Riley - Smith, The Crusades, p. 37 .

ويقول نص المرسوم " إن من يذهب إلى أورشليم لتحرير كنيسة الرب ، بدافع من الإخلاص فقط وليس سعيا وراء المجد أو طلبا للمال ، يمكنه أن يستعيض بهذه الرحلة عن أى عمل يكفر به عن خطاياه" .

R. Somerville, The councils of Urban II. 1. Decreta Claromon-tensia (Annuarium Histoirae Conciliorum. Supplmentum 1. Amesterdam, 1972), p. 74 .

(١٠٠) Bradford, The Sword, p. 31; Brundage, op. cit., p. 32 .

والجدير بالذكر أن هذا هو ماحدث لستيفن كونت بلوا وشارتر ، أنظر :

Gesta, pp. 63-65; William of Tyre, pp. 239-240 .

(١٠١) أنظر ، كانتور ، التاريخ الوسيط ، ص١٨٠ – ص١٨١ .

(١٠٢) أنظر مثلا حروب شارلمان ضد السكسون والسلاف وغيرهم :

سعيد عاشور ، أوربا العصور الوسطى (الطبعة الخامسة ، الأنجلو المصرية ١٩٧٥م) ، جـ١ ، ص١٨٩ – ص١٩٢ ؛

Hoyt and Chodorow, Europe in the Middle Ages, pp. 151-6'; Cantor, Med. Hist. pp. 196-200, 209-210 .

(١٠٣) Brundage, "Holy War", p. 103; Riley-Smith, The Cru-sades, p. 9; Cowdrey, "The Genesis", p. 18; E. Bradford, The Shield and the Sword - The Knights of St. John, (E.P. Dut-ton and Co. New York 1973), p. 13-14 .

وعن حكم أسرة أوتو أنظر : عاشور ، أوربا العصور الوسطى ، جـ١ ، ص٢٧٦ ، ص٣١٣ ؛ كانتور، التاريخ الوسيط ، ص٣٥٥-ص٣٦٧ .

(١٠٤) Cowdrey, Op. Cit., p. 18.

(١٠٥) الإله فودين Woden ، أو فودان Wodan كبير آلهة الجرمان ، وهو الذى أشار اليه تاكيتوس فى كتابة تحت اسم ميركورى Mercury وقد حفظت اللغة الإنجليزية ، ذات الأصل الجرمانى ، اسم هذا الإله فى يوم الأربعاء Wedensday ، أنظر :

Tacitus, Germania, (transl. by : H. Mattingly, Penguin 1979), pp. 108-109 .

(١٠٦) كانتور ، التاريخ الوسيط ، ص٣٣٩- ص٣٤٤ ؛ أنظر أيضا :

The Penguin Book of the Middle Ages, by Morris Bishop (1971) pp. 85-ff .

(١٠٧) كانتور ، التاريخ الوسيط ، ص٣٤٠- ص٣٤٢ ؛ وأنظر نموذج لوثيقة إقطاعية يعلن فيها أحد الفرسان ولاءه لسيده الإقطاعي ، حررها أحد رجال الكنيسة :

Cantor (ed.) The Medieval World 300-1300 (2nd. ed. Macmillan, London 1968), pp. 174-176.

(١٠٨) Riant, "Inventaire critiques", AOL, I, pp. 20-25; Riley- Smith, The Crusades, pp. 7-8 .

(١٠٩) Einhardt, The life of Charlemagne (Penguin ed. two lives of Charlemagne, 1969, pp. 26-28 ; Ullmann, Med. Poltical Thought, pp. 66-73 .

(١١٠)أنظر الدراسة القيمة التى قام بها الأستاذ الدكتور جوزيف نسيم حول هذا الموضوع .

"أنشودة رولان ، قيمتها التاريخية وما أثير حولها من جدل ونقاش" ، ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط ، العدد الأول ، ١٩٨٢ ، ص٧٧- ص١٠٤ ؛ قاسم عبده قاسم ، "الشعر والتاريخ ، دراسة تطبيقية على شعر الحركة الصليبية" ، الموسم الثقافى ١٩٨٢ - ١٩٨٣م للجمعية التاريخية المصرية ، (تحت الطبع) .

(١١١) Painter, S. "Western Europe on the Eve of the Crusades", in : Setton (ed.) Hist. of the Crusades, vol. I, pp. 23-29 .

(١١٢) أحرز رهبان كلونى شهرة فائقة فى هذا المجال . وكان الملوك والنبلاء فى شتى أنحاء أوربا ، والذين أخذوا تعاليم الكنيسة مأخذ الجد وحرصوا على ضمان الخلاص لهم ولأقاربهم ، يغدقون

الهبات الضخمة على هذا الدير حتى ترد أسماؤهم فى الصلوات الكلونية ، أنظر : كانتور ، التاريخ الوسيط، ص٣٦٨–ص٣٧٤ .

وعن الحركة الكلونية عموما ، أنظر :

Barraclough, Med. Papacy, pp. 65-74; Hoyt and Chodorow, Europe in the Midl-le

Ages, pp. 284-85 .

(١١٣) أنظر نص هذه الوثيقة :

Brian Tierney (ed.), The Middle Ages, vol. 1 : Sources of Medieval History (3rd ed.

A. Knopf, New 1978) p. 136 .

(١١٤) Runciman, A hist of the Crusades, vol. 1, pp. 84-85 .

(١١٥) Ibid., vol. 1, p. 85 .

(١١٦) Ibid., vol. I, p. 86 .

(١١٧) Mayer, The Crusades, p. 17 .

(١١٨) Runciman, A hist., vol. I, p. 86; Russel, The Just War, p. 34 .

(١١٩) أنظر نص هذه الوثيقة فى ملاحق الدراسة ، وكذلك :

Tierney (ed.) The Middle Ages, vol. I, pp. 136-37 .

(١٢٠) أنظر النص فى ملاحق الدراسة ، وكذلك :

Norman F. Cantor (ed.), The Medieval World, 300-1300, (London 1968) , pp. 183-86 .

(١٢١) Charies T. Wood, The Age of Chivalry - Manners and Morals 1000-1450 (Weidenfield and Nicolson, London 1970), pp. 99-100; Mayer, The Crusades, pp. 16-17;

Russell, The Just War, 34 .

(١٢٢) Runciman, A hist., vol. I, p. 87 .

(١٢٣) عن حياة الفرسان وتدريبهم أنظر :

Bishop, The Penguin Book of the Middle Ages, pp. 85-121; Wood, The Age of Chivalry, pp. 99-100; Sidney Painter, History of the Middle Ages (London 1953), pp. 118-22 .

(١٢٤) أنظر خطبة جيوبرت فى :

Historia quae dicitur Gesta Dei per Francos, RHC. Oc., IV, pp. 137-4 .

أنظر الترجمة الإنجليزية فى :

Riley-Smith (ed.) The Crusades, pp. 45-49.

وكذلك فى :

Edward Peters (ed.), The First Crusade, pp. 10-15.

(١٢٥) عن المجتمع الإقّطاعى أنظر :

Marc Bloch, Feudal Society (The University of Chicago Press, 1961), pp. 62-87;

Bishop, The Penguin Book of the Middle Ages, pp. 123-129; Hoyt and Cho-

dorow,

Europe in the Middle Ages, pp. 212-27 .

أنظر كذلك : كانتور ، التاريخ الوسيط ، ص٣٣١- ص٣٣٤ .

(١٢٦) الأغنية عنوانها "أنتم يا من تحبون الحب الحقيقى "Vos qui ameis de vraie amour

أنظر : J. Bédier and Aubry, Les chansons des Croisades, pp. 20-22 .

أنظر نص الترجمة العربية مع النص الفرنسى القديم فى ملاحق الدراسة .

(١٢٧) Cowdrey, "The Genesis", pp. 22-23; Riley-Smith, The Crusades, p. 10 .

(١٢٨) ظل حكام الأندلس الأمويون ، قبل عبد الرحمن ، يلقبون بالأمراء . ولم يتخذ أحدهم لقب خليفة. ويبدو أن النجاح الكبير الذى صادف عبد الرحمن فى المجال العسكرى من ناحية ، وتدهور الخلافة العباسية فى بغداد من ناحية أخرى ، قد شجع عبد الرحمن الثالث على اتخاذ لقب الخليفة ، فسمى نفسه "أمير المؤمنين الناصر" ، أنظر : عاشور ، أوروبا العصور الوسطى ، جـ١ ، ص٥٢٠- ص٥٢١ .

(١٢٩) Runciman, A hist. of the Crusades, vol. I, pp. 88-90 .

(١٣٠) Cantor, Medieval History, pp. 319-319 .

(١٣١) تفضل الأستاذ الدكتور محمود مكى ، أستاذ الأدب الأندلسى بجامعة القاهرة ، مشكوراً ، بترجمة هذا النص وغيره من الكتاب المشار إليه . كما أن مناقشات عديدة معه أفادتنى كثيرا فى كتابة هذا الفصل ، فله منى الشكر والتقدير .

(١٣٢) Americo Castro, La realidad historica de Espana, pp. 407-20 .

ويؤكد رأيه كل من ستيفن رنسمان (Ahist. of the Crusades, I, p. 92)

ونورمان كانتور (op. cit., pp. 319-20) ويرونداج (Holy War, p. 103)

(١٣٣) Angus Mackay, Spain in the Middle Ages-From Frontier to Empire, 1000-1500 (Macmillan, London 1979), p. 31-32 .

(١٣٤) فى سنة ١٠٦٣م قتل راميرو الأول Ramiro ، ملك أرغونه ، وهو يستعد للخروج بجيشه لمهاجمة المسلمين ، وقد ألهب مقتله خيال أوربا ، ودعا البابا إلى إكمال عمله ، وتجمع جيش نورمانى ، وآخر من شمال فرنسا ، وثالث من أقطانيا بقيادة جى جيوفرى Guy-Geoffrey لهذا الغرض . ولكن الحملة لم تحقق سوى قدر يسير من النجاح . . Runciman, A hist., vol I, pp. 90-91 .

(١٣٥) AOL, tom. I, pp. 61-62 .

(١٣٦) فى خطاب من أربان الثانى إلى برنجار كونت برشلونه ومجموعة أخرى من النبلاء والأساقفة فى كل من تراغونه وبرشلونه ، بتاريخ أول يوليو ١٠٨٩م ، يمنح البابا كل أولئك الذين يعتزمون القيام برحلة حج إلى الأرض المقدسة الحق فى أن يستبدلوا مشاق الرحلة ومصروفاتها ، بالتعاون فى إعادة بناء مدينة تراغونه وكنيستها ، أنظر : . AOL, I, pp. 68-71

(١٣٧) أنظر ما سبق فى هذا الفصل .

(١٣٨) Angus Mackay, Spain in the Middle Ages, pp. 29-31 .

(١٣٩) سورة البقرة : آية ٢١٦ .

(١٤٠) سورة البقرة : آية ٢٤٤ .

(١٤١) عن هذا الموضوع ، أنظر : عطية عبد الرحيم عطية ، عدة المجاهدين فى الكتاب والسنة (المجلس الأعلى لرعاية الشئون الإسلامية ، القاهرة ١٤٠٠هـ/١٩٧٩م) .

(١٤٢) سورة الحج : آية ٣٩ .

(١٤٣) سورة آل عمران : آية ١٦٩ – ١٧٠ .

الفصل الثاني

الحركة الصليبية بين الإيديولوجية والمجتمع

الدوافع والأسباب

مشكلة السببية فى التاريخ - طبيعة الحركة الصليبية - المجتمع الأوربى عشية الحروب الصليبية (البناء الاجتماعى - الأحوال الاقتصادية - الزراعة والريف - المدن الناشئة - المناخ الفكرى - التدين الشعبى - سيطرة الفكر الأخروى) القوى الاجتماعية الأوربية ودوافعها إلى المشاركة فى الحملة الصليبية (الكنيسة وأهدافها : توحيد كنيستى الشرق والغرب تحت زعامتها - تأكيد السمو البابوى فى الغرب - النبلاء وأهدافهم : عسكريا واجتماعيا - دوافع الفلاحين والعامة) - ملاحظات ختامية .

قليلة هى تلك الظواهر التاريخية التى كان نصيبها من الخيال مماثلا لنصيب تلك الظاهرة المعروفة باسم "الحركة الصليبية" . ففى فترة رحيبة من الزمان ، وعلى مدى عشرات السنين ظل الشرق العربى المسلم والغرب اللاتينى الكاثوليكى فى حال من التصادم والتفاعل فى غمار "الحروب الصليبية" ، التى كانت مظهرا من المظاهر العديدة للحركة الصليبية ككل . فى هذه المساحة الزمنية الممتدة ، وحولها ، نسجت روايات وقصص تاريخية وخيالية كثيرة ، ومنذ دارت عجلة الأحداث لتعلن عن مولد هذه الظاهرة ، وحتى الآن ، ماتزال أقلام تسطر بحوثا ودراسات حول الحركة الصليبية . لقد صيغت أساطير كثيرة حول أبطال هذه الحروب وأحداثها ، وأنتجت قرائح الشعراء عديدا من القصائد والأشعار والملاحم حول أشخاص ووقائع هذه المواجهة الطويلة المضنية . وتمثلت نتيجة هذا كله فى تراث أدبى ضخم وهائل . وفى خضم هذا التراث المتراكم عبر العصور ؛ حيث تختلط الحقيقة بالخيال ، ويمتزج الفن بالتاريخ ، وتتزاوج الأسطورة والدين مع الواقع التاريخى ، تبدو مشكلة السببية فى التاريخ مشكلة محيرة بحق .

فمن الأمور التى يتفق المؤرخون عليها ، أن الظاهرة التاريخية لاتنبت من فراغ ولاتظهر فجأة من غياهب المجهول ؛ وإنما هى نتاج تفاعل مستمر ومتواصل ، عبر الزمان ، لمجموعة من العوامل والعلل والأسباب والكيفيات . فإذا ما تم التفاعل ، وباتت الظروف التاريخية مواتية، تجلت الظاهرة على مسرح التاريخ . وهذا هو ما يجعل مشكلة السببية من أهم مشكلات البحث التاريخى . فليس بمقدور أحد من المؤرخين أن يرصد كافة الأسباب والدوافع

وراء ظاهرة تاريخية ما ؛ ولكن كل مؤرخ يحاول بمنهجه الاستردادى أن يرصد الأسباب التى تتبدى واضحة له . وهنا يكون محكوما بخلفيته الثقافية وموقفه الفكرى . ولعل هذا يفسر لنا السبب فى اختلاف مدارس التفسير التاريخى فى عصرنا الحديث . ولأن المؤرخ اليوم مطالب بأن يجيب على السؤال الذى يبدأ بكلمة "لماذا" ، بدلا من أن يحكى لنا "ماذا" حدث ، فإنه سوف يسعى بالضرورة وراء الدوافع والأسباب .

والحركة الصليبية مثال جيد للدلالة على صدق هذه المقولة . فقد أوضح المؤرخون اللاتين الذين عاصروا الحركة الصليبية منذ بدايتها أن هذه الحركة كانت نتاجا لمجموعة عوامل معقدة للغاية[١] . كما أن هذه الحركة نفسها كانت ظاهرة بالغة التعقيد ؛ ومن ثم فإن أية محاولة لتفسيرها أو شرحها فى ضوء عامل واحد : مثل الحماسة الدينية ، أو جوع زعماء الصليبيين إلى الأرض ، أو الأحوال الاجتماعية والاقتصادية القاهرة التى عانى منها الفلاحون ، أو رغبة التجار فى الحصول على الامتيازات التجارية ، أو مآرب البابوية السياسية .. أو غيرها - هذه المحاولة سيكون مآلها الفشل ؛ على الرغم من أن كل دافع من هذه الدوافع كان واضحا فى الحركة الصليبية بالفعل . ومن ناحية أخرى ، فليس بمقدورنا أن نميز بخط فاصل بين أهداف الزعماء وأهداف العامة ، الذين أسمتهم المصادر المعاصرة "الحجاج الفقراء" ؛ لأن كلا من الفريقين قد أظهر من دلائل التدين ، ومن مظاهر الطمع الدنيوى ما يجعلنا نتخبط فى حيرة إذا وضعنا أنفسنا رهن التصور الساذج بأن تصرفات كل فريق من المشاركين فى الحملة الصليبية الأولى كانت تسير على نهج واحد ، وتتميز بالاتساق والانسجام والتوافق . فقد كان الصليبيون هم أبناء الغرب اللاتينى الذين تحمسوا لحمل شارة الصليب بعد خطبة أربان الثانى فى كليرمون سنة ١٠٩٥م[٢] ، كما كانوا هم الذين عاثوا فسادا فى الطريق صوب القدس ، ونهبوا وأحرقوا المدن والقرى المسيحية فى المجر والبلقان [٣]. وكانوا هم الذين وصمتهم آنا كومنينا بالجشع وحب المال[٤]. كذلك كانوا هم الذين بدأوا فى نهب وحرق قصور مدينة القسطنطينية بالشكل الذى أغضب الإمبراطور البيزنطى فأمرهم بعبور المضيق إلى آسيا الصغرى[٥] . كان أولئك الصليبيون هم الذين ألهبتهم الحماسة الدينية بعد أن أضناهم الحصار فى أنطاكية بسبب ما أشيع بينهم عن العثور على الحربة التى طعن بها المسيح عليه السلام ، كما كانوا أصحاب السمعة السيئة فى عدم الوفاء بعهود الأمان التى يقطعونها ، وهم الذين أشاعوا عن أنفسهم قصص الرعب وذبح البشر وأكلهم بعد شيهم على النيران[٦] . كان الصليبيون هم الذين ارتكبوا أبشع المذابح بعد اقتحام بيت المقدس ، ثم ذهبوا لكى يؤدوا صلاة الشكر فى الضريح المقدس بوجوه تنطق إرهاقا وأياد تقطر دما .

هذا التناقض فئ سلوكيات الصليبيين يوازيه تناقض آخر فى انتماءاتهم الاجتماعية وأفكارهم ودوافعهم ، فقد كانوا خليطًا غريبا من المغامرين والأتقياء ، من الحجاج واللصوص، من الجنود وشذاذ الآفاق ، من النبلاء والفلاحين ، من المثاليين والهاربين من العدالة ، من الباحثين عن الثروة والباحثين عن خلاص أرواحهم .. كانوا رجالا ونساء وأطفالا وشيوخا من شتى الطبقات ومختلف المشارب تحركهم مجموعة متناقضة ومتداخلة من الأهداف والدوافع .

والظاهرة الصليبية تمثل مشكلة فى مجال التفسير التاريخى . ففى الحركة الصليبية ، كما فى الحياة فى أوربا العصور الوسطى عموما ، يواجه المؤرخ خليطا مذهلا من التقوى والوحشية قد تحول تناقضاتها الصارخة دون أية محاولة لفهمها . وهى مثل أية ظاهرة تاريخية أخرى ، لأنها فى حقيقة أمرها مجموعة من الأفعال الجزئية لمئات وآلاف الأفراد . وإذا كان ثمة هدف عام تتحرك هذه الجموع البشرية فى اتجاهه ، فإن عمومية هذا الهدف لاتمنع من أن تكون لدى كل طبقة اجتماعية دوافعها الخاصة ، بل وأن تكون لكل فرد أهدافه الشخصية . ومن ثم فإن أية محاولة لقولبة الدوافع فى الظاهرة التاريخية داخل إطار فكرة مسبقة سيكون مآلها الفشل والإخفاق . فالسببية ، كما ذكرنا ، من أهم وأعقد مشكلات البحث التاريخى . ذلك أن طبيعة الظاهرة التاريخية تجعل الزمن عنصرا أساسيا فى تكوينها ؛ وهو مايعنى تداخل الماضى فى الحاضر بشكل يصعب تحديد مداه من ناحية ، وتغلغل أسباب ودوافع وعلل هذه الظاهرة التاريخية فى أعماق الزمن من ناحية أخرى . كذلك فإن الظاهرة التاريخية لاتظهر بين عشية وضحاها ، ويترتب على ذلك ماسبق أن قررناه من استحالة إحصاء الدوافع والأسباب وراء الظاهرة التاريخية بشكل جامع شامل .

وفيما يتعلق بالحركة الصليبية ، تبدو مشكلة السببية أكثر وضوحا بسبب الطبيعة المحيرة المربكة لهذه الظاهرة ؛ فقد كانت حركة دينية بقدر ما كانت حركة سياسية ، كما كانت حركة اجتماعية اقتصادية مثلما كانت حركة فكرية وعسكرية .

وإذا كنا قد أشرنا ، فى الفصل السابق ، إلى مسار تكوين الإيديولوجية الصليبية وروافدها الأساسية ؛ فإننا يجب أن نشير إلى أن الهدف الإيديولوجى العام والمعلن شئ ، والأسباب والدوافع الحقيقية شئ آخر . ذلك أنه فى فترة الإعداد للحرب عادة ما يكون التركيز على الهدف الإيديولوجى بقصد الحصول على التأييد الشعبى العام ، وليست هناك إيديولوجية يمكن أن تجتذب جموع الناس مثل الإيديولوجية التى تقوم على أساس دينى ، أو ترتدى مسوح الدين ، على الرغم من أن الدوافع الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ؛ بل والأهداف

الشخصية ، قد تكون فى حقيقتها دوافع أكثر أهمية من الدافع الذى يحظى بمثل هذا الانتشار. وفى الحركة الصليبية تمت صياغة الإيديولوجية على أساس دينى . والحركة الصليبية مثال جيد على الاختلاف بين الهدف الإيديولوجى المعلن للحرب ، والدوافع والأسباب الحقيقية التى تعتبر المحرك الفعال لعجلة الحرب لتحولها إلى واقع ملموس . ففى غمار الحماسة والإثارة والحرارة التى صاحبت خطوات الإعداد للحرب ، منذ خطبة أربان فى كليرمون حتى تحرك الجيوش على الطريق إلى القدس والأرض المقدسة ، كان التركيز على الدافع الإيديولوجى كبيرا[٧] فقد تحدث أربان فى خطبته عن أن الحرب ستكون فى سبيل الرب ، ولإنقاذ ضريح المسيح . وفى الروايات المختلفة التى وصلتنا عن هذه الخطبة ترددت عبارات كثيرة من الأناجيل توحى بأن الحرب فى سبيل الرب وشعب الرب[٨] . كذلك فإن لدينا مجموعة من الخطابات التى أرسلها البابا بعد كليرمون إلى شتى أنحاء الغرب الأوربى تحمل مزيدا من الدعاية للحملة المقترحة باعتبارها حربا أمر بها الرب . ولدينا وثيقة عبارة عن خطاب من أربان الثانى إلى الصليبيين فى أقليم الفلاندر ، وهو بتاريخ ديسمبر ١٠٩٥ ، يحمل تعليمات البابا فى مصطلحات تؤكد على الجانب الدينى فى الحرب المقترحة[٩] . ولدينا ثلاثة خطابات أخرى من سجل أربان الثانى أولها عبارة عن خطاب إلى أتباعه فى بولونا بتاريخ ١٩ سبتمبر ١٠٩٦ ، والثانى خطاب موجه إلى الرهبان فى فالومبروسا Vallombrosa تاريخه ٧ أكتوبر ١٠٩٦ ، أما الثالث فتاريخه على ما يرجح يعود إلى الفترة ما بين يناير ١٠٩٦ ويوليو ١٠٩٩ ، موجه إلى بعض الكونتات وفرسانهم حول الحملة المقدسة[١٠] . هذه الخطابات لم تكن هى الوسيلة الوحيدة للدعاية البابوية التى تنوعت وسائلها كما سنرى فى الفصل الثالث ، ولكن ما يهمنا هنا هو أن نشير إلى أن الحركة الدعائية قد ركزت على الجانب الإيديولوجى القائم على أسس دينية .

وعندما أخذت عجلة الحرب فى الدوران ، بدأت تظهر الأهداف والدوافع الحقيقية التى كانت متوارية خلف غبار الضجة الإعلامية للحرب . لقد تمت صياغة الإيديولوجية الصليبية على أساس دينى واضح ، وبهدف تخليص الأماكن المقدسة من أيدى المسلمين . فهل كان الهدف الدينى الذى تمت على أساسه هذه الصياغة الإيديولوجية هو الدافع الوحيد لهذه السلسلة من الحروب والحملات التى شغلت رقعة فسيحة من الزمان ؟ هذا ما سوف نحاول دراسته فى هذا الفصل .

إذا كان بعض المؤرخين يعتبرون أن الحركة الصليبية كانت هى العامل الأساسى فى التغير التاريخى فى أوربا منذ القرن الحادى عشر حتى القرن الثالث عشر ؛ فإننا لانستطيع أن نوافق على هذا الرأى . حقيقة أن الحركة الصليبية قد لعبت دورا فى تطور أوربا ، ولكن هذا الدور كان محدودا بحيث لايمكننا أن نقول إنها كانت من العوامل المؤثرة فى صياغة الحياة الأوربية آنذاك . وإذا ما تذكرنا أن الحركة الصليبية نفسها كانت نتاجا للتفاعلات التى أخذت تجرى على أرض الواقع الأوربى منذ القرن الحادى عشر ، وربما قبل ذلك بصورة أقل وضوحا ، لأدركنا أن هذه الحركة لم تكن عاملا سببيا قويا فى تطوير أوربا . إذ أن تأثير الحركة الصليبية لم يكن كافياً لتغيير اتجاه التطور فى نظم الحكم والسياسة والاقتصاد والثقافة الأوربية آنذاك ، وهو تطور كانت الحركة الصليبية إحدى ثماره . بل إن القرن الثالث عشر ، شهد بداية إهمال أوربا للمثال الصليبى بسبب المشكلات الجديدة التى استغرقت جهود الأوربيين فى مجال الحكم والاقتصاد والفكر . والحركة الصليبية فى تصورنا كانت تعبيرا عن نماذج أساسية من الفكر والسلوك فى الغرب الأوربى فى تلك الآونة ؛ فهى تكشف النقاب عن الناس فى أوربا العصور الوسطى فى أفضل أحوالهم وفى أكثرها سوءا على حد سواء . هذه الحركة كانت بمثابة مسرح كبير تجلت فوقه خصائص أهل العصور الوسطى وخصالهم بصورة رائعة . وهذا هو السبب فى اهتمامنا برصد الدوافع والأسباب التى حركت أولئك الناس لشن تلك السلسلة الطويلة من الحروب التى عرفت باسم الحروب الصليبية .

هكذا ، إذن ، ينبغى علينا أن نحاول رسم صورة حية للمجتمع الأوربى فى القرن الحادى عشر ؛ بحيث نكشف عن القوى الاجتماعية التى كانت تؤلف هذا المجتمع . لأن الحركة الصليبية بحد ذاتها كانت نتاجا طبيعيا لهذه القوى الفاعلة فى المجتمع الأوربى وتعبيرا عن تفاعلاتها .

كان القرن الحادى عشر فى أوربا بداية لفترة استمرت ثلاثة قرون تجلت خلالها سمات الحضارة الأوربية فى العصور الوسطى بالقدر الذى جعل المؤرخين يصطلحون على تسمية هذه الفترة باسم العصور الوسطى العالية (أو الناضجة) High Middle Ages [11] . فقد كانت تلك الفترة هى عصر الجنود ، والأبطال ، ورجال الدولة ، وزعماء الكنيسة . فى تلك الأثناء كان الفلاحون الباحثون عن أراضى أفضل ، والمهاجرون إلى المدن الجديدة الناشئة ، والتجار المسافرون على الطرق الأوربية ، وشعراء التروبادور المتنقلون بأغانيهم من قلعة إلى أخرى ، والنساك المنسحبون من العالم بإغوائه وشروره ، والمبشرون الجوالون ، والصليبيون ، والحجاج

المتوجهون إلى الأرض المقدسة .. كان هؤلاء وأولئك جميعا بمثابة شهادات حية على أن وجه المجتمع الأوربى الغربى قد بدأ يتغير .

ففى القرنين التاسع والعاشر كانت أوربا فى موقف دفاعى ضد قوى الإنسان والطبيعة على السواء . ولكن الأمر تغير فى القرن الحادى عشر . ويمكن اتخاذ سنة ١٠٠٠ ميلادية كنقطة تحول فى التاريخ الأوربى ؛ فقد بدأ عصر الزيادة السكانية ، التى تسببت فى اضطراب الحياة الاجتماعية : سواء فى الريف أو فى المدن النامية ، وبدأت حركة نشطة لإصلاح الأرض المهملة والبرارى بقصد استزراعها فى شتى أنحاء أوربا الغربية . وبينما كان هناك من يحاولون السعى وراء حظوظهم خارج الحدود . كان هذا القرن والقرن التالى له ، فترة التقدم والابتكار ؛ إذ بدأ الأوربيون يبنون المدن والكاتدرائيات ، كما بدأوا يكونون الثروات ويقرضون الشعر(١٢).. وفى هذا القرن أيضا خرجت الحروب الصليبية .

وقد كانت الحروب الصليبية جزءا من التوسع والنمو الأوربى فى القرى الحادى عشر ، كما أنها أفادت من الشكل الأولى للتنظيم الذى عرفته أوربا آنذاك . وفى غمار هذه الحركة الصليبية عبرت كل قوة من قوى المجتمع الأوربى عن نفسها بطريقة حيوية للغاية. وإذا كانت الخلفية الإيديولوجية التى خرجت منها هذه الحركة قد شدت كافة القوى فى المجتمع الأوربى إليها ، فلا حاجة بنا إلى القول بأن دوافع هذه القوى للمشاركة فى المشروع الصليبى لم تكن دينية فقط . وعلى الرغم من كل ما كتبه المؤرخون الأوربيون ، القدامى منهم والمحدثون ، عن الحج والحرب المقدسة ؛ فإنه سيكون من الخطأ أن نأمل فى تفسير الحركة الصليبية فى ضوء الدين والنفسية الجماعية فقط . ذلك أن الأسباب والدوافع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية؛ بل والدوافع الفردية الخالصة ، قد ساهمت مع الدافع الدينى (الذى كان أقلها أهمية) فى دفع قوى المجتمع الأوربى للمساهمة فى الحملة المقترحة . فما هى تلك القوى الاجتماعية الأساسية فى المجتمع الأوربى عشية الحروب الصليبية ؟

كانت هناك ثلاث طبقات رئيسية فى المجتمع الأوربى آنذاك : فالنبلاء (**الذين يحاربون**) ورجال الكنيسة (**الذين يصلون**) كانوا يشكلون ضلعى المثلث ، ثم المزارعون من الأحرار والأقنان (**الذين يعملون**) الذين كانوا بمثابة قاعدة هذا المثلث الإقطاعى كما تصوره المعاصرون. ولكن الحقيقة أن النبلاء ورجال الكنيسة كانوا بمثابة جناحين (عسكرى ودينى) لطبقة واحدة ، على حين كان الفلاحون هم الطبقة الدنيا . وكان على أبناء هذه الطبقة أن يعولوا أبناء الطبقة الحاكمة بجناحيها العسكرى والدينى (الكنسى) . وقد رسخ هذا التقسيم

الثلاثى بدرجة جعلت المجتمع الأوربى ينكر على سكان المدن الجديدة (Burg أو Bourg) أية مكانة قانونية بين طبقاته ؛ وهو ما جعل البورجوازيين (أى سكان البورج (Burg) يتجهون إلى شراء هذه الحقوق بأموالهم . وكانت هذه الطبقة الجديدة فى المجتمع الأوربى آنذاك تتألف من أفراد جاءوا من خلفية اجتماعية غامضة أو مجهولة . والراجح أن بعضهم كانوا من أبناء الشرائح الدنيا من الفرسان الذين لايملكون أرضا ، والبعض الآخر من المزارعين الأحرار . كما شاع بين الناس فى ذلك الحين أن بعضهم كانوا من الأقنان الذين استطاعوا شراء حريتهم . وكان هؤلاء البورجوازيون يكسبون عيشهم من صناعة المنسوجات ومن التجارة (١٣) .

ومن الناحية الإقتصادية كان النظام الإقطاعى يفرض نوعا من التخصص على طبقات المجتمع ؛ بيد أنه كان تخصصا من نمط بدائى فج . فلم تكن الطبقة النبيلة المحاربة تعمل بالإنتاج ؛ على حين لم يكن مطلوبا من الطبقة المنتجة أن تتخلى عن نشاطها الإنتاجى لكى تشارك الطبقة النبيلة فى أعباء القتال . ولأن الفلاحين الأقنان ، والشرائح الدنيا من المزارعين الأحرار ،وسكان المدن الناشئة ، كانوا بمثابة الأغلبية الساحقة فى المجتمع الأوربى ؛ فقد أتاح ذلك وجودة قوة عمل كبيرة فى ظل النظام الإقطاعى ، ولكن هذا العمل كان قاصرا على الأرض ونتاجها المباشر . ومن ناحية أخرى ، فإن التجارة وحركة البضائع كانت ماتزال ضعيفة بسبب الرسوم والضرائب الإقطاعية العديدة التى فرضها السادة الإقطاعيون ؛ ومن ثم لم يكن هناك مكان للتجار فى الريف الإقطاعى ، وهو مادفع بالتجار إلى سكنى المدن الجديدة . بيد أنه لم يكن ممكنا ضمان الأمن والمكانة الاجتماعية فى المجتمع الإقطاعى سوى فى ظل السُّلَّم الإقطاعى الذى يضم السادة الإقطاعيين وأفصالهم (١٤) .

كان الطابع الريفى هو الغالب على الحياة الأوربية فى القرن الحادى عشر (١٥) . ولذلك كانت أحوال المجتمع الأوربى تتأثر تماما بأحوال الاقتصاد الزراعى (عماد النظام الإقطاعى) . فقد كانت هناك أزمة فى الاقتصاد الزراعى حوالى سنة ٨٥٠ ميلادية ، ثم أخذت هذه الأزمة تشتد وتتصاعد حتى وصلت ذروتها سنة ١٠٠٠ ميلادية تقريبا (١٦) . وتمدنا الحوليات والمدونات التاريخية التى ترجع إلى مطلع القرن الحادى عشر بأوصاف حية للمجاعات التى أنشبت مخالبها فى تلك الأنحاء . هذه المجاعات حدثت نتيجة لفشل الإنتاج الزراعى فى اللحاق بالزيادة السكانية . ويرى مارك بلوك (١٧) أن من السذاجة أن ندعى أننا نفهم الناس فى مجتمع ما ، دون أن نعرف أحوالهم الصحية. بيد أننا مضطرون إلى الاستقراء والاستنباط فى حالة أوربا العصور الوسطى بسبب افتقارنا إلى الأدلة وقصور وسائل البحث . ولاشك فى

أن وفيات الأطفال فى أوربا القرن الحادى عشر (وقبل ذلك وبعده) كانت عالية . وبغض النظر عن أخطار الحروب الإقطاعية ، كانت الحياة فى أوربا آنذاك قصيرة وكئيبة . ومن بين الكثيرين ممن حصدهم الموت فى سن مبكرة ، كان عدد كبير يموت بسبب الأوبئة التى غالبا ما كانت تنشب مخالبها فى المجتمع الذى لم يكن يملك سلاحا فعالا لمقاومتها . كذلك كانت المجاعة وحشا فتاكا آخر يعصف بالفقراء من أبناء هذا المجتمع . فإذا أضفنا إلى هذه الصورة القاتمة أحداث العنف الناجمة عن الحروب الإقطاعية أدركنا مدى انعدام الأمن فى حياة الناس آنذاك . وفى رأى بلوك أن المستوى الصحى المتدنى ، وافتقار المجتمع إلى الأمن كان من أهم أسباب القلق العاطفى الذى تميزت به المجتمعات الإقطاعية فى أوربا عشية الحروب الصليبية .

حقيقة أن الأحوال بدأت تتحسن نسبيا بعد القرن العاشر ، وبدأت فى القرن الحادى عشر حركة من النمو ومحاولات الخروج من الأزمة ، ولكن الصورة لم تتغير كثيرا . ولنفرض أن لدينا آلة تساعدنا على أن نعود القهقرى عبر قرون الصخب والحروب لنلقى نظرة على الريف الأوربى قرب نهاية القرن الحادى عشر ؛ فما الذى سنشاهده هناك ؟

إن أول ما يسترعى انتباهنا هو ذلك العدد الكبير من الغابات التى تجرى إزالتها فى شتى أنحاء أوربا لتوسيع الرقعة الزراعية . فقد كانت الغابات الكثيفة تحيط بالأراضى الزراعية حول القرى فى كل مكان ، باستثناء المناطق ذات الكثافة السكانية المرتفعة . وكانت أصوات فئوس الفلاحين وأصوات المناشير المستخدمة فى إزالة هذه الغابات بمثابة النغمة الدالة على أن أوربا قد بدأت مرحلة جديدة من النمو السكانى ؛ إذ كانت الأشجار تزال لتزرع مكانها المحصولات التى يحتاجها السكان ، كما أن أخشاب هذه الأشجار كانت تستخدم لبناء المساكن الجديدة فى المدن النامية . وعلى حواف الحقول كان الفلاحون يحرقون الأعشاب من وقت لآخر لكى يزرعوا محصولا أو اثنين فى الأرض التى خصبها الرماد . وقد شهد القرن الحادى عشر تحسنا نسبيا فى مجال الزراعة ؛ سواء من حيث زيادة الرقعة الزراعية ، أو من حيث الأدوات التى يستخدمها الفلاحون .

وإذا ما أخذنا فى اعتبارنا النمو السكانى الذى شهدته أوربا فى ذلك الحين ، ولاحظنا أيضا أن غالبية السكان كانوا من الفلاحين ، فإننا يجب ألا نبالغ فى قيمة هذا التقدم النسبى. فالحقيقة أن هذا التحسن الذى طرأ فى مجال الزراعة لم يؤت ثماره فى تحسين أحوال الفلاحين المعيشية ؛ فقد كان المستفيدون قلة من الفلاحين الذين يملكون محراثا ويملكون أيضا الثيران التى تجره . أما الغالبية فلم تتحسن أحوالهم [١٨] .

وعلى العموم ، كانت حياة الفلاحين عابسة وغير آمنة ؛ فقد خربت مساحات كبيرة من الأض الصالحة للزراعة بسبب الغزوات الجرمانية فى الفترة السابقة ، ثم غزوات الفيكنج والمجريين والمسلمين فى القرن العاشر ، فضلا عن الحروب الإقطاعية التى كانت تهدد بتمزيق أواصر المجتمع الأوربى . ومن ناحية أخرى ، كان السادة الإقطاعيون غالبا ما يعارضون محاولة إزالة الغابات والزراعة مكانها ؛ لأن هذه الغابات كانت هى المكان الذى يمارسون فيه رياضة الصيد التى كانت شاغلهم الأساسى فى غير أوقات الحرب والقتال . كما أن القرية التى لم تكن تتمتع بحماية أحد النبلاء الإقطاعيين غالبا ما كانت تتعرض للسلب والنهب على أيدى العصابات الإقطاعية المتحاربة ، بل إن القرى كثيرا ما كانت تتعرض للحرق من جراء الغارات الإقطاعية . وعلى الرغم من أن الكنيسة قد حاولت أن تلعب دورا فى حماية الفلاحين من خلال حركة السلام ، فإن جهودها فى هذا المجال لم تأت بالنتائج المرجوة . إذ أن حركة السلام التى دعت إليها الكنيسة [١٩] لم تكن تحظى بمساندة أى من كبار الأمراء الإقطاعيين ما لم تكن لهذا الأمير مصلحة شخصية فى إقرار السلام [٢٠] .

ومن ناحية أخرى ، كان الناس فى ذلك الزمان أقرب إلى الطبيعة منا فى العصر الحديث ، بمعنى أنهم كانوا تحت رحمتها . فقد كانت الطبيعة أقل استئناسا ونعومة مما تبدو اليوم . فأرض الريف ، التى كانت البرارى والمناطق البور تشكل شطرا كبيرا منها ، كانت دليلا على أن تأثير الإنسان فى الطبيعة ضئيل ومحدود . فالحيوانات المتوحشة ، مثل الدببة والذئاب ، كانت تجوس فى هذه المناطق البرية فى حرية تامة ، بل إنها كانت تتجول بحرية أيضا فى الحقول المزروعة حول القرى . ولما كانت تلك هى الحال فى الريف الأوربى فى تلك الفترة ، فإن الصيد البرى لم يكن رياضة ترفيهية بقدر ماكان وسيلة أمنية ضرورية لحماية الريف ، كما كان الصيد إحدى وسائل الحصول على الطعام أيضا . كذلك كان الناس ما يزالون يلتقطون ثمار الأشجار البرية ، ويجمعون عسل النحل البرى ، مثلما كان الحال فى زمن الإنسان الأول . وكان الخشب هو المادة الرئيسية المستخدمة فى صناعة الأدوات والمعدات . وبسبب الافتقار إلى وسائل الإضاءة ، كانت ليالى الريف فى غرب أوربا أشد ظلمة من ليالى الريف الحالى ، كما كان البرد أشد وطأة حتى بين جدران القلاع [٢١] ..

باختصار كانت البدائية سمة أساسية من سمات الحياة الاجتماعية ؛ فقد كان الناس مايزالون تحت رحمة قوى الطبيعة . وليست هناك وسيلة لقياس تأثير مثل هذه البيئة على عقول الناس . ولكن المرجح أنها كانت من أسباب غلظتهم وبلادة حسهم .

كان شطر كبير من سكان الريف الأوربى من الأرقاء ، كما كان الأقنان يشكلون قطاعا هاما من سكان الريف . وكان الأقنان ، الذين يقفون فى السلم الاجتماعى بين الأحرار من جانب والأرقاء من جانب آخر ، يمثلون شريحة اجتماعية تتزايد أعدادها باطراد فى بعض مناطق أوربا ، وتتناقص أو تكاد تختفى فى بعض المناطق الأخرى . فبسبب عدم اقتصادية نظام الرق فى انجلترا تناقص عدد العبيد وزاد عدد الأقنان ، على حين تزايدت أعداد العبيد فى جنوب فرنسا وأسبانيا [٢٢] . وبنهاية الربع الثالث من القرن الحادى عشر كان نظام السيادة الإقطاعية قد رسخ فى كل من فرنسا وانجلترا وغرب ألمانيا . وفى بعض هذه المناطق ، كان كل رجل يعمل فى فلاحة الأرض ، تقريبا ، قد بات ملزما بشكل من أشكال الخدمة أو الإيجار تجاه السادة الإقطاعيين . أما فى سكسونيا وبعض مناطق شرق ألمانيا ، فقد كان الفلاحون مايزالون يعتمدون على الملك بشكل مباشر ، ولكن النظام المعروف باسم نظام السيادة Seignorial System كان يستشرى بسرعة بسبب الفوضى السياسية الناجمة عن النزاع بين الإمبراطور الألمانى وأمراء سكسونيا المشاغبين . ولكن ، حتى فى الأماكن التى ساد فيها نظام السيادة الإقطاعى ، كانت هناك اختلافات واضحة فى الظروف والأحوال . ففى جنوب انجلترا ، ومعظم مناطق فرنسا ، وفى الالزاس واللورين ، كانت الغالبية من الفلاحين أقنانا مرتبطين بالأرض دون أن تكون لهم أية حقوق تجاه سادتهم الإقطاعيين . فى هذه المناطق كانت العلاقة بين القن وسيده مثل العلاقة بين الإنسان والطبيعة ، فالسيد بالنسبة للقن يمكن أن يكون عدوا كما يمكن أن يكون صديقا ، ولكنه ضرورى لحياة القن فى كل الأحوال . وكان القن مقيدا إلى الأرض ، ولم يكن يقدر على أن يغير سادته سوى بارتكاب جريمة ، أو إذا غامر بالهرب ، أو بشراء حريته بالمال (إذا قبل السيد بيعها) . أما فى شرق وشمال انجلترا ، فقد كان هناك قطاع كبير من الفلاحين ، ربما أكثر من النصف ، أحرارا يؤدون إيجارا وبعض الخدمات المحدودة للسادة . كذلك كانت هناك جمهرة كبيرة من الفلاحين الأحرار فى بعض مناطق فرنسا . وفى شرق ألمانيا كانت تجرى محاولة لنزع ملكيات الفلاحين الأحرار وتحويلهم إلى أقنان ، ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل[٢٣] . ولكن الأمر الواضح فى حياة أولئك الفلاحين عموما ، هو أن البؤس والجهل والخشونة كانت من السمات البارزة فى حياتهم ، بغض النظر عن الفروق الضئيلة الناجمة عن اختلاف وضعياتهم القانونية .

كانت مساكن القرويين عبارة عن أكواخ حقيرة من الطين والأغصان والأعشاب ، لها فتحات فى السقف يخرج منها الدخان المنبعث من مواقدهم ، وتدخل منها مياه الأمطار أحيانا . أما ملابسهم فكانت من جلود الحيوانات أو من صوف الأغنام ومصنوعة بطريقة بدائية

رثة ، وكان طعامهم بسيطا ومن النتاج المحلى مثل ملابسهم . وما كان يستحيل الحصول عليه فى القرية كان يمكن الحصول عليه من الأسواق الموسمية فى أقرب بلدة . ولم يكن الفلاحون آمنين من غائلة الموت جوعا ؛ إذ أن وسائل النقل كانت مكلفة للغاية كما كانت الطرق وعرة وغير آمنة ، وعلى هذه الطرق كانت الثيران هى القوة المحركة لوسائل النقل والمواصلات ؛ وهو ما يعنى أن أى نقص فى المحصول المحلى ، فى منطقة ما ، كان يؤدى إلى حدوث مجاعة(٢٤). وعلى الرغم من أن أحد الباحثين يرى أن أحوال أوربا فى القرن الحادى عشر لم تكن على درجة من السوء تضارع ما تصوره الحوليات المعاصرة ، فإنه يعترف بأن المجاعات التى وردت أخبارها فى تلك الحوليات كانت محلية ومحدودة (٢٥) .

كانت الحرفة الأساسية لمعظم سكان أوربا فى ذلك الحين هى الزراعة بطبيعة الحال ، وكانت أساليب الزراعة ماتزال متخلفة وعاجزة عن اللحاق بالزيادة السكانية ؛ فقد جرت العادة على تقسيم أراضى القرية إلى حقلين كبيرين تتم زراعتهما بالتناوب ؛ فيزرع أحدهما ويترك الآخر لإراحته. ثم طرأ تطور جديد حين أخذ الفلاحون يقسمون أراضى القرية إلى ثلاثة حقول ، ويترك الحقل الثالث بلا زراعة بشكل دورى وكان الهدف من هذا هو أن تترك ثلث مساحة الأرض سنويًا لتجديد خصوبتها . ومن المهم أن نشير إلى أن نظام الحقلين كان معمولا به فى فرنسا وانجلترا جنبا إلى جنب مع نظام الحقول الثلاثة فى فترة العصور الوسطى العالية (٢٦) . وكانت الفلاحة ، سواء فى أرض السادة ، أو فى أراضى الفلاحين الأحرار والأقنان ، تتم على أسس تعاونية ؛ ذلك أن حرث الأرض كان يتطلب ثمانية ثيران ، على حين لم يكن الفلاح يمتلك عادة أكثر من ثلاثة ثيران . وبالنسبة لجمع المحصول كان الفلاحون يقسمون أنفسهم إلى مجموعات تقوم كل منها يجمع المحصول فى شريط حقلى . وقد فرض هذا نوعا من التكافل والتعاون فى الأعمال الزراعية ، وكانت المحاصيل تقسم بين الفلاحين حسب ملكياتهم . ولاشك فى أن هذا النظام كان بسبب المشاكل ، ولكنه كان أفضل من أن يقوم كل فرد بعمله وحيدا (٢٧) .

ولم يطرأ سوى قدر قليل من التحسن على وسائل الزراعة ، كما كان الفلاحون جاهلين تماما بوسائل تقوية التربة وزيادة خصوبتها ، مما أدى إلى عدة نتائج سلبية أخرى (٢٨) . وفى ظل النظام الإقطاعى كانت الزراعة تتجه إلى التنوع بدلا من التخصص فى محصول واحد . ويرجع هذا إلى طبيعة نظام الاكتفاء الذاتى للقرية أو للضيعة الإقطاعية التى كادت أن تكون عالما قائما بذاته ؛ ففى القرية كانت تتم زراعة كافة المحاصيل التى يحتاجها سكانها ، كما كانت

فيها كل الصناعات الصغيرة اللازمة لحياتهم البسيطة . ولم يكن الفلاحون هم أصحاب الحرفة الوحيدة فى الريف الأوربى فى تلك الفترة . إذ أن لدينا نصا يرجع تاريخه إلى حوالى سنة ١٠٠٠ ميلادية (٢٩) يرسم لنا صورة واقعية (من وجهة نظر الفلاحين) عن الأعمال التى كانت تمارس فى الريف الأوربى ، وعن الطريقة التى كان أصحاب هذه المهن يمارسون بها أعمالهم . فقد كان القن يعمل على المحراث ، ويرعى الأغنام والثيران ، كما كان هناك من يصيدون السمك ، أو يستخرجون الملح ، فضلا عن الأساكفة والخبازين والتجار المحليين . والنص فى شكل حوار بين السيد الإقطاعى وأصحاب هذه الحرف وهو يكشف عن مدى مشاق كل مهنة من وجهة نظر أصحابها . ويكشف هذا النص عن أن الحرف اليدوية كانت موجودة فى الريف الأوربى إلى جانب بعض حرف الخدمات وإن كان تأثيرها فى المجتمع الريفى محدوداً بدرجة كبيرة .

ومن حيث المستوى الثقافى ، كان الفلاحون ، بصفة عامة ، أفظاظا وبدائيين خشنين ، كما كان الجهل هو السمة الغالبة عليهم . وكانت هذه "الكتلة الخرساء" فى مجتمع أوربا الغربية آنذاك محل احتقار الطبقات الأخرى فى المجتمع . هذا الجهل وهذه البدائية التى تميز بها الريف الأوربى فى العصور الوسطى كان نتيجة طبيعية لحياة العزلة التى عاشتها القرية الأوربية فى تلك الآونة . ويلزمنا قدر كبير من القدرة على التخيل حتى نستطيع أن نتمثل حقيقة العزلة والتقوقع فى الريف الأوربى فى العصور الوسطى . فقد كان متوسط سكان القرية أربعمائة نسمة ؛ منهم على أكثر تقدير مائتين وخمسين من البالغين . وكان سكان القرية جميعا يعيشون حياتهم كلها فى القرية التى نادرا ما كانوا يغادرونها ونادرا ما كان يفد إليها أحد من خارجها .. أى أنهم كانوا يعيشون حياتهم ، من المهد إلى اللحد ، بين عدد من الناس يعرفونهم بالاسم ويحادثونهم يوميا (٣٠) . وفى ظنى أن هذا مؤشر كاف لأن يجعلنا نتصور مدى ضيق أفق أولئك الفلاحين ، وكيف كان يمكن أن تؤثر فيهم أية دعاية باسم الدين .

وبالنسبة لغالبية سكان أوربا الغربية عشية الحروب الصليبية كانت القرية هى الوحدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، بل والدينية أيضا . فقد كان القروى يجد متعته وتسليته فى أعياد القرية ، كما كان قسيس القرية يقوم بالطقوس الدينية لهم . لقد كانت للكنيسة أهمية كبرى فى حياة الفلاحين ؛ إذ كانت الكنيسة هى النافذة التى يطل منها الفلاحون على العالم ، لأنها كانت وسيلتهم للثقافة . فعلى مدى قرون عديدة كان رجال

الكنيسة ، هم فقط ، الذين يعرفون القراءة والكتابة فى أوربا العصور الوسطى . وكان القسيس هو الذى يقدم لرعاياه في القرية قدرا ضئيلا من المعلومات عن عالم الفكر ؛ وبما أنه هو نفسه كان عاريا من العلم ، فإن معلوماته كانت ضحلة بالضرورة . كان طبيعيا أن يحتكر الكنسيون التعاليم الدينية ، بيد أن نشاطهم الفعلى فى القرية كان أقل كثيرا من وجودهم . فقد كان من النادر أن يقوم القساوسة النشيطون بتلقين رعاياهم القرويين تعاليم الإنجيل سواء بالكلمة أو بالقدوة . وكانت حوائط الكنيسة ، بما عليها من صور ورسوم ، بمثابة الإنجيل بالنسبة للفقير . الذى لم يكن يعرف القراءة والكتابة أو حتى يقدر على امتلاك نسخة من الكتاب المقدس (٣١) .

وغالبا ماترددت عبارة "عصر الإيمان" لوصف تلك الفترة فى تاريخ أوربا . وإذا كانت هذه العبارة تعنى أن مفهوم الناس عن العالم كان مثقلا بالعناصر الغيبية ، وأن هذا المفهوم والتصور الذى رسمه الناس آنذاك لمصير الإنسان كان انعكاسا للفكر المسيحى الغربى بما فيه من عناصر لاهوتية وأخرى غيبية وأخروية – إذا كانت هذه العبارة تعنى ذلك ، فإنها تكون عبارة صحيحة تماما لوصف تلك الفترة من تاريخ الغرب الأوربى على حد تعبير مارك بلوك(٣٢) . لقد كانت الكاثوليكية عشية الحروب الصليبية أبعد ماتكون عن تحديد نظامها العقيدى بشكل كامل ، كما أن المفاهيم الكاثوليكية لم تكن قد رسخت تماما بين عامة الناس. كان قساوسة الأبرشات لايصلحون لوظائفهم سواء من الناحية الفكرية أو من الناحية الأخلاقية . فقد كان تعيينهم يتم ارتجالا ، ولا يتلقون التثقيف الكامل للقيام بمهامهم ؛ وغالبا ما كانوا يتلقون دروسا غير منتظمة على يد قسيس ذى حظ من التعليم قليل . ونادرا ما كانوا يقومون بمهامهم فى الريف حيث كانت تعيش غالبية المسيحيين الكاثوليك .

كانت الحياة الدينية فى الريف تغتذى العديد من المعتقدات والممارسات التى كانت من تراث السحر القديم ، ومن نتاج الحياة الأوربية التى كانت ماتزال حافلة بالأساطير ؛ وكان لهذه وتلك تأثير كبير على العقيدة الرسمية . فقد كان الناس مايزالون يرون فى السماء العاصفة جيوش الأشباح تمر بهم : جيوش الموتى كما كان يقول العامة ، وجيوش الشياطين الشريرة كما كان يقول المتعلمون الذين لم ينكروا أبدا مثل هذه الرؤى ؛ وإنما كانوا يبحثون عن تفسير لها وكان تفسيرهم يحمل من الخرافة والخزعبلات مايكشف عن تدنى مستواهم المعرفى والدينى فى آن معًا . لقد كان الدين آنذاك مزيجا من الخرافة وطقوس عبادة الطبيعة . وكان

القرويون يجمعون مابين التقوى والاعتقاد فى الخرافات ؛ فقد كان الريف يعج بالعيون الخفية والأشجار صانعة المعجزات حسب اعتقاد الفلاحين ، كما كان سكان هذا الريف يبجلون العديد من القديسين الذين لم تعترف الكنيسة بهم أبدا (٣٣) .

ومن ناحية أخرى ، فإننا يمكن أن نفسر الاستجابة الشعبية الهائلة للدعوة التى أطلقها البابا أربان الثانى فى كليرمون سنة ١٠٩٥ فى ضوء الجو النفسى والفكرى الذى كان سائدا فى الغرب الأوربى فى القرن الحادى عشر . فقد كان الجهل مايزال يبسط رداءه على المجتمع الريفى الطابع فى غرب أوربا كما أسلفنا القول . ولايمكن أن نتوقع فى عصر تسوده الخرافات والرؤوس ملتهبة بالحماسة الدينية العاطفية أن ترد الظواهر الطبيعية إلى أسبابها الحقيقية ، وليس إلى التدخل الإلهى ؛ وإنما ينبغى أن نتوقع أن يخترع رجال الكنيسة المعجزات التى يخدعون بها البسطاء . وكثر الحديث عن النجوم التى تتساقط من السماء مثلما يتساقط البَردَ ، وعن الأضواء الشمالية الباهرة التى كانت تسطع بنورها فوق خط السماء بشكل خارق. وراجت حكايات عن الشهب الملتهبة بمساراتها فوق رؤوس الناس ، وشاعت أخبار الأطفال الذين يولدون بأطراف مضاعفة ، والأطفال الذين تكلموا عقب ولادتهم . كما تناقل الناس الروايات عن الرعاة الذين رأوا مدينة تتألق فى كبد السماء وهم يرعون قطعانهم ليلا . ونسمع عن قسيس يشاهد وهو فى الطريق سيفا ضخما معلقا فى السماء ، وتحمله الريح ، وقس آخر يرى فى وضح النهار معركة بين فارسين فى السماء ، يضرب أحدهما الآخر بصليب كبير . بحيث ينتصر عليه .. كانت هذه الأخبار تلقى اهتماما كبيرا من الناس وتحظى بتصديقهم لها . فقد كتب عدد من المعاصرين عن هذه الأخبار الإعجازية كما لو كانت قد وقعت بالفعل (٣٤) . وفى هذه الظروف لعب المبشرون الجوالون دورا هاما ، وأذكوا نيران التعصب ضد أصحاب الديانات الأخرى . وحول الناس التجربة الدينية إلى تجربة شخصية عاطفية بفعل الأفكار الألفية والأخروية التى ألهبت مشاعرهم وخيالهم . وكان بطرس الناسك وأمثاله إفرازا لهذا المجتمع الذى حكمه التدين العاطفى والتعصب المقيت . ولم يكن هذا الموقف النفسى والفكرى وقفا على الفلاحين والعامة ، وإنما كان هو القاسم المشترك بين الطبقات والقوى الاجتماعية المختلفة فى الغرب الأوربى عشية الحروب الصليبية ، بيد أن تأثيره على البسطاء والعامة كان أبعد أثرا وأخطر وقعا بطبيعة الحال .

أما **الذين يحاربون** ، أى الفرسان من أبناء الأسر الإقطاعية ، فقد تطورت بهم الأحوال فى القرن الحادى عشر ؛ بحيث جاءت الدعوة الصليبية فرصة ذهبية لهم . ذلك أن ظروف الحياة

الشاقة فى كثير من أنحاء الغرب الأوربى جعلت المغامرة فى الشرق أمرا جذابا لهم . وكانت الزيادة السكانية التى شهدتها أوربا أبان القرن الحادى عشر [٣٥] من أهم الأسباب التى حفزت أبناء الطبقة الإقطاعية إلى البحث عن أرض جديدة فى الخارج ، فقد كانت الأرض هى مصدر الثروة والسلطة . لقد كانت نفس الحوافز التى قادت فرسان الغرب الأوربى للبحث عن حياة جديدة فى الأرض التى انتزعت من السلاف فى ألمانيا ، ومن المسلمين فى أسبانيا وصقلية ، هى التى حفزتهم إلى المسير صوب الأرض المقدسة . وكان من السهل إقناع الناس فى غرب بلاد الغال (فرنسا) بترك بلادهم التى ابتليت بالحروب الإقطاعية أحيانا ، وبالمجاعات والأوبئة أحيانا أخرى[٣٦] . كما أن القصص التى يرويها الكتاب المقدس عن خصوبة الأرض المقدسة، شجعت أبناء هذه الطبقة على الانخراط فى سلك الحملة الصليبية .

كذلك ، فإن غروب شمس القرن الحادى عشر جاء فى وقت كانت فيه حدود الدوقيات والكونتيات فى الغرب الأوربى قد ثبتت ، وقام بينها نمط بدائى من التوازن السياسى . وهو ما يعنى أن فرصة الإقطاعيين للغزو داخل أرض الوطن قد باتت ضئيلة بالفعل . كانت فرنسا على نحو خاص ، تعانى من حالة "**الجوع إلى الأرض**" التى كانت هى النغمة المميز فى الحياة الإقطاعية آنذاك . وكان الفرسان الذين يدفعهم "**الجوع إلى الأرض**" يدخلون فى علاقة تبعية مع سيد أو إثنين من السادة الإقطاعيين حتى يمكنهم الحصول على المزيد من الإقطاعات . فإذا نشبت الحرب بين السيدين يضطر الفارس إلى الاختيار بينهما ، فيقاتل إلى جانب من يرجح انتصاره حتى يتخلص من ورطته [٣٧] . ففى فرنسا ، كان حق وراثة الإقطاع قاصرا على الإبن الأكبر فقط لضمان عدم تفتت الملكية الزراعية فى الأسرة بالقدر الذى يضعف من قوتها وسلطانها القائم على ملكية الأرض . وفى جنوب فرنسا على وجه خاص وجدت أنماط من الملكية المشتركة داخل العائلات الإقطاعية عرفت باسم Frérèche أو Fraterntitia وهو شكل من أشكال الملكية المشاعية بين الأخوة أو أفراد الأسرة ككل ، ولكن الإبن الأكبر هو الذى يتولى إدارة الأرض والإشراف عليها . وبذلك يتعرض الإخوة الأصغر للضغوط الأجتماعية ؛ وكان عليهم أن يختاروا بين الانخراط فى السلك الكنسى ، أو الانضمام لمنظمة عسكرية رهبانية ؛ أو ينضمون إلى جموع الفرسان الذين لا يملكون إقطاعا . وكانت فرصة مثل أولئك الفرسان تنحصر فى الزواج من إحدى الوارثات ، وهى فرصة ضئيلة بطبيعة الحال ، أو فى الانضمام إلى عصابات البارونات اللصوص[٣٨] .

ومن ناحية أخرى ، فإن النظام الإقطاعى كان قائما على القوة العسكرية . وكانت القوة هى العامل المحرك فى هذ المجتمع . وفى ظل النظام الذى انبثق عن المؤسسات العسكرية والذى

ظل يحمل قدرا كبيرا من بصماتها ، كان لكل بارونية ، وكونتية ، ودوقية ، ومملكة ، جيشها الخاص . ولكن النظام الإقطاعى فشل فى إقرار السلم لأنه قائم على افتراض أنه ستكون هناك حالة حرب دائمة . وقد فشلت محاولات الكنيسة فى أن تفرض السلام على هذا المجتمع ، كما رأينا فى الفصل السابق ، على الرغم من بعض مظاهر النجاح الجزئى فى هذا الصدد . إذ كان القتال هو الوظيفة الرئيسية للرجل الارستقراطى فى ظل النظام الإقطاعى . إذ كان يتم إعداده منذ صباه على حياة القتال والفروسية . وحين يتم تدشينه فارسا يقضى حياته فى التدريب على القتال أو فى القتال الحقيقى . وكانت مهنة الفارس الرئيسية المحببة إلى قلبه هى القتال. فإذا كان من البارونات ، فإنه يقاتل لكى يحتفظ بسيطرته على أفصاله ، ولكن يستولى على مايمكنه الاستيلاء عليه من جيرانه . وإذا كان فارسا صاحب إقطاع فإنه كان يتبع سيده إلى القتال لأن هذا كان واجبه ، ولأنه كان يطمع فى الحصول على جزء من الغنائم . أما الفارس الذى لايملك أرضا فقد كان يحارب ليكسب عيشه ؛ إذ كانت الحرب نشاطا اقتصاديا مربحا فى ذلك الزمان . بل إن سيدنى بينتر[٣٩] يرى أن الحرب كانت بالنسبة للفرسان رياضة محببة ولم تكن تزيد فى خطورتها عن رياضة كرة القدم فى عصرنا الحالى . ويقول أن ملابس الفارس المدرعة كانت تكفل له الحماية الكاملة من أسلحة المشاة ، كما كانت تقيه ضربات سيوف الفرسان وطعنات رماحهم ، فضلا عن أنه لم يكن هناك فارس يرغب فى قتل فارس آخر لأن الجثة لم تكن تساوى شيئا ولكنها تجلب العداوة والثأر . وإذا قتل الفارس جاره وجد وريثه يواصل الصراع محله ، ولكنه إذا أسره ، استطاع أن يحصل على ضيعة غنية ، أو قلعة حصينة كفدية للأسير .

لقد كانت الحرب هى مهنة الطبقة العليا ، كما كانت متعة الرجال من أبناء هذه الطبقة ؛ إذ كانت أوقات السلم تمر كئيبة رتيبة داخل جدران القلاع العابسة ؛ فلم يكن لدى أبناء هذه الطبقة أية مشاغل ثقافية أو بدائل غير الصيد . لقد كانت المعركة هى قمة حياة الفارس ، وكثيرا ما كانت هى النهاية التى تنتهى بها هذه الحياة[٤٠] . وباختصار كان الفارس العادى حتى نهاية القرن الحادى عشر متوحشا همجيا متعطشا للدماء . (وقد ظلت هذه الصفات من مميزاته الأساسية طوال القرن الثانى عشر على الأقل)[٤١] . بيد أنه فى الوقت نفسه كان متدينا على طريقته الخاصة ؛ إذ يتقبل تعاليم الكنيسة دونما مناقشة ، كما كان حريصا على خلاص روحه ، وله قسيسه الخاص الذى يقوم بعمل الطقوس له ، ويستمع إلى اعترافاته (ومن المثير للانتباه أنه كان على استعداد لأن يعرض نفسه لأشد الأخطار فى سبيل ألا يدلى باعترافاته هذه لقسيس مستقل) . ولكن الفارس الإقطاعى ، من ناحية أخرى ، لم يكن يفهم

المسيحية فهما جيدا . وقلائل هم الذين كانوا يفهمون الدين من بين نبلاء ذلك الزمان ، ولكن من كانوا يلتزمون بتعاليمه منهم كانوا أقل عددا . لقد كان فرسان الغرب الأوربى ، على الجملة ، لايفهمون من الدين سوى أنه حيازة الذخائر المقدسة ، أو الهبات التى كانوا يغدقونها بسخاء على الأديرة والكنائس تكفيرا عن ذنوبهم . إذ كان التكفير عن الذنوب أيسر لهم من الالتزام بالفضيلة(٤٢).

وإذا أخذنا فى اعتبارنا طبيعة التنشئة الاجتماعية للفرسان من جهة ، وحقيقة تدينهم القاصر من جهة أخرى ، أدركنا أن أولئك النبلاء قد وجدوا أنفسهم فى وضع غير مريح بسبب الضغوط التى كانت تمارسها الكنيسة لفرض حركة السلام . لقد كان النبلاء ، شأن رجال الدين والفلاحين ، يؤمنون بالمسيحية ولكن على طريقتهم كما أسلفنا القول . إذ كان الدين يكسب حياتهم معناها ، لأنهم لم يكونوا ليقدرون على تحمل الصراعات الرهيبة التى كانت تمر بها حياتهم اليومية لو لم يكن هناك وعدة بحياة أخرى أفضل بعد الموت . حقيقة أن النبلاء كانوا قد نشأوا على الحرب ورضعوا تقاليد القتل ولكنهم كانوا يريدون الخلاص لأرواحهم أيضا . ومن ثم فإنهم رأوا فى حركة السلام كارثة حلت بهم . ذلك أن قبولها كان يعنى ، فى التحليل الأخير ، إنكار الأسس التى يقوم عليها وجودهم كطبقة محاربة ، على حين كان التنكر لحركة السلام يعنى المخاطرة بفقدان الخلود مع الرب ؛ وهو الأمل الذى كان الجميع يتحركون فى إطاره. وبدا الأمر وكأنه لغز مستحيل أمام أبناء هذه الطبقة ، فلم تكن غالبيتهم الغالبة لترضى عن هذا الدور الاجتماعى الذى خصهم به النظام الإقطاعى بديلا . ومن ثم جاءت فكرة الحملة الصليبية فرصة ذهبية بالنسبة لهم ؛ فهى ترضى ميولهم العسكرية وتعطشهم للقتال ، كما أنها تحظى بمباركة الكنيسة وتتم تحت راية الصليب .

وهناك الكثير الذى يمكن قوله عن تأثير النظام الإقطاعى على الكنيسة فى العصور الوسطى . وبهذا نأتى إلى "الذين يتعبدون" فقد كان للسياسة التى اتبعها الكارولنجيون أثرها من حيث صبغة الكنيسة بالصبغة الإقطاعية إلى حد ما . إذ كان شارل مارتل يجبر الكنيسة على أن تمنح إقطاعات من أراضيها للفرسان بشرط أن يصبحوا أفصالا له Vassi dominci . وبعد شارل مارتل لم يعد الملوك الكارولنجيون يصادرون أملاك الكنائس ، ولكنهم كانوا يجبرون الكنائس على منح الإقطاعات لأفصالهم . وجاء وقت صار فيه بعض الأساقفة ومقدمى الأديرة أفصالا للتاج الكارولنجى ، ثم استخدموا بعض أراضيهم إقطاعات يمنحونها لأفصالهم مثلما فعل الأمراء العلمانيون . وإذ تورطت الكنيسة فى العلاقات الإقطاعية على

هذا النحو ، صارت المناصب الكنسية تمثل إغراء للأفراد الذين لايميلون إلى العمل الروحى ، ولكنهم يرون فى الكنيسة وسيلة يتوسلون بها للحصول على السلطة والثروة[٤٣] .

وخلال القرنين التاسع والعاشر باتت الكنيسة متورطة فى الشئون الدنيوية إلى حد كبير . ذلك أن الأراضى الشاسعة التى امتلكها الأساقفة ومقدمو الأديرة ، والتى كان السادة الإقطاعيون يشرفون عليها بمقتضى الالتزامات والخدمات الإقطاعية ، جعلت رجال الكنيسة يقومون بدور الأفصال ؛ إما بأنفسهم وإما من خلال من ينوب عنهم . وكان بعضهم يقود جيشه فى المعركة زاعمين أن ذلك لايعد خرقا للقانون الكنسى الذى يمنع إراقة الدماء ، على حين استخدم البعض الآخر رجالا من العلمانيين لقيادة جيوشهم الإقطاعية . كذلك عمل القساوسة والديريون فى خدمة الحكام العلمانيين كمستشارين وإداريين[٤٤] وتحدثنا حوليات القرنين العاشر والحادى عشر عن الأساقفة ومقدمى الأديرة الذين حاربوا ضمن حملات عسكرية تمت لحساب الملوك ، أو تحقيقا لأهداف الأساقفة والديريين أنفسهم[٤٥]. وكان لهذا الوضع أثره السئ على الأداء الروحى للكنيسة ، وتمثلت النتيجة الطبيعية لذلك فى التغاضى عن شرط الكفاءة الروحية فيمن يتولون المناصب الكنسية والديرية من ناحية ، كما صار الطامعون يبذلون المال للحصول على هذه المناصب بالشكل الذى أفرز أخطر أمراض الكنيسة الكاثوليكية فى العصور الوسطى من ناحية أخرى .

ومنذ القرن العاشر تنبه بعض المتدينين إلى هذا الوضع ومحاذيره . وعلى أمل أن يتحسن النظام الديرى قام الدوق وليم ، أمير أكوتيانيا (أقطانيا) ، بتأسيس دير كلونى سنة ٩١٠م . وكان ممنوعا على هذا الدير أن يمتلك أرضا بمقتضى الخدمة الإقطاعية ؛ إذ كان على كل من يهب أرضا لدير كلونى أن يهبها دون قيد أو شرط ؛ وإنما فى مقابل أداء الرهبان الصلوات لخلاص روحه فقط . وبحلول القرن الحادى عشر كانت هناك عدة أديرة تابعة لدير كلونى وتنهج نهجه الذى كان صيغه معدلة من النظام البندكتى ، وسرعان ما صار للأديرة الكلونية نفوذ ضخم . وفى القرن العاشر قادت الكلونية حركة إحياء ضخمة ؛ بهدف تحرير الكنيسة من قيود العلاقات الإقطاعية ، وبعث الحياة الديرية من مرقدها الذى نامت فيه طويل بعد ترهل النظام البندكتى . وفى القرن الحادى عشر وصلت الحركة الكلونية إلى ألمانيا حيث تعاطف معها الحكام الألمان من ملوك أسرة أوتو : مثل كونراد الثانى (١٠٢٤-١٠٣٩م) وهنرى الثالث (١٠٣٩-١٠٥٦م) الذى كان يتصرف باعتباره راعيا وحاميا للحركة الكلونية فى بلاده[٤٦] .

وفى القرن الحادى عشر بدأت حركة اصلاحية واسعة تستهدف القضاء على كثير من المساوئ التى استشرت فى أوصال الكنيسة الكاثوليكية .ومن أهمها السيمونية (أى بيع الوظائف الدينية) وتدخل الحكام العلمانيين فى تعيين رجال الكنيسة . كانت هذه الحركة الإصلاحية ، التى يطلق عليها بعض المؤرخين المحدثين "الثورة الجريجورية" (٤٧) ، تستهدف إصلاح الكنيسة والعالم . وبينما كان إصلاح الكنيسة يعنى فى المحل الأول أن تكون الكنيسة ملكا للأساقفة ؛ أى أن تتحرر من سيطرة العلمانيين ، كان إصلاح العالم يعنى إخماد الحروب الإقطاعية الى باتت سمة من سمات مجتمع غرب أوربا . وكانت حركة السلام التى تهدف إلى إنهاء الحروب الإقطاعية من أهم الأسباب العملية لحركة الإصلاح نفسها . هذه الحركة الإصلاحية ، فى شقها الأول الذى يهدف إلى تحرير الكنيسة من السيطرة العلمانية ، أفرزت نزاعا مريرا بين البابوية والإمبراطورية الألمانية ، واندلعت شرارة هذا الصراع بين جريجورى السابع وهنرى الرابع لكى تستمر على مدى سنوات طوال . وكان لهذا الصراع أثره فى توجه البابوية بدعوتها الصليبية إلى المجتمع الفرنسى على نحو خاص كما سنرى .

هذه هى القوى الاجتماعية فى الغرب الأوربى عشية الحروب الصليبية ؛ وهى قوى تحدد الدور الاجتماعى لكل منها . لقد وصف أسقف فرنسى فى العصور الوسطى المجتمع المعاصر بقوله "بيت الرب ذو جوانب ثلاثة ؛ فالبعض يصلى فيه ، والبعض يحارب فيه ، والبعض يعمل فيه"(٤٨) . وهكذا كان العالم المسيحى فى العصور الوسطى مقسما بشكل حاد لأقسام ثلاثة هم : الفلاحون ، والنبلاء والقساوسة (إذ كان سكان المدن الناشئة ما يزالون عديمى الأهمية فى ذلك المجتمع) . وكان المبشرون يحبون أن يشبهوا المجتمع بالجسد الإنسانى ، فيشبهون القساوسة بالرأس والعيون ؛ والنبلاء بالذراعين واليدين ، والعامة ، بالأرجل والأقدام. وباعتبار أن القساوسة هم رأس المجتمع وعينه ، فقد زعموا لأنفسهم حق توجيه المجتمع وحكمه ؛ ولكن "الذين يحاربون" لم يسلموا لهم بهذه الحقوق المزعومة ؛ ومن ثم حدث تفاعل كبير بين هاتين القوتين . وقد وصل هذا التفاعل إلى مداه فى القرن الحادى عشر بحيث أفرز الحركة الصليبية. إذ كان هذا القرن بداية لفترة النمو والتقدم النشيط فى أوربا ، وكان الفضل فى هذا للتداخل والتفاعل بين المؤسستين الكبيرتين فى المجتمع الأوربى آنذاك ؛ أعنى الإقطاع والكنيسة(٤٩) لأن تداخلهما أدى إلى قوة المجتمع ونضجه ، دون أن يعوق ذلك التطور الذاتى لكل منهما . فالحركة الصليبية ، فى جانب منها على الأقل ، كانت إفرازا للإقطاع والكنيسة وتفاعلهما سويا .

ففى منتصف القرن الحادى عشر بدأت فترة من أخطر فترات التاريخ الأوربى ؛ إذ أن السنوات الثمانين التى تمتد منذ منتصف هذا القرن حتى نهاية العقد الثالث من القرن الثانى عشر ، كانت هى الفترة التى شهدت حركة الإصلاح الدينى (الجريجورى) ، كما كانت هى فترة النمو التجارى ، ونمو المدن . كانت المجتمعات الحضرية قد ازدهرت من جديد فى الشمال الإيطالى ، وبدأت تنمو فى الأقاليم البعيدة عن البحر المتوسط . وازدهرت المدن التجارية الإيطالية بفضل تجارتها مع القسطنطينية . وفى الوقت نفسه بدأت جنوا وبيزا تمارسان نشاطهما التجارى مع موانئ البحر المتوسط مثل مرسيليا ، وبرشلونه ، وناربون . كما بدأت الهجمات على أساطيل المسلمين وموانيهم فى كورسيكا وسردينيا ؛ بل وفى تونس[٥٠]. كذلك أخذ الناس يتبادلون النقود على نطاق أوسع من ذى قبل . وثمة دليل على أن الحجاج والصليبيين كانوا يحوزون النقود عن طريق الاقتراض أو ببيع أملاكهم ، كما أن الثابت أن الكنيسة كانت ترهن وتشترى أملاك الصليبيين الذين كانوا بحاجة إلى المال من أجل الرحلة الطويلة . ومن المؤكد أن لندن كانت مدينة كبيرة تسكنها عائلات ثرية عند نهاية القرن الحادى عشر وهو دليل على نمو المدن الأوربية عامة . وعلى الرغم من ذلك كله ؛ فقد ظلت الحضارة الغربية فى ذلك الحين حضارة قوامها الطابع الريفى بإفرازاته الفكرية والاجتماعية والسياسية.

وإذ رسمنا الملامح العامة للمجتمع الذى أفرز الحركة الصليبية ، وحددنا القوى الاجتماعية الفاعلة فى هذا المجتمع ، يبقى أن نحاول رصد الدوافع والأسباب التى حفزت كلا من هذه القوى للمشاركة فى الحركة الصليبية . بيد أننا يجب أن نلاحظ أن إيديولوجية الحرب المقدسة كانت قد باتت راسخة فى وجدان الغرب الأوربى بحيث لم يكن هناك ، وقت خروج الحملة ، من يبحث عن المبرر الأخلاقى لشن هذه الحرب ، "فالحرب المقدسة" كانت غطاء مناسبا لكل المشاركين فى هذه الحركة ، ولكن هذا الغطاء لم يكن يعنى أن أهدافهم كانت واحدة أو أن فهمهم للإيديولوجية الصليبية كان واحدا . بل إن العكس تماما هو الذى حدث ، فقد كان الفهم الشعبى "الذين يعملون" مناقضا تماما لفهم كل من الكنيسة والنبلاء لهذه الإيديولوجية . كذلك فهم النبلاء الإيديولوجية الصليبية على نحو مخالف لفهم رجال الكنيسة لهذه الإيديولوجية . وقد أدى هذا ، بطبيعة الحال ، إلى اختلاف أهداف كل من القوى الاجتماعية التى ساهمت فى هذه الحركة .

كانت الدعوة إلى الحروب الصليبية دعوة تناسب العصر تماما . فقد كان المجتمع الإقطاعى المشبع بالفخر ، والتعصب ضد غير المسيحيين ، والراغب فى الخلاص من خلال أعمال توافق

أخلاقياته العلمانية - كان هذا المجتمع مستعدا لأن يستجيب للدعوة التى يمكن تفسيرها فى ضوء مصطلحات الخدمة الإقطاعية ، والتنافس الإقطاعى . ولكن المشكلة تمثلت فى كيفية عبور الفجوة التى تفصل بين المثل والقيم التى تلهم كبار الكنسيين وتلك التى تحرك العلمانيين. وقد ناضل البابوات والدعاة البابويون لبناء جسر من الفهم المشترك فوق هذه الفجوة ، ولكنهم فشلوا فى بنائها(٥١) . فحين طرحت الكنيسة الإيديولوجية الصليبية كانت تهدف إلى شئ ، ولكن العلمانيين فهموا شيئا آخر .

لقد كانت الحروب الصليبية تجديدا تاريخيا كبيرا فى الغرب الأوربى . فقد كانت هى أول حرب يخوضها الغرب تحت راية إيديولوجية معينة . وكان طبيعيا أن تفسد الإيديولوجية وتزيف بمرور الوقت على حد تعبير بيشوب(٥٢) . ولكن تظل الحقيقة أن اعتناق القوى الاجتماعية المختلفة لهذه الإيديولوجية كان تعبيرا عن صراع هذه القوى ضد بعضها البعض من ناحية ، كما كان تعبيرا عن التفاعلات الناجمة عن هذا الصراع نفسه من ناحية أخرى . وكانت الحركة الصليبية إفرازا للتفاعل بين الكنيسة والنظام الإقطاعى كما سبق القول ؛ ومن ثم فإنها كانت تسعى إلى تحقيق أهداف هاتين المؤسستين الحاكمتين فى المجتمع الغربى . والكنيسة تجسدها البابوية ، على حين تجسد الطبقة المحاربة والطبقة الزارعة النظام الإقطاعى . وحين خرجت الحركة الصليبية إلى حيز الوجود شاركت فى دفع عجلتها قوى أخرى مثل النورمان فى جنوب إيطاليا وصقلية والجمهوريات التجارى الإيطالية ، مما حقق لهذه الحركة صبغتها العالمية المسيحية . ولنحاول رصد الدوافع التى حفزت كلا من هذه القوى التى أدارت عجلة الحروب الصليبية .

وفيما يتعلق برأس المجتمع وعينه ، أى الكنيسة ، فإننا لانشك كثيرا فى أن البابا أربان الثانى قد أوضح أن تحرير القدس هو هدف الدعوة التى وجهها إلى سامعية فى كليرمون فى نوفمبر ١٠٩٥م . وعلى الرغم من أن الخطبة التى ألقاها أربان لم تصلنا فى نصلها الأصلى ؛ فإنه يبدو أن تحرير القدس كان هو محور خطبة البابا . بيد أن تحديد الهدف البابوى انطلاقا من هذه الخلفية الدعائية لا يحسم القضية المتعلقة بدوافع البابا وأهدافه من وراء مشروع الحملة المقدسة . حقيقة أن محور الخطبة كان هو تحرير القدس ؛ ولكن الأهداف والدوافع البابوية الحقيقية كانت تتجاوز الهدف الذى جعله أربان الثانى محورا لخطبته فى كليرمون نحو أهداف أكثر علمانية .

وإذا كنا قد أشرنا من قبل إلى أن تحديد الأسباب والدوافع وراء الظاهرة التاريخية أمر صعب بوجه عام ، فإن الأمر يصبح أكثر صعوبة حين ينعدم الدليل الوثائقى ، أو ينحصر وجوده في شكل شذرات متفرقات . وهذا هو الحال فيما يتعلق بدوافع البابوية فى الحركة الصليبية . ذلك أن البعض يعتقد أن السبب كان هو الرغبة فى تأمين الحج إلى بيت المقدس ، على حين يرى فريق آخر أن الرغبة فى نجدة مسيحيى الشرق كانت هى السبب ، ويرى فريق ثالث أن حرب أربان الثانى كانت بهدف توجيه طاقة أوربا الزائدة فى فترة النمو إلى خارج القارة لتأمين حركة السلام ، كذلك يعتقد البعض أن البابا كان يريد تأسيس دولة إقطاعية في فلسطين تحت سيطرة البابوية ، ويظن البعض الآخر أن الهدف الحقيقى كان هو زيادة نفوذ البابوية وهيبتها . وهناك أيضا من يرى أن الهدف كان هو توحيد كنيستى الشرق الأرثوذكسية والغرب الكاثوليكية تحت الزعامة البابوية .

ويجدر بنا قبل أن نحاول مناقشة كل دافع من هذه الدوافع أن نعرض لأهم الفقرات التى وردت في روايات المؤرخين المعاصرين عن خطبة أربان الثانى فى كليرمون . حقيقة أن كل مؤرخ من المؤرخين اللاتين المعاصرين قد أورد لنا النص الذى تصور أن البابا كان ينبغى أن يقوله ؛ وهو ما أدى إلى خلافات أساسية فى الصياغة والأسلوب ، ولكن هناك اتفاقا على بعض الأمور بين هذه الروايات بالقدر الذى يجعلنا نشعر أنها قد وردت بالفعل فى خطاب اربان ؛ ومن ثم فهى تعبر عن بعض دوافع البابوية . فقد جاء فى رواية فوشيه الشارترى(٥٣) . الذى يعتبر كتابه من المصادر الثلاثة الأساسية فى تاريخ الحملة الأولى ، أن البابا قد ذكر سامعيه بوعودهم التى قطعوها على أنفسهم بحفظ السلام ، ومراعاة حقوق الكنيسة ، وقال لهم أيضا: ".. مايزال ينتظركم عمل جديد ظهر بتوجيه ربانى ، وهو عمل عاجل وملح يربط بينكم وبين الرب ، ومن خلاله يمكنكم أن تكشفوا عن نواياكم الطيبة . إذ يجب أن تبادروا بتقديم المساعدة لاخوتكم القاطنين فى الشرق ، أولئك الذين يحتاجون لمساعدتكم التى ألحوا فى طلبها كثيرا . لأن الترك .. قد هاجموهم كما يعلم الكثيرون منكم .. فإذا تركتموهم يتمادون أكثر من ذلك ، فستكون الهزيمة الكاملة من نصيب شعب الرب المؤمنين.." .

كذلك فإن روبير الراهب الذى كتب فى الربع الأول من القرن الثانى عشر ، والذى يحتمل أنه كان من شهود كليرمون(٥٤) ، يتحدث عن الموضوع نفسه بعبارات مشابهة ؛ إذ يقول إن البابا ذكر سامعيه بأن المسلمين غزوا أملاك المسيحيين فى الشرق ، وأخذوا بعضهم أسرى ، كما قضوا على بعضهم بالتعذيب ، وأنهم دمروا الكنائس أو حولوها إلى مساجد . ثم أخذ

البابا يداعب مشاعر الفخر والزهو حين ذكر الفرنجة بتقواهم وبأمجاد أسلافهم أمثال شارلمان ولويس وغيره ؛ ثم قال لهم : ".. هذا الأرض التى تقطنونها ، تحيط بها البحار وقمم الجبال ، وهى تضيق عن استيعاب أعدادكم الكبيرة ، كما أنها بلاد ليست موفورة الثراء ؛ إذ أنها لاتنتج إلا ما يكفى زُرّاعها بالكاد . وبما أنكم تقتلون بعضكم بعضا ، بحيث تهلكون من جراء الأذى المتبادل ، فلتنبذوا الكراهية من بينكم ، ولتخمدوا منازعاتكم ، ولتوقفوا حروبكم ، ولتتخلوا عن كافة مظاهر الشقاق والخلاف . سيروا على طريق الضريح المقدس ، وحرروا هذه الأرض من الجنس الشرير ، وكونوا أنتم سادتها . فهذه الأرض التى يقول الكتاب المقدس إنها "تفيض باللبن والعسل" ، قد منحها الرب ملكا للمؤمنين .." .

ورواية بلدريك ، كبير أساقفة دول ، الذى كان حاضرا فى كليرمون والذى يركز على أخوة المسيحيين فى الشرق والغرب(٥٥) تقول إن البابا ذكر لجمهور السامعين أن الأسف والحزن العميق سوف ينتابهم حين يسمعون عن الأذى والاضطهاد والعذاب الذى يتعرض له المسيحيون فى القدس وأنطاكية ، وغيرهما من مدن الشرق ، ثم يحدثهم عن مدينة القدس التى عانى فيها المسيح من أجل شعبه ، ودفن فيها ، ثم يقول : "اسمعوا واعوا ، أنتم يامن تتحلون بشارة الفروسية ، ويملؤكم الغرور والكبرياء ؛ فتهاجمون أخوانكم ، وتمزقون بعضكم بعضا ، ليست هذه هى الجندية الحقيقية فى سبيل المسيح الذى يدعو إلى حماية رعاياه .. إذا كنتم تنشدون خلاص أرواحكم ، فلتطرحوا جانبا هذه الفروسية ، ولتتقدموا فى جسارة كفرسان للمسيح حقا ، وتندفعوا بأقصى ما يمكنكم من سرعة للدفاع عن الكنيسة الشرقية .. إننا نقول هذا أيها الأخوة ، فعسى أن تكفوا أياديكم القاتلة عن تدمير إخوانكم . فلتجعلوا من أنفسكم خصوما للأثميين فى سبيل مصلحة إخوانكم فى الدين . وفى ظل زعامة يسوع المسيح ، قائدنا ، يمكنكم أن تناضلوا فى سبيل قدسكم ، فى خط قتال مسيحى ، أشد قوة ؛ بل وبنجاح أكثر من نجاح أبناء يعقوب فى الزمن القديم - ناضلوا فى سبيل هزيمة الأتراك وطردهم .. إنه لأمر جميل أن تموتوا فى سبيل المسيح وفى المدينة التى مات فيها من أجلنا .. كما أن أملاك العدو ستكون لكم ، عندما تستولون على كنوزهم ، وتعودون إلى ذويكم منتصرين . وإذا ماخضبتكم دماؤكم ، فإن المجد الأبدى سيكون من نصيبكم .." .

كذلك فإن جيوبرت مقدم دير نوجنت Guibert of Nogent(٥٦) ، الذى يحتمل أنه كان بين الحاضرين فى كليرمون ، قد أورد لنا رواية أخرى عن خطبة أربان الثانى بدأها بالحديث عن فضل القدس وكيف أن البابا ذكر الحاضرين بأن المكابيين فى الزمن القديم قد حاربوا من أجل

المعبد ؛ فاستحقوا الثناء ، وتبوأوا أعلى مراتب التقوى . ومن ثم " فإنّ من حقكم أيضا ياجنود المسيح أن تدافعوا عن حرية بلادكم بالسلاح . وإذا كنتم ترون أن مسكن الحواريين المقدسين وغيرهم من القديسين يستحق مثل هذا العناء ، فلماذا تتقاعسون عن إنقاذ الصليب والدم والمقبرة ؟ .. لقد خضتم غمار حروب كثيرة غير عادلة .. وسببتم لبعضكم البعض الأذى والدمار ، لا لسبب سوى الفخر والمباهاة ؛ مما جعلكم تستحقون الموت الأبدى واللعنة الأكيدة . ونحن نقدم لكم الآن حربا فيها ثواب الاستشهاد المجيد الذى سوف يستحق الثناء ، الآن وإلى أبد الآبدين .. فكروا فيمن يقومون بالحج عبر البحر ، وحتى لو كانوا من الأثرياء ، فتأملوا ما يدفعونه من ضرائب ومايتعرضون له من عنف ، لأنهم مضطرون لدفع الضرائب والإتاوات حتى يسمح لهم بالدخول من كل بوابة من بوابات المدينة .." .

هذه هى الروايات الأربع الأساسية للخطبة التى ألقاها أربان الثانى فى كليرمون(٥٧) . ومن خلالها نلاحظ أن ثمة اتفاقا على أن هدف الحملة التى اقترحها البابا كانت بيت المقدس ؛ لتحريرها ولرفع آلام المعاناة والاضطهاد عن المسيحيين فى الشرق ؛ وتأمين طريق الحج . فكل من فوشيه الشارترى ، روبير الراهب ، وبلدريك الدوللى ، وجيوبرت النوجنتى يتفقون على هذه الأهداف ، كما أنهم جميعا يتحدثون عن وجوب إقرار السلام فى الداخل وتوجيه الجهود العسكرية ضد المسلمين فى الشرق . وفضلا عن الوعد بالغفران ، ذكر روبير الراهب أن أرض فلسطين "التى تفيض باللبن والعسل" ستكون ملكا للمشاركين فى هذه الحملة ، على حين ذكر بلدريك الدوللى أن "أملاك العدو سوف تكون كم" .

هكذا ، إذن ، نستطيع أن نقرر أنه يمكن تفسير موقف البابوية فى ضوء هذه الأهداف جميعا . كما يمكننا من استقراء الظروف التاريخية أن نحدد أهدافا أخرى . لقد استغلت البابوية الحركة الصليبية كأداة من أدوات السياسة الخارجية استهدفت من ورائها تحقيق عدة أهداف ؛ منها ماهو معلن واضح كما ثبت من قراءة خطبة أربان فى رواياتها المختلفة ، ومنها مايمكن فهمه من استقراء الظروف التاريخية .

كان الهدف الذى أعلنه البابا ، باتفاق كل المؤرخين الذين نقلوا خطبته ، هو الاستيلاء على الأرض المقدسة من المسلمين وحماية طرق الحج المسيحى . ولدينا أربع وثائق هى كل مابقى من خطابات أربان الثانى حول الحملة الصليبية تؤكد على هذا المعنى(٥٨) . والحقيقة أن الفتح الإسلامى لفلسطين لم يؤثر على أوضاع المسيحيين الشرقيين فى القرن السابع ، كما أن وجود السيادة الإسلامية فى هذه المناطق لم يوقف تيار الحج المسيحى إلى الأماكن المقدسة كما أشرنا

فى الفصل السابق . وقد ظل الحال كذلك حتى القرن الحادى عشر ؛ فالواقع أن المسيحيين فى الشرق الإسلامى لم يكونوا راغبين فى تدخل الغرب الأوروبى فى العلاقة بينهم وبين المسلمين . وكانوا دائما آمنين على وضعهم وعلى أملاكهم وأرواحهم [٥٩] . وعلى الرغم من أن الكونت ريان يحاول أن يثبت أن اضطهاد المسيحيين فى الشرق كان من أهم أسباب حركة البابوية ، اعتمادا على ما اعتقد أنه رسالة من بطريرك بيت المقدس والمسيحيين إلى أربان الثانى وجميع أمراء الغرب[٦٠] فإن هذا الرأى لا يلقى قبولا بين المؤرخين المحدثين[٦١] . إذ لا توجد لدينا وثيقة واحدة تسجل أن مسيحيى الشرق قد استغاثوا بالبابوية أو بالغرب ، كما أنه لاتتوافر لدينا أية معلومات عن حادثة واحدة ارتكبها الأتراك فى حق المسيحيين الشرقيين . أما ما حدث إبان الغزو السلجوقى لهذه المناطق فيمكن النظر إليه باعتباره النتيجة الحتمية للحرب التى شعر بوطأتها كل السكان بطبيعة الحال . وإذا أخذنا فى اعتبارنا أن المسيحيين فى هذه المنطقة كانوا من أتباع الكنائس الشرقية مثل النساطرة واليعاقبة ، أى أنهم كانوا يخالفون الكنيسة البيزنطية فى عقيدتها ، لأدركنا أنه لم يكن ثمة ما يدعوهم إلى الأسف للتغير الذى حدث باستيلاء السلاجقة على أنطاكية وغيرها من مناطق آسيا الصغرى وأعالى الشام .. ومن المعروف لدى المؤرخين الغربيين المحدثين أن الإسلام دين متسامح تماما على حد تعبير كودرى Cowdrey . الأمر الذى جعل المسلمين يسمحون برحلات الحج المسيحية . ومن ناحية أخرى ، كان الحج من مصادر الدخل الهامة لحكام هذه المناطق ، لاسيما بعد ازدياد رحلات الحج وأعداد الحجاج كما بينا فى الفصل السابق ؛ إذ كان الحجاج يدفعون رسوما ، وينفقون أموالاً على الإقامة والغذاء وغير ذلك .. ومن ثم لم يكن هناك ما يدعو لوقف رحلات الحج . ويؤكد ستيفن رنسمان على أن الغزو السلجوقى لفلسطين لم يؤثر فى رحلات الحج ، لأن الحكام السلاجقة الأول كانوا من ذوى الثقافة والوعى بحيث لم يسببوا أية متاعب للحجاج ، ولكن انهيار السلطة الفاطمية فى بلاد الشام هو الذى أدى إلى ظهور الإمارات الصغرى على طول الطريق من الشمال إلى بيت المقدس . وكان كل أمير يريد أن يأخذ لنفسه الضرائب من الحجاج المسيحيين . بيد أنه فيما عدا هذه الضرائب والرسوم لم يكن المسيحيون يتعرضون لأية متاعب تذكر .

ولا شك فى أن الظروف السائدة فى الشرق آنذاك قد شجعت البابوية على التوجه بهذا المشروع . وإذا كان المشروع البابوى فى البداية يهدف إلى استغلال أزمة الإمبراطورية لصالح الكنيسة الكاثوليكية . فإن تطورات الأحداث والمفاهيم لم تلبث أن غيرت المقصد الجغرافى من

القسطنطينية إلى القدس ، كما غيرت البابوية هدف الحملة المقترحة حين اتخذت شكلها النهائي في عهد أربان الثاني . فقد كانت سنة ١٠٧١م سنة مليئة بالكوارث بالنسبة للإمبراطورية البيزنطية ؛ ففي أبريل من هذه السنة استطاع روبرت جويسكارد Robert Guiscard ، دوق أبوليا Apulia النورماني ، الذي كان قد وطد دعائم حكمه في جنوب إيطاليا ، أن يستولي على مدينة باري Bari آخر المعاقل البيزنطية في إيطاليا ، وبذلك أنهى السيادة البيزنطية التي كانت قائمة في هذه المنطقة منذ عهد الإمبراطور جستنيان (٥٢٧-٥٦٥م)[٦٢]. ومن ناحية أخرى ، حدث في السادس والعشرين من شهر أغسطس من هذه السنة أن ألحق السلطان السلجوقي ألب أرسلان هزيمة ساحقة بقوة بيزنطية ضخمة يقودها الإمبراطور رومانوس ديوجينيس Romanus Diogenes ، بنفسه عند حدود الإمبراطورية شمالي بحيرة فان ، وبالقرب من مدينة مانزكرت (ملاذكرد) ، وكان ذلك الإمبراطور التعس هو أول إمبراطور بيزنطي يقع أسيرا بأيدي المسلمين[٦٣] .

وكان واضحا من خلال الاضطرابات التي أعقبت مانزكرت في الإمبراطورية البيزنطية ، أن البيزنطيين قد هووا إلى درك جعلهم يطلبون المساعدة من الغرب : بل يستجدونها . وكان الغرب هو الذي أملى شروط هذه المساعدة ؛ كما يحدث دائما في مثل هذه الظروف . فالواقع أن البابا جريجوري السابع بطموحه المعروف قد حاول أن يجعل من الورطة البيزنطية بعد مانزكرت ميزة ومصدر نفع للبابوية . فقد كان يريد أن يتوجه جيش لاتيني إلى القسطنطينية لتوحيد الكنيستين تحت زعامته ؛ إذ رغبت البابوية في رأب الصدع الذي حدث بانشقاق سنة ١٠٥٤[٦٤] . وإذا كان البابا جريجوري السابع قد رغب في تنظيم حملة في سنة ١٠٧٤م بدعوى مساعدة البيزنطيين ضد السلاجقة ؛ فإن هدفه الأول كان هو توحيد الكنيستين تحت زعامته[٦٥] .

وخلال سنة ١٠٧٤م كانت هناك خطة جاهزة لدى جريجوري السابع لمساعدة القسطنطينية . ولدينا ست وثائق تتعلق بمشروع حملة جريجوري[٦٦] . وفي إحدى هذه الوثائق (وهي عبارة عن رسالة إلى الإمبراطور الألماني هنري الرابع بتاريخ ٦ ديسمبر ١٠٧٤م) يقول البابا "..**إنني استرعي انتباهك إلى أن المسيحيين فيما وراء البحار ، والذين تمنى الوثنيون على عدد كبير منهم بالذبح يوميا مثل الماشية ، أرسلوا في طلب النجدة من إخوتهم المسيحيين بأية وسيلة ممكنة** .." وفي تفاؤل شديد يبلغ البابا الإمبراطور الشاب أن خمسين ألف رجل مستعدين

للذهاب ".. **إذا ماتوليت أنا قيادتهم**" وقال أنهم "**سوف يندفعون حتى ضريح الرب**"بل إنه ، بسذاجة بالغة ، طلب من الإمبراطور أن يقوم برعاية المصالح الكنسية فى غيبته .

بيد أن هذا البابا العنيف ، أو "الشيطان المقدس" على تعبير أحد رجال الكنيسة المعاصرين، لم يلبث أن انغمس فى صراعه المرير ضد الإمبراطور الألمانى كما أوضحنا فى الفصل السابق ، وتخلى عن كل آماله فى كسب صداقة القسطنطينية . فقد عدل عن هذه السياسة نهائيا حين فشل مشروع زواج التحالف الذى كان قد أعده بين روبرت جويسكارد وإحدى الأميرات البيزنطيات نتيجة لانقلاب فى القصر الإمبراطورى أطاح بالإمبراطور ميخائيل السابع[٦٧] ؛ فقام جريجورى السابع بتوقيع عقوبة الحرمان على الإمبراطور الجديد ، ثم على خليفته الإمبراطور اليكسيوس الأول كومنينوس . وفى ظل هذه الظروف لم يكن ممكنا أن تلوح فرصة لتوحيد كنيستى الشرق والغرب تحت الزعامة البابوية .

وفى ١٢ مارس سنة ١٠٨٨م اعتلى العرش البابوى رجل فرنسى كان اسمه العلمانى أودو دى لاجيرى Odo de Lagery ، هو البابا أربان الثانى الذى استطاع أن ينقذ البابوية من المأزق الذى ساقها إليه سلفه جريجورى السابع . وقد مضى هذا الرجل شوطا نحو استغلال موقف الإمبراطورية البيزنطية لصالح الزعامة البابوية[٦٨] . ولن نتعرض هنا لتفاصيل التطورات التى أدت إلى كليرمون ؛ ولكننا نكتفى بالإشارة إلى أن هذا البابا سارع بتحسين علاقاته بالإمبراطور البيزنطى اليكسيوس كومنينوس . وعندما كان البابا يرأس مجمع بياكنزا Piacenza سنة ١٠٩٥م مثلت أمامه سفارة بيزنطية تطلب مساعدة البابوية فى الحصول على جنود مرتزقة [٦٩] . وقد طلب أربان من الحاضرين أن يقدموا المساعدة إلى الإمبراطور ؛ بل إنه جعلهم يقسمون على الذهاب إلى هناك لكى يقدموا لهذا الإمبراطور مايمكنهم من مساعدة ضد المسلمين .

ولدينا وثيقة عبارة عن خطاب أوردته المصادر الأوربية ، وأرجعت تاريخه إلى الفترة مابين أغسطس سنة ١٠٩٤م ويناير سنة ١٠٩٥م موجه من اليكسيوس كومنينوس إلى البابا أربان الثانى والمؤمنين فى الغرب يطلب نجدتهم ضد المسلمين الذين يهددون الإمبراطورية[٧٠] . ولكن يبدو أن هذه الخطاب كان من بين الوثائق المزورة التى استخدمتها الكنيسة فى الدعاية لحملة أربان الثانى ، فقد كان اليكسيوس فى وضع يجعله يطلب المرتزقة ، الذين باتوا منذ زمن طويل يشكلون قسما هاما فى الجيش البيزنطى . أما الحملة الصليبية فكانت آخر مايطرأ على بال هذا الإمبراطور الذكى . إذ أنه كان يأمل فى وصول قوات المرتزقة التى تنخرط فى

الجيش تحت سيطرته ، ولم يكن يتوقع أبدا هذه الجيوش الضخمة التى شكلت الحملة الصليبية الأولى ، وهو ماسوف تؤكده الحوادث فيما بعد .

لقد كانت الحملة الصليبية مشروعا غربيًا خالصا ، بل كانت فى الواقع مشروعا كنسيا تماما . إذ كانت البابوية تهدف من ورائه إلى فرض سيطرتها على المسيحيين الشرقيين ، وإعادة توحيد كنيسة القسطنطينية مع كنيسة روما تحت السيطرة البابوية . فقد جاء إربان الثانى إلى كليرمون بمشروع تم إعداده بشكل جيد لتجريد جيش تشن به حربا ضد أعداء المسيحية . وكانت هذه وسيلة جديدة لتجنيد الجيوش ابتكرتها البابوية ، وظل البابوات يستخدمونها كأداة سياسية بعد ذلك (٧١) . وإذا كانت البابوية قد استخدمت الفكرة الصليبية كأداة من أدوات السياسة الخارجية على هذا النحو منذ البداية ، فإنها استخدمت هذه الفكرة فى تعاملها مع قوى المجتمع الأوربى نفسه كأداة من أدوات السياسة الداخلية أيضا . إذ أن البابا كان راغبا فى إقرار السلام وتأكيد الزعامة البابوية فى مواجهة الإدعاءات الإمبراطورية . ففي رواية فوشيه الشارترى ، وروبير الراهب ، وجيوبرت النوجنتى ، وبلدريك الدوللى عن خطبة أربان الثانى فى كليرمون وردت عبارات تتحدث عن إقرار السلام الداخلى ، وطرح المنازعات والحروب الإقطاعية جانبا ، كما رأينا فى الصفحات السابقة .

لقد كانت البابوية راغبة فى توظيف الميول الحربية لدى فرسان الغرب الأوربى فى خدمة هدف عام بحيث يتحقق السلام الداخلى فى أوربا بالقدر الذى يضمن حماية أملاك الكنيسة من جهة ، ويؤكد السمو البابوى من جهة أخرى . ومنذ زمن طويل كانت الكنيسة تسعى إلى تحويل الروح العدوانية لفرسان الغرب الأوربى إلى أعمال نافعة للكنيسة بدلا من الحروب الإقطاعية التى لاتنتهى . فقد باركت الحروب ضد الوثنيين ، كما اهتمت بجمع وتنظيم الجنود فى حملات تذهب إلى أسبانيا لمحاربة المسلمين . كما حرصت الكنيسة على تحوير الاتجاه العسكرى عن طريق إضفاء الصبغة المسيحية على الاحتفالات التى كان الجرمان يقومون بها فى وثنيتهم عندما يشب محارب عن الطوق . ولدينا دليل على أن قداسا أقيم سنة ٩٥٠ ميلادية فى ماينز Mainz لمباركة سيف محارب شاب . وكان هذا أقدم دليل على أن الطقوس المسيحية قد حلت محل الطقوس الوثنية فى هذه المناسبة ، وكانت الصلوات التى صاحبت هذا القداس تقول : "يا أبانا العظيم ، يامن سمحت باستخدام السيف لدفع خطايا الأشرار ، وللدفاع عن العدل .. أجعل عبدك الماثل أمامك هنا لايستخدم سيفه هذا أبدا ، أو أى سيف غيره ، لكى يؤذى أحدا دون وجه حق ، وإنما لكى يدافع عن الحق والعدل دائما .."(٧٢) .

وجاءت الحملة التى اقترحها أربان لتقدم البديل الذى يوفر لأبناء الطبقة الأرستقراطية العسكرية متنفسا لطاقتها العسكرية ونافذة لكبريائها الاجتماعى .

ومما يؤكد حرص البابوية على استغلال الحركة الصليبية كوسيلة لدعم السلام الداخلى أن فوشيه الشارترى ذكر أن البابا أربان الثانى ، الذى وصفه بأنه رجل يستحق الإعجاب ، ارتقى العرش البابوى فى زمن تصاعدت فيه الشرور من كل جانب ، وأخذ يناضل فى سبيل الارتقاء بمستوى الكنيسة ".. إذ أنه رأى الجميع ، من الكنسيين والعلمانيين على حد سواء ، يحطون من شأن الكنيسة ، وأن الناس قد تخلوا عن حركة السلام ؛ إذ لايكف أمراء البلاد عن الاقتتال ، كما رأى الناس يسرقون متاع الدنيا من بعضهم البعض ؛ لدرجة أن البعض كانوا يتعرضون للخطف ، ثم يلقون فى غياهب السجون حتى يتم افتداؤهم بفدية كبيرة ، وإلا تعرضوا للتعذيب بشرور ثلاثة : الجوع ، والعطش ، والبرد . ثم يتم إعدامهم سرا . كما تعرضت الأماكن المقدسة للهجوم ؛ فأُضْرِمَت النيران فى الكنائس والأديرة ، ولم يعد ثمة شئ بمأمن من الدمار .."(٧٣) هكذا يرسم فوشيه صورة مجتمع مزقته الفوضى والعداوة التى راح الناس ضحية لها ، ولهذا حرص البابا على "الارتقاء بالكنيسة" أى تأكيد سلطانها على المجتمع . لقد فشلت حركة السلام فى فرض الإستقرار لأنها لم تكن دعوة موجهة ضد الحرب فى ذاتها ؛ وإنما كانت موجهة ضد العنف الذى يصحب الحروب الإقطاعية ويضر غير المحاربين. والواقع أن حركة السلام قد أدت فى بعض الأحيان إلى شن الحرب ضد من يتجاوز قانونها . وهكذا تعين على البابا أن يوجه دعوته فى كليرمون إلى المحاربين .

ومن الأمور اللافتة للنظر فى هذا المقام أن البابوية قد توجهت إلى النبلاء الإقطاعيين دون أن تخاطب الملوك . فقد كان النزاع حول التقليد العلمانى قد جعل اشتراك الإمبراطور الألمانى فى مشروع بابوى من هذا النوع أمرا مستحيلا ، كما أن البابوية لم تكن تستطيع الاعتماد على فيليب الأول ١٠٦٠ - ١١٠٨م) ملك فرنسا أو وليم روفوس ملك إنجلترا(٧٤). وقد أشار وليم الصورى إلى هذه الحقيقة (٧٥) . ولهذا كان لابد أن توجه البابوية دعوتها إلى الأمراء الإقطاعيين لتكون وسيلتها ، أيضا ، فى التصدى لهؤلاء الملوك . لقد كشفت الحملة الصليبية عن أن الكنيسة الرومانية قد صارت قوة توحيدية فى العالم الكاثوليكى . فقد استطاع البابا من خلال هذا المشروع أن يوحد العالم الغربى . كما أن الفكرة الصليبية جمعت مابين الأرستقراطية العلمانية والأرستقراطية الكنسية بشكل جعل وجودها مستمراً فى أوربا . إذ إن كلاً من رجال الكنيسة والأمراء الإقطاعيين قد فهموا الإيديولوجية الصليبية على أنها وسيلة

لزيادة السلطة والقوة فى المجتمع : حقيقة أن الكنيسة قد طرحت هذه الإيديولوجية بهدف يختلف عن فهم العلمانيين لها ، ولكن هدف استغلال الحركة لزيادة الثروة والسلطة والنفوذ كان هدفا مشتركا بين الكنسيين والأرستقراطيين .

ومن المؤكد أننا يمكن أن نقول إن الحملة الصليبية ، كإيديولوجية ، "فعلة كنسية" Un fait ecclésiastique مثلما يقول بعض المؤرخين(٧٦) . ولكننا سنلاحظ أنها قد صارت أمرا واقعا، وحسم أمرها بفضل الدوافع الدنيوية ، لقد كان أربان الثانى يرى أن الحملة الصليبية يمكن أن تحقق أهدافا أربعة فضلا عن هدفها المعلن وهو استعادة الأرض المقدسة من المسلمين(٧٧). فهذه الحملة سوف تؤدى إلى إعادة توحيد العالم المسيحى بعد المنازعات المريرة التى سببت انقسامه حول الإصلاح الجريجورى ، وثانيا ، أن هذه الحملة ستزيد من الهيبة البابوية فى وقت كان فيه أنصار الإمبراطور الألمانى موجودين فى كل مكان حتى فى روما نفسها . وثالث هذه الأهداف أن هذه الحملة ستنهى الانشقاق بين كنيستى الشرق والغرب . أما الهدف الرابع من هذه الحملة فيمكن النظر إليه من خلال الحقيقة القائلة بأن أربان نفسه كان فرنسيا : فقد كان يعلم تماما أن الإمبراطور الألمانى لن يشارك ، وأن الحاكم الأنجلو - نورمانى (وليم روفوس) لن يشارك ، كما أشرنا من قبل ، وكان لابد أن يعتمد على جيوش الإمارات الإقطاعية الفرنسية بشكل أساسى .

وإذا كانت دوافع البابوية (التى كانت تمثيلا وتجسيدا للذين يصلون) وأهدافها من وراء الدعوة إلى الحملة الصليبية مختلطة ومتداخلة على هذا النحو ، وإذا كانت الدوافع الدنيوية واضحة بهذه الصورة ، فإن دوافع أولئك الذين أخذوا شارة الصليب من العلمانيين كانت على نفس الدرجة من التنوع والاختلاط سواء كان هؤلاء من الفرسان (الذين يحاربون) أو من عامة الناس والفلاحين (الذين يعملون) .

ولا شك فى أن كثيرين من فرسان الغرب الأوربى ، عشية الحروب الصليبية ، كانوا يتحرقون شوقا لقتال المسلمين ، كما كانت جوانحهم تضطرم بالحماسة الجارفة والشوق المحموم لانتزاع الأرض المقدسة من المسلمين . ونتيجة للجو الساخن الذى خلقته الدعاية المسعورة ، التى أذكت البابوية نيرانها ضد المسلمين ، كانت نفوس غالبية الفرسان تمور بالرغبة فى قتال المسلمين الذين أشاع دعاة البابوية والمبشرون الجوالون أنهم يدمرون للكنائس ويقتلون المسيحيين فى الشرق ، وأنهم يسببون كثيرا من الضيق والأذى للحجاج المسيحيين المسافرين إلى الأراضى المقدسة . لقد لجأت البابوية إلى كل الحيل الدعائية فى صياغة الإيديولوجية

الصليبية : فعمدت إلى الكذب ، وتزوير الوثائق ، والمبالغة ، وترويج قصص الأحلام المقدسة والرؤى الإعجازية ، وساهمت الظروف التاريخية فى غرب أوربا آنذاك فى نضج هذه الإيديولوجية كما بينا فى الفصل السابق . والواقع أن المؤرخين اللاتين ، والمؤرخين السريان والأرمن ، قد حرصوا على الترويج لمثل هذه الأمور . فقد ذكر متى الرهاوى أن كبار قادة بلاد الفرنجة قد ساروا بكل مافى وسعهم من قوة وقدرة لكى ينتقموا من المسلمين ".. ولكى يستعيدوا المدينة أورشليم من أيدى الكفار ، وليرفعوا أيدى المسلمين عن المقبرة التى يرقد فيها المسيح .." [٧٨] كما أن ميخائيل السوريانى يقول فى هذا الصدد "حين تعرض كثيرون لهذا الأذى ، أخذت الحماسة بصدور الملوك والكونتات وخرجوا من روما .."[٧٩] . وبغض النظر عن ابتعاد هذه الأقوال عن الحقيقة ، كما أوضحنا فى الصفحات السابقة ، فإنها كانت أخبارا شائعة فى المجتمع الأوربى بالقدر الذى جعل الكثيرين من الناس فى الغرب (ومنهم الفرسان بطبيعة الحال) يأخذونها مأخذ الجد . ومن هنا كان الشعور العدائى المتصاعد ضد المسلمين فى أوساط الفرسان اللاتين آنذاك واحدا من أهم دوافع هؤلاء للاشتراك فى حملة أربان الثانى .

ومن المهم أن نوضح أن هذا الشعور العدائى كان ناجما عن عدم معرفة الغرب بحقيقة المسلمين ؛ إذ كانت رؤية الغرب الكاثوليكية للمسلمين مستمدة من قصص الرعب التى أشاعها عنهم رجال الكنيسة ، ومن الأفكار التى روجت لها الأساطير التى ساهمت فى صياغة الإيديولوجية الصليبية ، مثل أسطورة حج شارلمان إلى فلسطين ، وحروبه وانتصاراته هناك ضد المسلمين[٨٠] ، ومن الملاحم التى شاعت فى أغنيات الـ Chansons de geste التى تتحدث عن بطولات الفرسان المسيحيين ضد المسلمين مثل أنشودة رولان[٨١] ، فضلا عن روايات الحجاج القادمين من الشرق والتى حملت طابع المبالغة (رغبة فى اكتساب ثقة المجتمع واحترامه) . وما كان المبشرون الجوالون والدعاة الكنسيون يروجونه بين الناس . والدليل على ذلك أن الوحشية التى كان الفرسان الفرنسيون القادمون عبر جبال البرانس لمساعدة المسيحيين الأسبان يظهرونها ، كانت تتناقض بشكل واضح مع تصرفات الفرسان المسيحيين الأسبان أنفسهم : فقد كان أمير اشبيلية المسلم ، مثلا ، حليفا لألفونسو السادس Alfonso أمير قشتالة (ت١١٠٨م) ، كما أن السيد القنبيطور Cid Compeador ، الذى جعلته الأساطير محاربا مسيحيا مثاليا ضد المسلمين ، لم يكن فى حقيقة أمره سوى جندى مرتزق يبيع سيفه لمن يدفع من المسلمين والمسيحيين على حد سواء[٨٢].

على أية حال ، فإن أهدافا ومطامع دنيوية عديدة كانت وراء مشاركة أبناء هذه الطبقة فى أخذ شارة الصليب . ولاشك فى أن البعض قد أخذوا شارة الصليب على أمل أن ينالوا الغفران عن خطاياهم ويدخلوا بذلك فى رحمة الرب . بيد أن البعض الآخر ، لاسيما من كبار الأمراء الإقطاعيين الفرنسيين كانوا يتحرقون شوقا للمغامرة فى الخارج بعد أن باتت فرصة الغزو والتوسع ضئيلة داخل الوطن . وفضلا عن ذلك فإن ارتفاع معدل الزيادة السكانية كان يعنى أن هناك عددا متزايدا من الفرسان الذين لايملكون أرضا فى فرنسا على استعداد لأن يدلوا بدلوهم فى حملة تتيح لهم فرصة الحصول على الضياع والأملاك فى فلسطين[٨٣] . وقد لعب البابا على أوتار هذا الأمل بشكل صريح فى خطبته فى كليرمون . ولاشك فى أن الأطماع الدنيوية قد حركت أبناء هذه الطبقة ؛ فقد داعبت خيال من يملكون صورة الضياع الجديدة التى يمكنهم إضافتها لأملاكهم فى الوطن لتزيد من ثراء عائلاتهم ، وترقى بهم درجات فى السلم الإقطاعى . أما الذين لايملكون ، فقد كانت صورة الضياع التى يمكنهم امتلاكها فى "الشرق العجيب" بحيث تعوضهم عن جوعهم إلى الأرض والذى عانوا منه كثيرا فى الوطن – كانت هذه الصورة تلهب مشاعرهم فعلا . وهكذا نخلص إلى أن هدفا أساسيا من أهداف طبقة الفرسان كان هو امتلاك الأرض التى كانت مصدر الثروة والسلطة فى ذلك الزمان .

ومن ناحية أخرى ، كان كثيرون من فرسان الغرب الأوربى فى القرن الحادى عشر فريسة للقلق والاضطراب من جراء قيود حركة السلام . وكان واضحا أن أولئك الفرسان سوف يستجيبون لأية دعوة توجهها البابوية لشن حرب ضد المسلمين فى الشرق ؛ إذ كان ذلك يكفل لهم الستار الدينى المناسب لإرضاء نزعاتهم العدوانية . ومن هذه الطائفة كان ريمون أمير تولوز الذى كان يئن تحت وطأة الإحساس بتضاؤل فرصة المغامرة فى الوطن ، وجودفرى دوق اللورين الأدنى . وقد شاعت قصص وأساطير كثيرة حول انضمام جودفرى للحملة ؛ ولكن الحقيقة أن هذا الأمير المغامر كان قد دمر الأديرة فى المناطق المجاورة لأملاكه فى بوايون ، وكانت أمه أيدا Ida المتدينة هى التى فرضت عليه أن يقدم بعض الهبات للكنائس لتحسين سمعته قبل الرحيل فى الحملة الصليبية . أما هو ، فقد قرر الرحيل عندما سرت أخبار الحملة الصليبية فى كل مكان ، وعندما رأى جيرانه من النبلاء يستعدون للرحيل[٨٤] .

كذلك كان بعض الفرسان الذين شاركوا فى الحملة يطمعون فى استعادة الهيبة التى خسروها فى أوطانهم من خلال انتصار عسكرى يحرزونه فى الحرب المقدسة بفلسطين . ومن هؤلاء كان دوق نورماندیا الذى كان هو الإبن الأكبر لوليم الفاتح . أما الكونت ستيفن حاكم

بلوا Stephen of Blois فقد شارك فى الحملة الأولى لأن زوجته الطموح ، ابنة وليم الفاتح ، قد دفعته إلى ذلك رغبة منها ألا يتخلف زوجها اللاهى العابث عن المشاركة فى أعظم أمجاد العصر : أى الحملة المقدسة المتجهة إلى الشرق ؛ وبذلك شارك ستيفن فى الحملة هربًا من سلاطة لسان زوجته . كذلك وجد البعض فى المشاركة فى الحملة إلى الشرق فرصة للهروب من العدالة . ويقول وليم الصورى(٨٥) إن البعض قد انضموا للآخرين حتى لايتركوا أصدقاءهم ، والبعض انضموا للحملة حتى لايظن الناس أنهم كسالى ، وآخرون لأسباب رعناء فقط ، أو هربا من دائنيهم .

وكانت هناك اعتبارات عملية أخرى حظيت باهتمام النبلاء ؛ فقد أكد البابا على أن أملاك وعائلات المحاربين من أفراد جيش المسيح Militia Christi ستكون معفاة من أية ضرائب تفرضها السلطة العلمانية ، وستوضع تحت حماية القانون الكنسى . وأعلن البابا كذلك أن أى عنف ضد جنود يسوع المسيح ستكون عقوبته الحرمان . وفى مقابل ذلك كان الفرسان ملتزمين تجاه الكنيسة بالوفاء بنذرهم بالمشاركة فى الحملة إلى الشرق . ومن ناحية أخرى ، كان هذا يعنى مزيدا من السيطرة الكنسية على حساب السلطة العلمانية ؛ إذ أن وضع أملاك الفرسان تحت حماية الكنيسة كان يؤدى إلى حرمان الحكام العلمانيين من الخدمات الإقطاعية التى كان هؤلاء الفرسان يؤدونها لهم بمقتضى القانون الإقطاعى ولفترة غير محدودة"(٨٦) .

وإذا كانت المثالية والرغبة فى الغفران ، أو الجوع إلى الأرض ، أو حب المغامرة .. وما إلى ذلك من أسباب ، هى الدوافع التى حركت "الذين يحاربون" للمشاركة فى الحملة البابوية ، فإن الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية القاهرة والمحبطة فى غرب أوربا آنذاك هى التى جعلت الكثيرين من "الذين يعملون" ، أى عامة الناس من الفلاحين وسكان المدن ، يهاجرون إلى الشرق فى ظل مباركة الكنيسة ورعايتها . ولأن أحلام المقهورين فى المجتمع الأوربى آنذاك لم تتحقق سوى فى القليل النادر ؛ فإنهم كانوا يعتقدون أنهم لن يخسروا شيئا بذهابهم إلى الشرق ، إذ لم يكن ينتظرهم فى الوطن سوى الموت جوعا أو قهرا تحت سيطرة سادتهم الإقطاعيين . ولكنهم كانوا يأملون فى أن تتحسن ظروفهم المعيشية فى الأرض "التى تفيض باللبن والعسل" ، بغض النظر عن الوعد الذى بذله البابا بالخلاص فى الحياة الآخرة(٨٧) .

إن اختلاف دوافع الطبقة المقهورة فى المجتمع الإقطاعى فى غرب أوربا عن دوافع كل من الفرسان ورجال الكنيسة ، على الرغم من أنهم جميعا تحركوا فى إطار الإيديولوجية الصليبية، ليؤكد أن الإيديولوجية تستخدم فى مرحلة التجهيز للحرب لكى تحرك المجتمع كله صوب هدف

عام وعلى أساس فكرى وأخلاقى واحد . وعندما تبدأ عجلة الحرب فى الدوران تكشف كل طبقة عن أهدافها الخاصة التى تختلف بالضرورة مع أهداف الطبقات الأخرى ، وربما تتناقض معها . فبينما سعت الطبقة العليا فى المجتمع الإقطاعى الأوربى (الكنسيون والفرسان) إلى تحقيق مزيد من السلطة والسيطرة والقوة من خلال هذه الإيديولوجية التى أفرزت الحركة الصليبية ، كان هدف العامة من المزارعين والأقنان وسكان المدن الفقراء هو التحرر من ربقة السيطرة الإقطاعية والكنسية فى مجتمع عرف التخصص فى الوظائف الاجتماعية للطبقات بشكل يقضى على أمل أبناء الطبقة المقهورة فى التحرر ؛ ومن ثم جاءت فكرة الحرب المقدسة لتحرير قبر المسيح فرصة هائلة لتحرير المقهورين ؛ إذ لم يكن من المنطقى أن يحرر قبر المخلص من يرسفون فى أغلال القنية .

ويرى جروسيه أن الحملة الشعبية قد خرجت ضد أهداف الكنيسة(٨٨) . ومن الواضح أن البابا كان يوجه خطابه إلى أبناء الطبقة المحاربة ، ولم يكن يتصور أن يخرج أبناء الطبقة المنتجة لكى يشاركوا فى هذه الحرب . وعندما أدرك أن جماهير العامة والفلاحين ستكون عقبة فى سبيل الحملة بذل بعض الجهد لمنعهم من الذهاب(٨٩) . ولكن الحافز على الرحيل كان أقوى من أن تعوقه هذه الإجراءات . إذ كانت الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية المتردية فى الغرب الأوربى آنذاك فى صالح الحركة الصليبية . ولكن دوافع الفلاحين والعامة كانت تتناقض تماما مع أهداف الكنيسة والنبلاء ؛ إذ رأى "الذين يعملون" فى الحركة فرصة هروبية من إسار الطبقية الإقطاعية ومن المجاعات والأوبئة التى كان الغرب يعانى منها فى القرن الحادى عشر.

كانت جماهير الفلاحين الذين يلتفون حول المبشرين الشعبيين غارقة فى غياهب الجهل والغباء ، كما كانت جموعهم واقعة تحت وطأة العجز واليأس من الظروف المعيشية السائدة ؛ ففى سنة ١٠٩٥م نفسها حدثت مجاعة رهيبة شملت معظم أنحاء الغرب الأوربى . وقد وصف سيجبير الجامبلوى Sigebert de Gembloux هذه السنة بأنها ".. سنة مصائب ، تفشت فيها المجاعة فى كل مكان ، وأخذ الفقراء يهاجمون الأغنياء لكى يسرقوهم وأخذوا يشعلون النار فى ممتلكاتهم .." (٩٠) لقد كانت الأرض عاجزة عن أن تعول سكانها ، ولم يكن ممكنا الإبقاء على جماهير الفلاحين فوق الحقول الشحيحة . وهذا هو مايمكن أن نفسر به خروج الأعداد الغفيرة وراء المبشرين من أمثال جوتييه المعدم وبطرس الناسك ووالتر المفلس .. وغيرهم فيما عرف باسم الحملة الشعبية أو حملة الفلاحين .

لقد كان العصر هو عصر التبشير الشعبى . ولكن عددا كبيرا من الذين شاركوا فى الحملة الشعبية (وفى حملة الفرسان أيضا) لم يكونوا يقدرون على التمييز بين أورشليم السماوية

وأورشليم الأرضية . ومن ثم كانت الصورة الغيبية عن القدس السماوية التى تختلط بواقع القدس الأرضية تؤثر تأثيرا عميقا فى وجدانهم ؛ اذ كانوا يظنون أنهم ماضون إلى الأرض التى لايوجد بها فقراء Pauperes ، والتى رسمها سفر الرؤيا ، على حين كانت رحلتهم الحقيقية تسعى صوب القدس الحقيقية على أرض فلسطين . هذه الصورة الأخروية التى اختلطت بالواقع المادى فى عقول جماهير الصليبيين كانت فى حقيقية أمرها نتاج تراث طويل فى الفكر الاجتماعى المسيحى . لقد كانت دعوة أربان الثانى تعنى بالنسبة لمن شاركوا فى الحملة الشعبية شيئاً لم يكن البابا نفسه يفهمه على حد تعبير نورمان كانتور [٩١] ؛ فقد كانوا يتوقون إلى التحرر من نير الإحباط والفقر اللذين خيما على حياتهم التعسة ، واكتشفوا فى عبارات البابا نغمات أخروية خلاصية كانت أبعد ما تكون عن نظرة البابا الدنيوية . كان ثمة اعتقاد شائع بأن العالم يقترب من نهايته ، وأن الحياة الدنيا التى خلقها الرب ، والتى تحولت إلى مكان للمنازعات بين قوى الشر والظلام ، سوف تنتهى بالدمار . وستكون علامة دمارها انفجار الصراع النهائى بين الشر والخير ؛ وسوف يذهب الشيطان إلى الجحيم ومعه كل الذين اختاروا حزبه ، على حين يذهب الأبرياء والعادلون للتمتع بحياة خالدة ومجيدة مع الرب[٩٢] . لقد ربط الفقراء أنفسهم بأولئك الأبرياء العادلين ، وشاع بينهم أن نهاية العالم القريبة سوف تنقلهم إلى أورشليم السماء حيث يستمتعون بالنعيم الخالد . هذا التراث هو الذى جعل القدس السماوية تختلط بالقدس الأرضية فى أحلام المقهورين من أبناء الغرب الأوربى ؛ وهو تراث كان يمثل ركيزة الفكر الغربى الشعبى فى القرن الحادى عشر ، أى عشية الحروب الصليبية[٩٣] .

هكذا ، نصل إلى صورة حقيقية ، قدر المستطاع ، للدوافع والأهداف التى حفزت قوى المجتمع الأوربى فى القرن الحادى عشر للمشاركة فى حملة أربان الثانى . وفى تصورنا أننا نستطيع أن نقرر أن الحسم فى مصير الحركة الصليبية كان من نصيب العوامل الدنيوية على الرغم من أن الإيديولوجية التى تحرك الجميع فى إطارها قد نسجتٍ على أساس دينى ، وحددت هدفا دينيا مثيرا هو تحرير الأرض التى مشى يسرع المسيح فوق ترابها . لقد كانت دوافع القوى الاجتماعية فى الغرب الأوربى للمشاركة فى هذه الحرب خليطا من الدوافع السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية انصهرت جميعها فى بوتقة الإيديولوجية التى أفرزت الحركة الصليبية .

والحقيقة أن كثيرين من الناس فى الغرب مايزالون ينظرون إلى الحروب الصليبية نظرة رومانسية؛ لأن مشهدها يجسد العقيدة وهى تسير للقتال بأسلحتها المشرعة تتألق تحت الشمس ، كما أن الجيش الصليبى نفسه يبدو فى عيونهم جيشا من الرجال النبلاء الذين هذبتهم تقاليد الفروسية على الرغم من ميولهم الحربية وحبهم للقتال(٩٤) . ولكن الحقيقة أن الصورة الفعلية للحروب الصليبية تحمل كثيرا من الملامح القاتمة . وقصة الحروب الصليبية حافلة بمشاهد الطمع والخسة ، وصور الخزى والعار ؛ فقد كان الصليبيون قوما همجيين متوحشين ، حتى بمقاييس ذلك الزمان ، لايرعون عهدا ولايصونون وعدهم فى كثير الأحيان . بل إن العلاقات بين الصليبيين أنفسهم كانت غاصة بالحقد والخلافات . وعلى الرغم من أنه كان يفترض أن الصليبيين هم جند الرب المحاربون فى خدمته ؛ فالواقع أنهم قد صدروا أحقادهم وحروبهم الإقطاعية إلى الأرض التى شهدت خطوات المسيح .

إن الحوادث والأفكار المعقدة المتشابكة التى أدت إلى ميلاد الحركة الصليبية فى رحم الإيديولوجية التى حركت كافة القوى الاجتماعية ، وتفسيرات المؤرخين لأسباب ونتائج هذه الظاهرة التاريخية الفذة تقدم للمهتمين بدراسة المجتمع الإنسانى نموذجا فريدا عن مدى مايمكن أن ينتج عن حركة القوى الاجتماعية من استجابات . ففى أوربا الغربية ، أواخر القرن الحادى عشر ، كانت دعوة أربان الثانى تطرح أمام المجتمع الذى مزقه الانقسام هدفا عاما يمكن لكل قوة من القوى الفاعلة فى هذا المجتمع أن تعبر عن نفسها من خلاله . وحين تحرك المجتمع صوب هذا الهدف العام ، كشفت كل قوة من القوى الاجتماعية عن فهمها الخاص للإيديولوجية التى تحركت فى إطارها . وهذا موضوع الفصلين التاليين من هذه الدراسة .

هوامش الفصل الثانى

(١) Gesta Francorum, introd, pp. xx-xxi .

وأنظر على سبيل المثال ما يذكره فوشيه دى شارتر (Fulcher of Chartres, p. 57, pp. 61-2) حيث يكشف عن مجموعة من الأسباب المتنوعة والمختلفة وراء الدعوة التى أطلقها أربان فى كليرمون ؛ منها أحوال ملوك أوربا ، والفوضى التى استشرت فى المجتمع ، فضلا عن احتلال الأتراك السلاجقة لبعض أقاليم الدولة البيزنطية . ومن المهم أن نشير إلى أن وليم الصورى قد كرر نفس كلام فوشيه تقريبا كما أن وليم الصورى يذكر أسبابا أخرى دفعت البعض لأخذ شارة الصليب ؛ مثل الرغبة فى عدم ترك الأصدقاء ، أو الهرب من الديون .. وما إلى ذلك ،

أنظر : Willian of Tyre, vol I, pp. 75-76, p. 93 .

أنظر أيضا الصفحات التالية من هذا الفصل حيث سنوضح دوافع القوى الاجتماعية المختلفة .

(٢) Fulcher of Chartres, p. 68; Gesta Francorum, p. 2; Guibert de Nogent (in Petres. (ed.), The First Crusade), p. 15.

(٣) أنظر تفاصيل ذلك فى الفصل الثالث من هذه الدراسة .

(٤) تقول آنا كومنينا ".. الجنس اللاتينى فى كل الأوقات موصوم بجشع غريب ونهم للثروة والمال .."

أنظر : The Alexiad of Anna Commena, (transl. from the Greek by E.R.A. Sewter, Penguin 1979), p. 312 .

(٥) Gesta Francorum, pp. 3 - 4 .

(٦) ذكر وليم الصورى أنه أثناء حوادث حصار أنطاكية أمر بوهيموند النورمانى بتعليق بعض الأسرى المسلمين فوق النار كما لو كان سيشويهم . وأمر رجاله بأن يجيبوا إذا سألهم أحد عن هذا بأنهم منذ ذلك الحين فصاعدا ، وبناء على أوامر قادتهم ، سوف يأكلون أجساد الجواسيس الذين يتم القبض عليهم .. وإذ انتشرت هذه الشائعة أصيب الجواسيس الموجودون فى المعسكر بالهلع .. وفروا إلى بلادهم حيث انتشرت هذه الشائعات فى الشرق بأسره ، أنظر : William of Tyre, vol. I, pp. 222-23 .

(٧) لدينا عدة روايات عن خطبة أربان فى كليرمون ، فقد ذكر فوشيه دى شارتر أن البابا خاطب من تجمعوا لسماعه بقوله : "أيها الأخوة الأعزاء ، لقد جئت أنا أربان ، الأسقف الأعلى بإذن الرب ، وراعى العالم كله ، فى هذا الوقت إليكم ياخدام الرب فى هذه المناطق كرسول للعناية الإلهية .."

وأنه قال "الرب ، وليست أنا ، يهيب بكم كرعية للمسيح .. أن تسارعوا إلى استئصال شأفة هذا الجنس الشرير من أرضنا .."

Fulcher of Chartres, pp. 62-66 .

كذلك ذكر روبير الراهب أنه قال "ياشعب الفرنجة ، يا من جئتم عبر الجبال ، يا من اختارهم الرب وأحبهم".

Robert the Monk, (in Peters, (ed.) The First Crusade, pp. 2-5 .

أنظر أيضا : Guibert of Nogent, (in Riley - Smith (ed.) The Crusades, pp. 45-59 .

(٨) أنظر نص الخطبة برواية روبير الراهب ، وفوشيه دى شارتر ، وبلدريك الدوللى ، وجيوبرت النوجنتى فى ملاحق الدراسة .

(٩) أنظر نص هذا الخطاب فى : Peters (ed.) The First Crusade,.pp. 15-16 .

وهناك ترجمة أخرى لنفس الوثيقة باللغة الإنجليزية ، أنظر :

Riley-Smith (eds). The Crusades, p. 38 .

(١٠) Ibid, pp. 38-40 .

(١١) Philippe Wolff, The Awakening of Europe (transl. from French by Anne Carter, Penguin 1968), p. 208; Cantor, Med. Hist., pp. 265-70 ; Hoyt and Chodorow, Europe

in the Middie Ages, pp. 304-310 ; Painter, "Western Europe on the Eve of the Crusades", p. 3 .

(١٢) Maurice Keen, The Pelican History of Medieval Europe, (Penguin 1982), pp. 84-87; Bishop, The Penguin Book of the Middle Ages (Penguin 1971), pp. 45-46 .

(١٣) عن هذا الموضوع أنظر :

Henri Pirenne, Economic and Social History of Medieval Europe, (London 1972 - 9the ed.), pp. 42-49; Cantor, Med. Hist., pp. 267-268 .

(١٤) مع القلاقل التى شهدها القرنان التاسع والعاشر فى أوربا ، كانت الحاجة الاجتماعية الملحة هى الحماية وتوفير الأمن الذى لم يكن يستطيع توفيره سوى الأقوياء . ولكى يقوم الأقوياء بهذه المهمة فقد كانوا بحاجة لمن يعملون لإطعامهم هم ورجالهم . وهكذا لم يعد يربط المجتمع ببعضه الإلتزام

بالصالح العام ، وإنما التزام كل فرد بالقسم الشخصى الذى قطعه لشخص آخر . وكان سلام المجتمع يتوقف على مدى وفاء أولئك الأفراد بما قطعوه على أنفسهم من عهود ، أنظر :

Keen, Pelican Book, pp. 51-57 .

G.G. Coulton, The Medieval Scene, (Cambridge 1930), pp. 4-6 .

(١٥) Painter, "Western Europe", p. 9 .

(١٦) Mayer, The Crusades, p. 22; Keen, Pelican Book, p. 123; Duncalf, "The First Crusade : Clemont to Constan-tinople", in Setton (ed.) A hist. of the Crusades, pp. 253-255; Bradford, The Sword, pp. 30-31 .

(١٧) Marc Bloch, Feudal Society (The University of Chicago Press 1961), pp. 72-73 .

(١٨) Wolff, The Awakening of Europe, pp. 198-202; Cantor, Med. Hist., pp. 265-270; Painter, "Western Europe", p. 3 .

(١٩) أنظر الفصل السابق .

(٢٠) Wood, The Age of Chivalry, pp. 96-7; Cowdray "The Genesis of the Crusade", p. 14; Bryce D. Lyon (ed.) The High Middle Ages 1000-1300 (U.S.A. 1964), pp. 3-7 .

ويورد لنا هذا الكتاب نصا عن مصرع شارل الطيب كونت الفلاندرز وهو يحاول إقرار السلام . وعلى الرغم من أن هذه الوثيقة التى كتبها Galbert of Flanders ترجع أحداثها إلى مابين ١١١٩ ، وسنة ١١٢٤م فإن قربها من زمن الحملة الأولى يجعلنا نعتمد عليها لتصوير محاولات إقرار السلام .

(٢١) Bloch, Feudal Society, p. 72 .

(٢٢) Coulton, Med. Scene, pp. 23-26 .

وينبغى أن نلاحظ أن الكثيرين غالبا مايتحدثون عن النظام الإقطاعى ، كما لو كان نظاما واحدا فى جميع أنحاء أوربا ولكن الحقيقة أن كل منطقة أفرزت خصائص خاصة بها ، كما أن المدى الزمنى للتطور الإقطاعى اختلف من منطقة لأخرى ، ومن ثم ينبغى أن نتوخى الحذر فى رصد التطورات التى مرت بها المجتمعات الإقطاعية فى الغرب الأوربى وأن ندرك أن ماحدث فى المنطقة التى تعرف باسم شمال فرنسا حاليا ، لايصدق بالضرورة على مناطق أخرى ، أنظر حول هذا الموضوع :

Keen, The Pelican Book, pp. 57-58 .

وكذلك ، نورمان كانتور ، التاريخ الوسيط ، ص٣٣١- ص٣٤٤ .

(٢٣) Coulton, Med. Scene, pp. 23-26; Painter, "Western Europe" p. 6; keen, The Pelican Book, p. 58 .

(٢٤) Coulton, op. cit., p. 33-34 ; Painter, op. cit., pp. 4-6 .

(٢٥) Duncalf, "Clermont to Constantinople", p. 256 .

(٢٦) Coulton, Med. Scene pp. 29-30;

(٢٧) Ibid., p. 30 .

(٢٨) Wolff, The Awakening of Europe, p. 199 .

(٢٩) Roy C. Cave and Herbert H. Coulson (ed.), A Source Book for Medieval Economic History (Biblo and Tannen, New York 1965), pp. 46-48 .

أنظر ترجمة هذا النص فى ملاحق الكتاب . ويرى كولتون أنه كان لابد أن يكون بالقرية حداد متطوع؛ فإذا لم يتطوع أحد يرغم السيد أحد الفلاحين على القيام بهذا العمل الذى كان ضروريا للجماعة ، كما كان لابد من وجود تجار بالقرية . أما الحانك فلم يكن وجوده شائعا فى القرى ، كما لم تكن بالقرية أية حوانيت ، أنظر : Coulton, op. cit., pp. 31-32

(٣٠) Wolff, The awakening of Europe, p. 202; Coulton, The Medieval Scene, pp. 33-34.

(٣١) Painter, "Western Europe", p. 6; Coulton, The Med. Scene, pp. 37-39 .

(٣٢) Marc Bloch, Feudal Society, p. 80 .

(٣٣) Painter "Western Europe", pp. 6-7; Marc Block, Feudal Society, pp. 80-81 .

(٣٤) Ralph Glaber, Historiarum Libri Quinque (The Five Books of His Histories) in Bryce D. Lyon (ed.) The High Middle Ages, pp. 34-39 .

أنظر الترجمة العربية لهذا النص فى ملاحق الكتاب . أنظر أيضا :-

Alphandéry, La Chrétienté, pp. 24-26; Thomas Keightley, The Crusades, or, Scenes, events and Characters from the times of the Crusades, (4th ed. London 1879), pp. 27-28 .

(٣٥) عن هذا الموضوع بالتفصيل أنظر :

J.C. Russell, "Population in Europe 500-1500" in The Fontana Economic History of Europe, The Middle Ages, editor Carlo M. Cipolla (William Collins Sons and Co. Glasgow 1968), pp. 25-70 .

(٣٦) Cowdrey, "The Genesis of the Crusades", p. 13' Keen, The Pelican Book, p. 123 .

(٣٧) كانتور ، التاريخ الوسيط ، ص٣٤١-ص ٣٤٣ ؛ Mayer, The Crusades, p. 22 .

(٣٨) Cowdrey, "The Genesis of the Crusades", p. 13 .

(٣٩) Sidney Painter, A History of the Middle Ages - 284-1500 (New York 1954), p. 118; "Western Europe", p. 14; Keen, The Pelican Book, pp. 57; Bishop, The Penguin

Book, p. 86 .

(٤٠) Bishop, The Penguin Book, pp. 86-ff; Cowdrey, "The Genesis", pp. 14-15.

(٤١) حول هذا الموضوع أنظر : قاسم عبده قاسم "صورة المقاتل الصليبي في المصادر العربية" المجلة التاريخية المصرية ، المجلد السابع والعشرون ، ١٩٨٠ ، ص٩ - ص٣٧ .

(٤٢) Painter, A hist. of the Middle Ages, pp. 19-20; "Western Europe", pp. 14-15; Wood, The Age of Chivalry, p. 100 .

(٤٣) Brian Tierney and Sidney Painter, Western Europe in the Middle Ages 300-1475, pp. 135-138;

كانتور ، التاريخ الوسيط ، ص٣٣٧-٣٣٨ .

(٤٤) Mayer, The Crusades, p. 19; Bryce D. Lyon (ed.) The High Middle Ages, pp. 15-16 .

(٤٥) كانتور ، التاريخ الوسيط ، ص ٢٧٠- ص٢٧١ .

(٤٦) المرجع نفسه ، ص٢٧٢ - ص٢٣٧ ؛

Bradford, The Sage of the Crusades, pp. 15-16 .

(٤٧) نسبة إلى جريجوري السابع أبرز أقطاب هذه الحركة الإصلاحية الإمبراطورية ، ولدينا مجموعة وثائق حول هذا الموضوع ، أنظر :

Pope Nicholas II, Decree on papal elections (1095) ; Dictatus Papae (1075); Letter of the Synod of Worms to Gregory VII (January 1076); Deposition of Henry IV by Gregory VII (February 1907) in Lyon (ed.) The High Middle Ages, pp. 87-102 .

(٤٨) Bishop, The Penguin Book of the Middle Ages, p. 167 .

(٤٩) Painter, "Western Europe on the Eve of the Crusades", p. 29 .

(٥٠) Painter, "Western Europe on the Eve of the Crusade", pp. 9-10; Cantor, Med. Hist., pp. 271-272 .

ومن المهم كذلك أن نشير إلى أن هذه الفترة شهدت انتعاشا للحرف اليدوية بشكل مطرد ، فقد زاد عدد الحرفيين الذين كانوا يقدمون لجماهير المدن النامية حاجاتهم من الكساء والأثاث وغيره . وكان أولئك الحرفيون هم بناة المساكن الجديدة وصناع الأثاث الضرورى لبيوت ذلك الزمان ، أنظر :

Wolff, The Awakening of Europe, p. 202; Sylcia Thrupp, "Medieval Industry 1000-1500" in the Fontana Economic history pp. 221-273 .

(٥١) Riley - Smith, The Crusades, p. 10 .

(٥٢) The Penguin Book of the Middle Ages, p. 104 .

(٥٣) Fulcher of Chartres, pp. 62-63 .

(٥٤) Roberti Monachi, Historia Hierosoltmitana, in RHC, occ., III, pp. 727-30 .

أنظر نص الترجمة الإنجليزية لخطبة أربان فى رواية روبير الراهب : -

Peters (ed.)The First Crusade, pp. 2- 5; Riley-Smith (ed.) The Crusades, pp. 42-45.

(٥٥) RHC, occ., IV, 12-16 .

أنظر نص الترجمة الإنجليزية فى :

Peters, op. cit., pp. 6-10; Riley - Smith, op. cit., pp. 49-53.

(٥٦) Historia quae dicitur Gesta Dei per Francos, RHC, Occ, IV, pp. 137-40 .

أنظر الترجمة الإنجليزية فى :

Peters, op. cit., pp. 10-15; Riley - Smith, op. cit., pp. 45-59 .

(٥٧) أفضل مناقشة لخطبة أربان الثانى بكليرمون هى تلك التى قامت بها "داناً مونرو" اعتمادا على روايات المؤرخين المعاصرون ، أنظر :

D.C. Munro, "The speech of Pope Urban II at Clermont" American Historical Review, 11 (1905), pp. 231-242 .

(٥٨) i) Urban to all the faithful in Flanders, December 1095;

ii) Urban to his partisans in Bologna, 19 sept. 1096; iii) Urban to the religous of the congregation of Vallombrosa, 7 Oct. 1096;

iv) Urban ro Counts of Besalu Empurias, Roussillon and Cerdana and their Knights, C. January 1096-29 July 1099. in Riley Smith (ed.) The Crusades, pp. 38-40 .

أنظر نصوص هذه الخطابات فى ملاحق الدراسة .

(٥٩) Gest Francorum, (introduction), pp. xxi-xxii; Michaud, Histoire, tom. I, p. 6, p. 27; Jerusalem Pilgrims, pp. 137-38; Claude Cahen, "The Turkish invasion : The Salchukids", in Setton, vol. I, pp. 137-76 .

(٦٠) AOL, pp. 14-15, 92-94 .

ويرى أن بداية الحركة الصليبية ترجع إلى احتلال السلاجقة لفلسطين وسياستهم غير المتسامحة تجاه المسيحيين ، ويجاريه فى هذا الرأى جروسيه ، أنظر :

R. Grousset, Histoire des Croisades et du Royaume Franc de Jérusalem, (Libraire Plon, Paris 1934), tom, I, pp. 3-5 .

كذلك فإن ميخائيل السوريانى قد ذكر مثل هذا الكلام فى حوليته ، أنظر :

Chronique de Michel le Syrien, editée et traduite par J.B. Chabot, (Paris, 1899-1910), tom. III, p. 182 .

(٦١) Mayer, The Crusades, p. 6; Boase, Kingdons and strongholds, p. 15; Runciman, "Pilgrimage", p. 77; Cowdrey "The Genesis", p. 12; Cahen, op. cit., p. 153 .

(٦٢) Mayer, The Crusades p. 3; Boase, Kingdoms and Strongholds, p. 9;

(٦٣) عن معركة مانزكرت أنظر :

Michel Psellus, Chronographie, ou, Histoire d'un siécle de Byzance (976 - 1077), Texte établi et traduit par Emile Renauld, (Paris 1926), tom. II, pp. 158 - 172 ;

Michel le Syrien tom. III, pp. 168-171;

Jean Dardel, Chronique D'Arménie, RHC, Arm. II, p. 6; Cahen, "The Turkish invasion", pp. 147-49; Brehier, l'église, pp. 5051 .

أنظر أيضا : ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، جـ ١٠ ، ص٦٥- ص٦٧ ؛ ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ، ص١٨٥ ؛ عبد الغنى محمود عبد العاطى ، السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية (رسالة دكتوراه غير منشورة) ص٣٨ - ص٤٩ .

(٦٤) عن هذا الموضوع أنظر : اسحق تاوضروس عبيد ، روما وبيزنطة - من قطيعة فوشيوس حتى الغزو اللاتينى لمدينة قسطنطين ٨٧٩-١٢٠٤ (دار المعارف ١٩٧٠) ، ص٢٥ - ص٣٩ .

(٦٥) Bréhiere, l'église, p. 51; Bradford, The Sword, pp. 22-26; Mayer, The Crusades, p. 3;

(٦٦) أنظر الفصل السابق ، وكذلك : AOL, Tom. I, pp. 56-61 .

(٦٧) هذا الانقلاب نتج عنه ارتقاء نقفور بوتنياتس لعرش الإمبراطورية لمدة سنوات ثلاث فقط (١٠٧٨-١٠٨١م) ، أنظر : عبد الغنى محمود عبد العاطى ، السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية ، ص٨٣- ص٩٠ .

(٦٨) كان أربان الثانى (١٠٨٨-١٠٩٩) الذى لجأ إليه اليكسيوس كومنينوس فى طلب المساعدة العسكرية من الغرب ، قد ورث ظروفا تشبه ، إلى حد ما ، تلك الظروف التى ورثها اليكسيوس . حقيقة أن النورمان كانوا يؤيدونه ، ولكن روما كانت تحت حكم بابا معاكس عينه الإمبراطور الألمانى، ولم يستطع أربان خلعه إلا سنة ١٠٩٣م . ولم يشعر أربان بالأمان أبدا بسبب عداء هنرى الرابع إلا بعد أن أعلن ابن الإمبراطور عصيانه ضد أبيه ، أنظر : Bradford, The Sword, pp. 27-28.

(٦٩) H. Hagenmeyer, "Etudes sur la chronique de Zimmern", traduit par Raynaud, cf. AOL, tom. II, pp. 66 - 67; Mayer, The Crusades pp. 7-8; Boase, Kingdoms and strongholds, p. 12 .

ومن المهم أن نشير هنا إلى أنه كان لابد للإمبراطور البيزنطى من إعادة بناء الجيش الذى وصل إلى درجة من التدهور أخطر من حاله عقب مانزكرت وكانت وسيلته الوحيدة هى الاستعانة بالمرتزقة الذين لم يكن استخدامهم أمرا جديدا على جيوش الإمبراطورية .

(٧٠) AOL, tom. II, pp. 101-105 .

(٧١) Duncalf, "The councils of Piacenza and Clermont", p. 249; Saunders, Aspects of the Crusades, pp. 18-12; Cantor, Med. Hist., pp. 326-331 .

حيث يناقش كيف أساءت البابوية استخدام الفكرة الصليبية كأداة سياسية ضد أعدائها فى أوربا .

(٧٢) Brundage, The Just War, p. 34; Riley - Smith, The Crusades, pp. 1-3; Bradord, The Sword, pp. 30 - 31 ; Kean, The Pelican History, p. 121 - 123 ; Bréhier, l'église, pp. 60-61 .

(٧٣) Fulcher of Chartres, p. 62 .

(٧٤) كان الملك الفرنسى قد تعرض لعقوبة الحرمان بسبب اتهامه بالزنا بعد أن طلق زوجته برتا Bertha سنة ١٠٩٤م ، على حين كانت سياسة روفوس معادية للبابوية ، أنظر :

Mayer; The Crusades, pp. 1-2; Cantor, Med. Hist., pp. 312, ff.

(٧٥) William of Tyre, vol. I, pp. 85-87 .

(٧٦) Bradford, The Sword, p. 31 .

(٧٧) Cantor, Med. Hist. p. 320 .

(٧٨) Matt. d'Edessa, RHC., Arm., I, p. 25 .

(٧٩) Michel le Syrien, tom. III, p. 182 .

(٨٠) أنظر تحليل كونت ريان لهذه الأسطورة فى :

AOL, tom. I, pp. 9-22 .

وعن هذا الموضوع أيضا أنظر :

Thomas Bulfinch, The Age of Chivalry and Legends of Charlemagne, or, Romance of the Middle Ages, (New American library, New York 1962).

(٨١) عن هذا الموضوع أنظر : جوزيف نسيم يوسف ، "أنشودة رولان : قيمتها التاريخية ، وما أثير حولها من جدل ونقاش " فى ندوة التاريخ الوسيط (تحرير قاسم عبده قاسم ورأفت عبد الحميد ، المجلد الأول ١٩٨٢ دار المعارف) ، ص٧٥ – ص١٠٤ .

(٨٢) الطاهر أحمد مكى ، ملحمة السيد – دراسة مقارنة (دار المعارف ١٩٧٩ ، ط . ثانية) ص٧٩–ص١٤٢ .

(٨٣) Cantor, Med. Hist., p. 320; Bishop, The Penguin Book, p. 105 .

(٨٤) Duncalf, "Clermon to Constantinople", pp. 266-269 .

جوزيف نسيم ، العرب والروم واللاتين فى الحرب الصليبية الأولى (دار المعارف ١٩٦٣ ، ط . أولى) ص١٥٣ – ص١٥٦ .

(٨٥) William of Tyre, vol. I, p. 93 .

(٨٦) Duncalr, "The Councils", p. 247-249; Boase, Kingdoms and strongholds; p. 16; Michaud, Histoire de Croisades, tom . I, pp. 9-10 ; Bradford, the Sword, p. 31 .

(٨٧) Boase, Kingsoms and strongholds, pp. 16-17; Bradford, The Sword, p. 15; Bishop, The Penguin Book, p. 105; Cantor, Med. Hist., p. 322 .

أنظر أيضا : يوشع براور ، عالم الصليبين (ترجمة وتقديم وتعليق قاسم عبده قاسم ومحمد خليفة حسن - دار المعارف ١٩٨١م) ص٤٤ - ص٤٥ .

(٨٨) Grousset, Histoire des Croisade, tom I, p. II.

(٨٩) أنظر نصوص خطابات أربان الثانى فى هذا الشأن .

Riley-Smith (ed.) The Crusades, pp. 37-40; cf. Duncalf, "Clermont to constantinople", pp. 253-255 .

أنظر الفصل الثالث أيضا لمزيد من التفاصيب حول هذا الموضوع .

(٩٠) Bradford, The Sword, p. 30-31; Boase, Kingdoms and strongholds, pp. 16-17 .

(٩١) Cantor, Med. Hist., pp. 322-323 .

(٩٢) L' An mile, pp. vii-xi; Mayer, The Crusades, pp. 12-13;

Runciman, A hist of the Crusades, vol. I, p. 115 .

(٩٣) Alphandéry, La Chrétienté, pp. 23-24; Bishop, The Penguin Book, p. 105; Bloch, Feudal Society, pp. 81-85 .

(٩٤) Wood, The Age of Chivalry. pp. 94-95; Cantor, Med. Hist.p. 317 .

الفصل الثالث

بين المثال والواقع : الحملة الشعبية

خطبة أربان الثانى فى كليرمون - استمرار الدعاية البابوية - الاستجابة الشعبية ودلالاتها - الدعاة والمبشرون الجوالون - أسطورة بطرس الناسك - الجو الفكرى والنفسى- بداية رحيل الحملات الشعبية - والتر المفلس - حملة بطرس الناسك - الفرق الأخرى ومصيرها - المواجهة مع الشرق : فى القسطنطينية - فى آسيا الصغرى - النهاية - موقف المؤرخين اللاتين من الحملة الشعبية ومغزاه .

فى كليرمون ، وفى حقل فسيح يمتد بين تلال أوفرينى Auvergne خارج المدينة ، اختتم مؤتمر كليرمون الكنسى أعماله فى السابع والعشرين من نوفمبر سنة ١٠٩٥م بخطاب وجهه البابا أربان الثانى إلى جمع غفير من الناس ، علمانيين وكنسيين ، كانوا قد احتشدوا فى هذا المكان بدعوة من البابا نفسه[١] . وكانت الخطبة التى ألقاها البابا فى ذلك المكان تتضمن فى ثناياها مشروع حملة عسكرية تحت راية الصليب تتوجه صوب الشرق ، لقتال المسلمين ولتستولى منهم على الأماكن المقدسة .

وقد ثار جدل كبير بين المؤرخين حول ما قاله أربان الثانى فى كليرمون ؛ بيد أن الراجح من قراءة النصوص التى أوردها المؤرخون ، أنه كان يدعو إلى حملة مقدسة ، اعتمادا على نصوص من الإنجيل ، وأهمها نص من إنجيل لوقا[٢] . وقد خاطب أربان سامعيه باسم الرب[٣] ، وباعتباره نائبا عنه ، ودعاهم إلى شن الحرب فى سبيل المسيح ، وبرر هذه الحرب بأنها تهدف إلى تحرير المسيحيين فى الشرق والأرض المقدسة التى وصفها بأنها ميراث المسيح[٤] . وامتدح الفرنجة كمحاربين ، ولكنه نهاهم عن الاقتتال فيما بينهم ، وحثهم على ترك المنازعات وعدم إراقة الدماء المسيحية . كما قارن بين الفارس الجديد الذى يحب المسيح ويحمل صليبه ، ويحب جاره ويناضل لتحريره ، والفارس القديم الذى يسعى وراء طموحاته الخاصة وأطماعه الشخصية ؛ فيصب العنف على أخوته المسيحيين[٥] . كذلك أشار أربان الثانى إلى أن الغفران سيكون من نصيب المشاركين فى هذه الحملة لقاء المشاق والصعاب التى سوف يتجشمونها فى طريقهم إلى الأرض التى شهدت قصة المسيح على الأرض .

كانت خطبة البابا التى تضمنت كل هذه النقاط ،وغيرها ، بمثابة الصياغة النهائية للإيديولوجية التى أفرزت الحركة الصليبية . وإذ أوضحنا فى الفصل السابق من هذه الدراسة أن كل طبقة فى المجتمع آنذاك قد فهمت هذه الإيديولوجية بالشكل الذى يتوافق مع أهداف الطبقة ودوافعها ، فمن الضرورى أن نوضح أن استجابة المجتمع الأوربى للدعوة التى أطلقها أربان قد فاقت توقعات البابا وأعضاء البلاط البابوى . وفى تصورنا أن هذا أمر طبيعى ؛ إذ أن البابوية كانت تتوقع أن يستجيب المجتمع لدعوتها حقا ؛ ولكنها كانت تتوقع استجابة فى حدود الأهداف البابوية المرسومة . ولكن ماحدث كان خارج نطاق الأهداف البابوية ؛ ومن ثم كان لابد أن تكون الاستجابة خارج نطاق توقعاتها . وكان هذا نتيجة طبيعية لاختلاف أهداف القوى الاجتماعية التى اعتنقت الإيديولوجية الصليبية ، واستجابت لنداء البابوية فى كليرمون.

وتخبرنا المصادر التاريخية المعاصرة أن صيحات انطلقت تقول Deus Vult (أى الرب يريدها) ، أثناء خطبة البابا وبعد نهايتها ، وأن البابا طلب أن تكون هذه العبارة هى صيحة الحرب التى يستخدمها الصليبيون فى معاركهم(٦) وفى المكان نفسه أقسم عدد كبير على القيام "بالرحلة" وخاطوا صلبانا من القماش الأحمر على ستراتهم كشاهد على النذر الذى قطعوه على أنفسهم(٧) . وبعد أن رجع الذين حضروا المؤتمر إلى بيوتهم وبلادهم أخبروا الذين لم يحضروا بما حدث(٨) ، كما تولى الدعاة البابويون نشر الدعوة فى كل مكان وساعدهم المبشرون الشعبيون فى إذكاء نار الحماسة الصليبية على نحو ما سنرى .

والواقع أن الدعوة التى أطلقها أربان الثانى فى كليرمون كانت دعوة تناسب العصر تماما . فقد أثارت الخيال الإحيائى الذى كان بمثابة الأريج الثقافى لذلك العصر . كما كانت الظروف مواتية لتحقيق هذا الحلم . إذ كان الدين قوام الحياة الأوربية وعليه مدارها آنذاك ؛ ولكنه كان دينا عاطفيا لا عقلانيا ، مثقلا بالكثير من العناصر الغيبية والخرافات ومظاهر عبادة الطبيعة. ومن ناحية أخرى ، كان سكان أوربا يتزايدون وكان الناس قلقين يبحثون عن أراض جديدة وعن موارد جديدة ، وكانت أوربا الغربية أعجز من أن تستوعب هذا النمو ، فأخذ الناس يفتشون عن مسارب جديدة للطاقة ، ومنافذ للطاقة الزائدة ، وكل الذين استمعوا إلى أوربان فى كليرمون ، وكل الذين سمعوا عن خطبته بعد أن ضخمتها المبالغات المعهودة فى مثل هذه الظروف - كلهم كانت عقولهم قد تغذت على قصص الكتاب المقدس عن ثراء أرض فلسطين وخصوبتها . وكان الناس آنذاك يخلطون بين مدينة القدس الحقيقية ، وبين القدس

السماوية التى تصوروها مدينة تحيط بها أسوار لؤلؤية ، ويضيئها شعاع ربانى ، على حين تتدفق المياه العذبة فى شوارعها الفضية(٩) .

لقد وجه البابا دعوته إلى المحاربين فى الأصل . ولكن جماهير غير المحاربين تحمست للسير على طريق الخلاص الجديد "الذى بناه الرب" على حد تعبير جيوبرت النوجنتى(١٠) . وربما كان البابا قد وضع خطته على أساس أن جيشا صغيرا نسبيا سوف يمكن تجنيده من مناطق جنوب وغرب فرنسا(١١) ولكنه لم يكن يتوقع مثل هذه الجيوش الهائلة من شتى أنحاء الغرب الأوروبى . ولكن الاستجابة التى لقيتها الدعوة فى بقية أنحاء فرنسا ، وفى الأراضى الواطئة ، وفى غرب المانيا وغرب أيطاليا ؛ وفى أسبانيا ذاتها - هذه الاستجابة كانت أكبر من كل توقعات البابا . ولابد أن هذه الاستجابة الشعبية الهائلة للدعوة إلى حرب صليبية قد أدهشت البابا ، فكما أدهشت المؤرخين المعاصرين ، ظلت مثار دهشة غيرهم من المؤرخين على مدى أجيال عديدة لاحقة . ولنرجئ حديثنا عن هذه الاستجابة إلى حين .

قضى البابا الشهور الثمانية التالية على خطبته فى كليرمون فى نشر الدعوة فى غرب وجنوب فرنسا ، وقد تنوعت الوسائل البابوية فى هذا الصدد بين المجامع الدينية ، والخطابات البابوية ، وتوجيه رجال الكنيسة لنشر الدعوة بين الناس . ففى الفترة مابين ٢٣ ديسمبر سنة ١٠٩٥م و ٦ يناير سنة ١٠٩٦م أقام البابا أربان الثانى فى مدينة ليموج Limoges الفرنسية حيث عقد مجمعا كنسيا كبيرا ردد فيه كلماته عن اضطهاد المسلمين للمسيحيين فى الشرق ، ودعا المسيحيين للتطوع فى الحملة المقترحة(١٢) كذلك حدث الشئ نفسه فى أنجير Angers فى الفترة مابين ٦ فبراير إلى ١٢ فبراير سنة ١٠٩٦م (١٣). وفى مدينة تور Tours عقد أربان مجمعا بين ١٦ و٢٢ مارس سنة ١٠٩٦م جمع فيه العدد الأكبر من رجال الدين فى غرب فرنسا ، وعلى الرغم من أنه لم تصلنا أية خطابات عن هذا المجمع ، ، فإن المصادر ذكرت أن أربان جدد فيه دعوته إلى الحملة الصليبية(١٤). وفى نفس السنة عقد أربان مجمعا فى مدينة نيمس Nimes فى الفترة مابين ٦ إلى ١٤ يوليو كرر فيه ماذكره عن الحملة وإنقاذ المسيحيين فى الشرق(١٥) .

وفى خطابات أربان الثانى جدد الدعوة إلى الحملة الصليبية(١٦) وحدد بعض تصوراته لهذه الحملة وكيفية المساهمة فيها . كذلك بعث البابا برجال الكنيسة إلى شتى أنحاء الجنوب والغرب الفرنسى ، وطلب منهم الدعوة للحملة فى هذه المناطق . أما المبشرون الشعبيون ، فقد تولوا نشر الدعوة بين الناس على نطاق واسع . وذاعت إشاعات عن معجزات غريبة حدثت

أثناء قيام أولئك المبشرون الشعبيين بالدعوة للحملة الصليبية ، وفسرت على أنها تعبير عن رضاء الرب عن مشروع الحملة المقترحة ، فقد ذكر فوشيه الشارترى ما اعتبره من دلائل رضاء الرب على مشروع الحملة ، فقال : ".. فى هذه السنة استمر السلام ، كما كانت هناك وفرة فى الحبوب والنبيذ فى جمع البلاد بفضل رحمة الرب ، ولهذا لم يكن هناك نقص فى الخبز اللازم لرحلة أولئك الذين اختاروا أن يتبعوا الرب تلبية لأمره .."[١٧] كذلك ذكرت الحوليات والمصادر المعاصرة أنه حدث فى تلك السنة أن أمطرت السماء نجوما ، وقد فسر جيسلبير Gi-selebert أسقف ليسزييه Lisieux هذه الإشاعة على أنها تعبير عن الرضاء الربانى عن مشروع الحملة التى اقترحها البابا فى كليرمون[١٨] .

لقد كانت استجابة نبلاء الغرب للدعوة البابوية متوقعة ، إلى حد ما . ولكن أحدا لم يكن ليتنبأ باستجابة الجماهير . فقد كان الجو الفكرى والنفسى فى أوربا آنذاك مشبعا بالتوقعات الألفية والأخروية . وعلى الرغم من الاختلافات الراجعة إلى البيئة والتقاليد الدينية فى أنحاء أوربا المختلفة ، فإننا يمكن أن نجد بعض الخصائص العامة للعقلية الدينية فى أوربا آنذاك .

ذلك أن الأمر الذى أصدره أربان الثانى فى كليرمون ، كان بالنسبة لفلاحى أوربا أشبه بأمر إلهى مباشر ، ورأوا فيه المعجزة الأولى فى سلسلة الأحداث الدالة على المجئ الثانى للمسيح . ولم يكن باستطاعة كتاب الحوليات الكنسية ، العارفين بأحوال رعاياهم ، أن ينسبوا هذه الحال الدينية الغامرة إلى سبب آخر سوى معجزة ربانية ، وإلا ، فما الذى حرك الجماهير المادية البليدة الجاهلة ؟

بيد أن الفلاحين الذين تحركوا استجابة لدعوة أربان كانوا قد تشبعوا منذ وقت طويل بأفكار الوعاظ الجوالين الذين أخذوا ينادون هنا وهناك بالعودة إلى احتذاء خطى الحواريين[١٩]، وبدأ الناس مع توقع القيامة يقلدون حياة الحواريين البسيطة وحرصوا على التشبه بهم تكفيرا عن ماضيهم وتحسبا ليوم الدينونة . والواقع أنه لم يكن هناك اعتقاد عام بأن العالم سينتهى سنة ١٠٠٠ أو سنة ١٠٣٣م ، بسبب افتقاد الناس فى ذلك الحين للوعى بالزمن ، ولكن كان هناك شعور عام بأن العالم يعيش عصره الأخير . وهنا وهناك كانت تثور مشاعر الرعب والفزع من توقع القيامة ، ولكن الكنيسة كانت تتولى تهدئة روع الخائفين . فى بعض الأحيان كانت موجات الرعب الأخروى تسرى بسبب رؤيا يشيع خبرها ، أو بسبب كارثة تاريخية ، وربما بسبب عاصفة مدمرة . وفى بعض الأحيان كانت موجات الرعب تسرى بسبب بعض الحسابات الكنسية التى تنتشر من أوساط المتعلمين إلى عامة الناس . فقبل سنة ١٠٠٠ بقليل كتب مقدم دير فليرى Fleury يقول : "انتشرت إشاعة بين الناس تقول إن نهاية العالم

تحل عندما يتوافق عيد البشارة مع الجمعة الحزينة" [٢٠] . وعلى الرغم من كل شئ ، استمرت الحياة بنبضها الذى لايقاوم . ولكن عندما كان الناس يتوقفون للتفكير ، فإن المستقبل النابض بالحياة كان آخر ما يطرأ على بالهم .

وهكذا فهمت جماهير العامة الدعوة التى أطلقها البابا فى كليرمون على نحو لم يكن هو نفسه يتصوره أو يتوقعه . لقد فهم الناس دعوة أربان باعتبارها فرصة لمستقبل جديد فى الشرق المقدس ، وفرصة لخلاص الروح فى الآخرة إذا مات الإنسان على الطريق إلى هذا الشرق المقدس . وربما يكون الصليبى الفقير قد وقع فى شباك الطمع بأن يتملك لنفسه ضيعة فى الأرض المقدسة ، وإذا ما قدر له أن يموت ، فمن المؤكد أنه سينال مكافأة فى السماء حسبما وعده البابا . كانت دعوة أربان الثانى تعنى بالنسبة لمن شاركوا فى الحملة الشعبية شيئا أبعد ما يكون عن أهداف البابا ، ولعل هذا هو مادفع مؤرخا لامعا مثل جروسيه إلى القول بأن الحملة الشعبية قد خرجت ضد أهداف الكنيسة[٢١] . إذ أن العامة المطحونين تحت وطأة الفقر والعجز والإحباط اليومى اكتشفوا فى خطبة البابا (أو فى العبارات التى نقلت عنه وتداولها الناس) فرصة للخلاص الدنيوى والأخروى . ويرى كانتور أن الحملة الشعبية كانت لمحة غير عادية تجلت من خلالها الخصائص والسمات العاطفية الثورية العميقة لحركة التدين الشعبى فى أوربا آنذاك ، وفيها اتضح عجز البابوية عن مواجهة هذا التدين الشعبى[٢٢] . لقد كانت تلك هى المرة الأولى التى يتجسد فيها التعصب الدينى للطبقات الدنيا ، وكان ذلك تعصبا ضد أصحاب الديانات الأخرى ، وثورة ضد الأوضاع الاجتماعية المحبطة أيضا .

ومن ناحية أخرى ، فإننا لاينبغى أن نتعامى عن الحقيقة القائلة بأن عقول الناس من أبناء الطبقات الدنيا فى أوربا آنذاك كانت متنبهة باستمرار لتقبل كل ماكانوا يعتقدون أنه مظاهر خارقة أو علامات إعجازية ترتبط بعلامات يوم الدينونة[٢٣] . لقد كانت الجماهير مسحورة بفكرة تحرير الأرض المقدسة التى ارتبطت فى وجدانهم بنهاية هذا العالم الملئ بالشرور والإحباط والقهر . وكان المبشرون الشعبيون يستثيرون حماسة أبناء هذه الطبقة ، رجالا ونساء، شبابا وكهولا . فقد كان الجميع يتوقون إلى الخلاص فى الدنيا والآخرة.[٢٤]

وسيكون من الخطأ أن نظن أن الموقف الشعبى من الحركة الصليبية كان موقفا دنيويا خالصا مثل موقف البابوية والزعماء العلمانيين . فقد كان أولئك يفضلون مصالحهم الشخصية دائما على الأهداف المشتركة للحركة . أما جماهير العامة فقد كانوا يعتبرون أنفسهم أصفياء الرب لأنهم الفقراء . وكان هذا هو المظهر الدينى المميز لموقفهم من الحركة الصليبية . بيد أن

المظهر الدينى لم يكن ليمنعهم من انتهاك الفكرة التى تحركوا فى إطارها ، ولم يكن هذا المظهر الدينى ليحول بينهم وبين ارتكاب أحط ضروب الجرائم ، والكشف عن أبشع الشرور الدنيوية والأطماع المادية. لقد فهموا الدين فهما عاطفيا من منظور التعصب المقيت . وظنوا أن تدينهم يعنى التعصب ضد أصحاب الديانات الأخرى . وكان التفكير الشعبى السائد آنذاك يرى أن كل الشعوب التى لاتؤمن بعقيدة الكنيسة الكاثوليكية أعداء للمسيح "La Gens Antichrist" ومن ثم فإنه ينبغى أن تمتد اليهم يد الانتقام الذى كان السيد المسيح قد أمر بتوقيعه على "الوثنيين المخذولين" كما تقول قصيدة أنطاكية(٢٥). ومن ناحية أخرى ، خلطت الجماهير بين مشاعر التدين العاطفى المتعصب وبين حقائق حياتهم التعسة فى ظل المجتمع الإقطاعى بخصائصه الظالمة للطبقة الدنيا .

لقد كانت الحركة الصليبية متنفسا لجماهير الفلاحين ، وعامة سكان المدن الذين كانت وسيلتهم الوحيدة للتفريج عن خوفهم الدائم ، واضطرابهم المستمر ، وافتقارهم للأمن ، أن يطلقوا العنان لعواطفهم الجياشة الهادرة . كما أنهم كانوا يجدون فى التصرفات العنيفة المفاجئة وسيلة فعالة للتنفيس عن القلق الجاثم على صدورهم من جراء مصاعب حياتهم اليومية الرهيبة . ولم يكن ذلك ممكنا سوى فى ظل حركة جماعية ؛ وإذا جاءت هذه الحركة متسربلة برداء الدين فإنها تكون فرصة مثالية للتعبير عن التدين العاطفى والسخط الاجتماعى فى آن واحد . ففى ظل الجموع المجنونة لايخشى أحد مغبة اللوم على طيشه ونزقه وتهوره لأن روح الجنون كانت تستولى على الجماعة بأسرها .. أن مشهد الحملة الشعبية بتطوراتها المختلفة يشى بأن روحا من الجنون كانت تحلق فى سماء الغرب الأوربى بحيث مست الناس جميعا .

ولم تكن مجرد صدفة أن العامة المشتركين فى الحركة الصليبية قد أظهروا علامات الثقة بالنفس والكبرياء أحيانا . فلو أن يوم الحساب قريب ، ألن يكون الفقراء هم أول من يدخل القدس السماوية كما يقول الكتاب المقدس ؟ ومن ثم صار الفقراء فى هذه الحركة قسما متميزا، وقد انضموا إلى بعضهم البعض فى شركة غريبة تضم المعدمين الذين كان يسيطر عليهم شعور بأنهم جماعة مختارة للخلاص(٢٦) . لقد ظن العامة والفقراء أن الرب اصطفاهم للقيام بهذه المهمة المقدسة ؛ وظنوا بالتالى أنهم سوف ينتصرون .

هكذا كانت استجابة جماهير العامة من أبناء الطبقة الدنيا سريعة وحماسية . لقد بدا الغرب الأوربى آنذاك وكأنه فى خروج عظيم ثان ، وترسم كلمات فوشيه الشارترى صورة المشهد المثير : "ماذا عساى أن أقول ؟ أن جزر البحر ، وكافة ممالك الأرض كانت تتحرك

بصورة تجعل المرء يظن أن نبوءة داود قد تحققت .." [٢٧] لقد ذاع خبر طريق الخلاص الجديد "الذى بناه الرب" فى أنحاء الغرب الأوربى ولقى استجابة هائلة[٢٨] . ويقول وليم الصورى فى وصف حركة الاستعداد الصاخبة للرحيل فى الحملة الصليبية : ".. فى جميع أقاليم الغرب لم يكن ثمة منزل خال ، لأن كل رجل ، حسب مكانته ، كان مشغولا بترتيب أموره التى كان قلقا بشأنها . فهنا رب الأسرة ، وهناك الابن ، وهناك العائلة بأسرها تتحرك للرحيل .."[٢٩] وإلى جانب هذه المصادر التاريخية التقليدية لدينا بعض المصادر الشعرية التى تصور لنا هذه الحركة العامة فى الغرب الأوربى مثل قصيدة أنطاكية [٣٠] ، وقصة شعرية أخرى لانعرف شيئا عن مؤلفها الذى اعتمد على كتاب بلدريك الدوللى فى نظمها . وتحكى هذه القصة كيف استجاب الناس لدعوة أربان الثانى وتدافعوا لأخذ شارة الصليب[٣١] .

لقد نتجت عن دعوة أربان الثانى حركة شعبية ارتبطت باسم بطرس الناسك فى بداية الأمر. ويبدو من كلام المصادر التاريخية المعاصرة أن بطرس هذا كان يتمتع بشخصية قادرة على التأثير فى الجماهير بحيث تكونت حركة عامة هدفها بيت المقدس . وقد تكونت حول هذا الناسك أسطورة ظلت مراحا لخيال الأدباء والفنانين ، وإلهاما يمثل جاذبية خاصة فى الأدب الشعبى منذ القرن الثانى عشر وحتى منتصف القرن التاسع عشر . وطوال هذه الفترة كان بطرس يعتبر تجسيدا للحماسة الروحية الشعبية فى الحركة الصليبية ، وجعلته الأسطورة صاحب الفضل فى الدعوة إلى الحملة الصليبية . وبفضل الدراسة التى قام بها هينريخ فون سيبيل Heinrich von Sybel فى سنة ١٨٤١م ، تم كشف زيف أسطورة بطرس الناسك ؛ بيد أنه ظل شخصية محورية ومثيرة للاهتمام فى دراسة هذه الحركة . ذلك أن أهمية بطرس وغيره من زعماء الحركة الشعبية ماتزال محل نزاع وخلاف بين المؤرخين[٣٢] . فما هى حقيقة الدور الذى قام به الراهب؟ وكيف تكونت الأسطورة التى أحاطت بشخصه على هذا النحو ؟.

تقول الأسطورة إن بطرس الناسك هو الذى بدأ الدعوة إلى الحملة الصليبية ، لأنه كان قد حاول القيام برحلة حج إلى أورشليم ولكنه فشل بسبب سوء معاملة الأتراك . فعاد ومعه رسالة من سمعان بطريرك بيت المقدس والمسيحيين فيها يستنجدون بأمراء الغرب وبالبابا ضد المسلمين . وترتبط بهذه الرواية ، برواية أخرى تقول إن بطرس أثناء نومه فى كنيسة بيت المقدس رأى المسيح فى منامه يأمره بالتوجه إلى البابا والدعوة لتخليص الأماكن المقدسة .

ويحسن بنا أن نتابع هذه الأسطورة فى منابعها . فقد ذكر كل من البرت الآيكسى[٣٣]. ووليم الصورى[٣٤] ، الذى اعتمد عليه فى أخبار الحملة الأولى ، أن بطرس حمل رسالة من

القدس إلى البابا وأمراء الغرب فى سنة ١٠٩٤م . والحقيقة أن المصادر التاريخية التى عاصرت الأحداث التى جرت منذ كليرمون ١٠٩٥ وحتى سقوط القدس سنة ١٠٩٩م لم تذكر شيئا عن حج بطرس إلى أورشليم ، باستثناء أنا كومنينا[٣٥] التى تقول إن بطرس فشل فى رحلة قام بها للتعبد فى الضريح المقدس ، فأعد خطة ماهرة لكى يعود إلى القدس بصحبة جيش كبير ونجح فى هذا . وبما أن أنا كومنينا كانت طفلة زمن وقوع هذه الأحداث ، كما أنها كتبت بعد حوالى نصف قرن من الأحداث ، فإننا لانستطيع أن نعتمد عليها كثيرا .

ودارت عجلة الزمان لنجد أن نصوص القرن الثانى عشر قد بدأت تنسج خيوط أسطورة بطرس الناسك ، إذ أضافت اليها بعض التفاصيل عن رحلة بطرس إلى القدس وفشله فى أداء الحج . ففى حولية كتبت بعد الحملة الأولى بحوالى ثلاثين سنة نجد الرواية التى تخبرنا عن الحلم أو الرؤيا التى رآها بطرس أثناء نومه فى كنيسة بيت المقدس[٣٦] .

وقبيل منتصف القرن الثانى عشر بقليل ازدادت تفاصيل هذه القصة فى قصيدة أنطاكية على الرغم من اضطرابها[٣٧] . وفيما كتبه البرت الآيكسى [٣٨] الذى ربط الحلم أو الرؤيا بالرسالة التى كان أول من ذكر أنها كانت رسالة مكتوبة . وفى نهاية القرن الثانى عشر تغيرت الرواية قليلا على يد وليم الصورى الذى أضفى عليها أبعادا جديدة جعلتها تتخذ شكل الأسطورة الكاملة[٣٩] .

ومن الواضح أن كل المصادر التى تحدثت عن أسطورة بطرس الناسك ورحلته وحلمه قد اعتمدت بشكل أو بآخر على ما كتبه البرت الآيكسى ، باستثناء آنا كومنينا . ومع مرور الوقت كانت الإضافات الخيالية تتزايد لتتسع لنا هذه الأسطورة التى تقبلها المؤرخون زمنا طويلا . بيد أن البحث العلمى الحديث قد كشف لنا عن زيف هذه الأسطورة ، وعن أن هذا الرجل كان أبعد ما يكون عن استحقاق هذا الدور ، إذ كان مجرد واحد من أفراد كثيرين استجابوا لدعوة أربان الثانى ، كما كان واحدا من بين عدة زعماء تولوا قيادة الحملة الشعبية بفرقها المختلفة كما سنرى فى الصفحات التالية . فضلا عن أن شهرته قد اقتصرت على شمال فرنسا وألمانيا ؛ لأن الإنجليز والإيطاليين لم يعرفوا عنه شيئا[٤٠] .

وإذا كنا قد أولينا أسطورة الناسك هذا القدر من الاهتمام ، فإن السبب فى ذلك راجع إلى أننا نرى أن هذه الشخصية كانت نموذجا للتناقض بين المثال والواقع . هذا التناقض الذى كشف عن نفسه بوضوح شديد فى غمار الأحداث التى شهدتها الحملة الشعبية . ذلك أن هذا الزعيم المفوه ، القادر على تحريك الجماهير ، والذى ألهم آلاف المطحونين من أبناء الغرب الأوربى

ليسيروا صوب "الشرق العجيب" الذى لم يكونوا يعرفون عنه شيئًا ، ولايدركون مدى الأخطار والمشاق التى تنتظرهم فى الطريق إليه - هذا الزعيم نفسه كان من بين الهاربين عندما بدأت الحملة الصليبية تتعرض للمصاعب فى صحراوات الشرق وقفاره ، أو أمام المقاومة الإسلامية(٤١) لقد كان بطرس أحد الدعاة المروجين للإيديولوجية الصليبية .. كان واحدا من صناعها ، وكانت مهمته الترويج للجانب الغيبى . وعندما صدمته الأحداث بحقائقها القاسية حاول الهرب ضمن مجموعة أخرى من النبلاء والعامة فى سنة ١٠٩٨م عندما كان الصليبيون يحاصرون أنطاكية(٤٢) .

على أية حال ، كان بطرس الناسك وغيره هم الذين تلقفوا خطبة البابا وحولوها إلى دعوة شعبية بين الفقراء من أبناء الغرب الأوربى . وبدأ المبشرون الشعبيون يواصلون الدعوة استجابة لخطبة أربان . وكان الرهبان الفقراء من أمثال روبرت الأربريسلى Robert of Arbrissel ، وبطرس الراهب ينشرون الدعوة بين جماهير العامة فى كل مكان . لقد بدأ بطرس دعوته قبل أن ينتهى عام ١٠٩٥م(٤٣) وفى كل مكان كان يذهب إليه كان ينضم إليه المزيد من الناس . ويقول البرت الآيكسى إن بطرس استغل فصاحته للدعوة فى كل مكان . فقد كان خطيبا مفوها ، وقادرا على تحريك الجموع ، على الرغم من أنه كان ضئيل البنية ، زرى الهيئة ، بوجه طويل متغضن يشبه وجه حماره الذى اعتاد أن يصحبه فى جولاته ".. ولكنه إذا تكلم أو فعل شيئا بدا كما لو أن هناك شيئا مقدسا.." على حد تعبير جيوبرت النوجنتى . كان هذا الراهب الفرنسى يرتدى قميصا من الصوف وعباءة تصل إلى عقبيه ، وذراعاه وقدماه عاريتان . وكان يقتات بالنبيذ والسمك ، وربما لم يأكل الخبز فى حياته . وعندما يتواجد فى مكان كان يلهب خيال العامة الذين تتدافع جموعهم لسماعه ، وتمتد أياديهم تنزع شعرات من جسد حماره الهزيل أو ذيله .. على سبيل البركة(٤٤) .

ويحكى لنا جيوبرت النوجنتى الذى كان قريبا من مسرح الأحداث كيف جمع بطرس حملته، ولو أنه حافظ على ترتيب الناس وفقا لأهميتهم الاجتماعية كما تصورها ، إذ يقول : ".. واستجابة لدعوته المتواصلة خرج الأساقفة ومقدمو الأديرة والقساوسة والرهبان ، ثم النبلاء والأمراء من مختلف الممالك ، وبعدهم عامة الناس ، الأشرار والأخيار ، الزناة ، والقتلة ، واللصوص ، والنصابون ، وقطاع الطرق . والواقع أن كل الذين خرجوا ينتمون لكافة الطبقات المسيحية . ومعهم أيضا النساء وأولئك الذين مستهم روح التوبة - كلهم انضموا إلى حملته فى سرور .."(٤٥) .

كان أربان الثانى قد حدد يوم الخامس عشر من أغسطس سنة ١٠٩٦م ، أى فى عيد صعود العذراء ، موعدا لرحيل القوات الصليبية صوب الأراضى المقدسة . ولكن مع ربيع سنة ١٠٩٦م ، ومنذ شهر مارس من هذه السنة بدأت رحلات الفلاحين والعامة صوب الشرق(٤٦). فمنذ آخريات فصل الشتاء كان الريف الأوربى فى حال من الإثارة والتوتر والحركة الدائبة استعدادا لرحلة الخلاص . وتحركت مجموعات كبيرة من الفلاحين ومن الغوغاء الجامحين فى مدن الراين القذرة حركة عشوائية بفعل الجو الفكرى والنفسى السائد بما فيه من حمى أخروية وأفكار تنشد الخلاص من وطأة القهر الاجتماعى ، كما تأمل فى ثواب الحياة الآخرة . ولم يحصد الفلاحون محاصيلهم لكى يخزنوها تحسبا لشتاء الجوع الطويل ، كما اعتادوا كل عام، وإنما جمعوا هذه المحاصيل لتكون لهم الزاد والقوت فى رحلتهم إلى الشرق .. وكانت هذه الحركة الدائبة إحدى ثمار التبشير الشعبى الذى كان بطرس الناسك واحدا من أبطاله .

وفى ذلك العصر ، الذى كان فيه التبشير الشعبى بمثابة النغمة الدالة فى حياة المجتمع الأوربى . كان الناس يظنون أن بطرس نبى تلهمه الرؤى المقدسة . وكان الناس على اقتناع كامل بأن المجئ الثانى للمسيح قد بات وشيكا ، وكانت النبوءات ، التى كانت بمثابة الأريج الثقافى فى المجتمع آنذاك ، تقول إن استعادة الأرض المقدسة يجب أن تتم قبل المجئ الثانى ليسوع(٤٧). وكانت جماهير العامة المستمعين للخطب والمواعظ التى يلقيها المبشرون الحفاة الجائلون يتسمون بالجهل والغباء ، ويكبلهم اليأس من حياتهم اليومية ، ويضنيهم التفكير فى المستقبل المظلم . ولم يكن الفرق واضحا بين أورشليم الأرض وأورشليم السماء أمام أصحاب العقول الجاهلة والنفوس المحبطة من آلاف الفلاحين والعامة الذين كانوا يستمعون إلى بطرس وأمثاله . فقد كان كثيرون ممن يستمعون إليه يظنون أنه سوف يقودهم إلى الأرض التى تفيض باللبن والعسل . وقد تكون الرحلة شاقة ، ولكن الواجب يقتضى تدمير جيوش المسيح الدجال، والأمل يدفع النفوس اليائسة إلى الطمع فى وراثة أملاك أعداء المسيح فى الأرض المقدسة .. كانت تلك مسيرة يحدوها أمل فى الخلاص ، ويقودها طمع دنيوى . لقد خلط أفراد الحملات الشعبية بين أورشليم السماء وأورشليم الأرض ، مثلما خلطوا بين متاعبهم الروحية وأطماعهم الدنيوية . واختلط المثال بالواقع تماما فى عقول الفلاحين والعامة الجهلاء ، بحيث ارتكبوا أبشع ما يمكن من شرور دنيوية تحت راية الحرب المقدسة .

على أية حال ، واصل بطرس الناسك دعوته فى شتى أنحاء فرنسا وألمانيا . وفى كل مكان كان يذهب إليه ، تنضم جموع جديدة من المعدمين والجياع وبعض الفرسان المشاغبين . وكان يتلقى هبات وعطايا ضخمة فيوزعها على الفقراء المنضمين إلى قافلته . وربما كان هذا من أهم

الأسباب التى جعلت الجموع المطحونة ترفعه إلى درجة سامية من القداسة لم ينلها أحد من قبل على حد تعبير جيوبرت النوجنتى[٤٨] . وعندما وصل إلى كولون فى ألمانيا كان خلفه حوالى خمسة عشرة ألف من غير المحاربين والنساء والأطفال ، وبينهم عدد محدود من الجنود المحترفين ، مشاة وفرسانا . وعلى الرغم من اشتعال العداء بين الإمبراطور الألمانى والبابا فى ذلك الحين انضمت جموع كبيرة من الألمان إلى جيش الجياع الذى يقوده بطرس[٤٩] . فقد سرت الحماسة الصليبية مسرى النار فى الهشيم لتصل إلى كافة أرجاء الغرب الأوربى . وتحرك الناس على الطريق صوب "القدس الذهبية" تدفعهم عواطف جياشة ، وأمل فى انتصار دنيوى مصحوب بثواب أخروى .

ولما كانت جماهير العامة قد فهمت الإيديولوجية الصليبية بالشكل الذى يعبر عن طموحاتها وآمالها ، فقد كان طبيعيا أن تجئ هذه الحركة ضد أهداف الكنيسة كما لاحظ جروسيه ، وكما أشرنا من قبل . ومن ثم حاول البابا أن يمنع هذه الأعداد الغفيرة من التحرك صوب الشرق . ويذكر روبير الراهب[٥٠] أن البابا طلب ، وهو مايزال فى كليرمون ، من المسنين وغير اللائقين للحرب عدم الذهاب فى الرحلة . ومنع النساء من أن تذهبن دون موافقة أزواجهن ، أو أخوتهن ، أو إذن رسمى ".. **فمثل هؤلاء الناس سيكونون عقبة أكثر منهم عونا ، وعبئا أكثر منهم فائدة..**" ، كما أنه حرم على الكنسيين بكافة طبقاتهم السفر دون إذن من رؤسائهم ، وأوجب على المدنيين ألا يسافروا دون مباركة رجال الكنيسة . ولما كان روبير قد كتب مؤلفه بعد مؤتمر كليرمون بسنوات ، فإننا نعتقد أن هذا الراهب قد أضاف هذه الفقرة إلى روايته عن كليرمون تدعيما لموقف الكنيسة من الحركة الشعبية . لاسيما وأن معاصريه لم يذكروا شيئا عن هذه الفقرة . والراجح أنه قد أضاف هذه الفقرة بعد أن بدأ أربان بالفعل فى إرسال تعليماته التى تتضمن محاولاته لمنع العامة من الانضمام للحملة فى خطاباته التى بقيت لنا منها أربعة خطابات تتعلق بالحركة الصليبية .

والخطاب الأول يرجع إلى شهر ديسمبر سنة ١٠٩٥م ، موجه من أربان الثانى إلى أمراء الفلاندر وكل المؤمنين هناك[٥١] ، يحدد لهم موعد إنطلاق الحملة الرسمية ويخبرهم باختيار أديمار مندوبا عن البابا فى الحملة ، ولكنه لايشير إلى شئ يتعلق بالعامة . ويؤكد هذا ما ذهبنا إليه من أن روبير الراهب قد أضاف من لدنه تلك العبارات المتعلقة بالعامة تعبيرا عن سياسة الكنيسة فيما بعد كليرمون . فلو أن البابا تحدث عن هذه المسألة فى كليرمون لكان من الأحرى أن يضمنها فى هذا الخطاب الذى أرسله فى ديسمبر أى بعد أيام من المؤتمر . وفى

تصورنا أن الحركة الشعبية حتى ذلك التاريخ لم تكن قد كبرت بحيث تلفت نظر البابوية إلى خطورتها . وربما تساعدنا الحقيقة القائلة بأن بطرس الناسك لم يبدأ دعوته إلى الحملة الصليبية سوى فى شهر ديسمبر على تفسير هذا الموقف .

أما الخطاب الثانى فهو مرسل من أربان الثانى إلى مؤيديه فى بولونيا بتاريخ ١٩ سبتمبر سنة ١٠٩٦م (أى بعد حوالى عشرة شهور من كليرمون) ، وفيه يقول البابا : "**ولكننا لانسمح للرهبان أو القساوسة بالذهاب دون إذن من أساقفتهم ومقدمى أديرتهم . كذلك يجب على الأساقفة أن يحرصوا على عدم السماح لرعاياهم بالذهاب دون علم الكنيسة المسبق . ويجب أيضا أن تراعوا أن الشبان المتزوجين حديثا لاينبغى أن يذهبوا فى رحلة طويلة كهذه دون موافقة زوجاتهم ..**"(٥٢) . ويتكرر هذا الموقف فى خطاب أربان الثانى إلى جماعة المتدينين فى فالومبروسا بتاريخ ٧ أكتوبر سنة ١٠٩٦م ، إذ يقول : ".. لقد سمعنا أن بعضكم يريد أن ينطلق مع الفرسان المنطلقين إلى القدس بقصد طيب لتحرير المسيحية . وهذا هو نوع التضحية الحقة ، ولكن خطته جاءت من قبل أشخاص غير مناسبين . فنحن لانريد لأولئك الذين هجروا العالم ونذروا أنفسهم للحرب الروحية أن يذهبوا فى هذه الرحلة ، بل إننا نمنعهم من ذلك كما أننا نمنع المتدينين – من القساوسة والرهبان – من أن يرحلوا فى هذه الصحبة دون إذن من أساقفتهم ومقدمى أديرتهم ، كما تقضى القوانين الكنسية المقدسة .."(٥٣) والخطاب الرابع لأربان لايشير إلى هذا الموضوع لأنه موجه إلى بعض الأمراء الأسبان(٥٤) .

هذه المحاولات البابوية كانت أضعف كثيرا من الحافز على الرحيل . ومن ثم ظلت الحركة النشطة استعدادا للرحلة على أشدها .

انقضى شتاء سنة ١٠٩٦م فى التأهب السريع والاستعداد للرحلة إلى الشرق . وتحركت الجموع فى الريف والقلاع والمدن ، وكافة الأنحاء . وهكذا تحركت فى أخريات شتاء سنة ١٠٩٦م ، وبدايات الربيع (أى بعد نصف عام فقط من خطبة البابا فى كليرمون) طلائع الفلاحين والعامة التى عرفت باسم الحملة الشعبية(٥٥) . وبينما بدأت هذه الجماعات الجائعة الهائجة تتجه صوب حوض الراين وأراضى البلقان ، كانت أعدادها تتزايد بحيث صارت فرقا وجيوشا . واختار البعض لأنفسهم قادة من نظرائهم ، على حين انضوى البعض الآخر تحت لواء أحد الفرسان . وتحرك البعض دونما قيادة .

وترسم لنا المصادر التاريخية المعاصرة صورة حيه لهذه الحركة الشعبية ؛ إذ يصف لنا فوشيه الشارترى مشهد الرحيل والوداع بعبارات مؤثرة ".. يا له من حزن ويالها من زفرات ، يا له من بكاء ونواح بين الأحباء ، حين يترك الزوج زوجته الحبيبة ، ويتخلى عن أطفاله ،

ويترك أملاكه مهما كبرت ، وأمه وأباه ، وأخوته وأقاربه .. ولكن الدموع التى انهمرت من أجل الأحباء فى حضورهم لم تكن لتمنع أحدا من الذهاب لأنهم يمضون فى حب الرب تاركين ما يملكون ، وهم على قناعة أكيدة بأنهم سينالون قدره مائة مرة ، كما وعد الرب من يحبونه."(٥٦) هذه الكلمات كررتها المصادر الأخرى بشكل أو بآخر(٥٧) ويخبرنا البرت الأيكسى وجيوبرت النوجنتى اللذان كانا قريبين من أماكن خروج الحملة الشعبية بأقسامها المختلفة كيف أن أعدادا هائلة قد تحركت على الطريق إلى الأرض المقدسة .. دون أية معرفة بطول الرحلة ، أو المشاق والمخاطر التى تنتظرهم فى الطريق . ويروى لنا جيوبرت النوجنتى كيف كانت هناك أعداد هائلة من النسوة اللاتى شاركن فى الرحلة تسير مع جموع المعدمين على طريق الحملة الأمل . ويرسم لنا صورة معبرة عن الزوج الفقير الذى جلس على عربته الكالحة تجرها الثيران ، وقد حملها بأثاثه الحقير وأطفاله الصغار .. وكلما اقترب الموكب الهارب من الإحباط والفقر من مدينة أو قلعة كبيرة تساءلت الجموع الذاهلة فى بلاهة : "هل هذه هى أورشليم ؟" .

لقد تحركت جموع المعدمين يحدوهم الأمل فى حياةٍ أفضل على تراب الشرق ، ورغبة غامضة فى الدخول فى رحمة الرب المنقذة فى أورشليم السماء .. كان هذا المثال الذى تسعى الجموع وراءه ، بيد أن الواقع كشف عن حقيقة مريرة هى الدرس الأول الذى يعلمه التاريخ للشعوب كل حين . فقد تحرك أولئك فى إطار مثال لا يفهمونه جيدا ولايستطيعون تحديد ماهيته ، وحين اصطدموا بالواقع أزاحوا النقاب عن أشد الشرور الدنيوية وحشية وقسوة .. وتغيرت المسيرة التى كان مفروضا أن تصاحبها التراتيل الكنسية إلى مسيرة تصاحبها صرخات ضحاياها ، وتشيعها سحابات دخان الحرائق التى أشعلها جنود الرب ، وتبقى الأطلال تحكى قصة المثال الذى مرغه أصحابه فى طين الواقع .

ولنبدأ فى تتبع مسيرة كل جيش من جيوش الحملة الشعبية ..

وصل بطرس الناسك إلى مدينة كولون فى ألمانيا . وفضل أن يمكث فى هذه المدينة فترة لكى يستميل بعض الأمراء إلى حملته ؛ إذ كان الأمراء فى فرنسا والفلاندرز يفضلون أن يخرجوا فى حملة تحت زعامة كبار السادة فى تلك الأنحاء . ولكن حركة الجموع التى التفت حول بطرس باتت ضرورة حتمية بسبب مشاكل الحصول على الطعام . فلم تكن معظم أنحاء أوروبا آنذاك تنتج من الطعام مايكفى لتلبية حاجات هذه الأعداد الكبيرة لفترة طويلة(٥٨) . ولكن الفرنج لم يطيقوا صبرا ، وما كاد الشتاء ينصرم حتى كانت المجموعة الأولى من الحملة

الشعبية قد رحلت تحت قيادة جندى شرس هو والتر المفلس Walter Sansavoir وهو فارس نبيل المولد ، يجيد استخدام السلاح[٥٩] . وكان تحت إمرته عدد كبير من المشاة ، وثمانية فرسان فقط كما يقول البرت الآيكسى ، وكان جيشه يضم عددا كبيرا من النساء والأطفال .

غادر جيش والتر مدينة كولون متجها صوب حوض الراين ، وواصل سيره حتى حوض الدانوب ، ثم وصل إلى حدود المجر فى الثامن من شهر مايو سنة ١٠٩٦م [٦٠] وأرسل يطلب من كولومان Coloman ملك المجر (١٠٩٥-١١١٦م) السماح لجيشه بالعبور . ويبدو أن هذا الملك كان على علم مسبق باقتراب جيش والتر ، وبهدف هذا الجيش ، فسمح له بعبور أراضى المجر ومنحه امتياز الشراء من الأسواق العامة. وعبر الجيش بلاد المجر بسلام حتى وصل إلى حدود بلغاريا ، التى كانت خاضعة للحكم البيزنطى فى عهد الإمبراطور باسيل الثانى(٩٧٦-١٠٢٥م) [٦١] ، وحين دخلت قوات والتر إلى الأراضى البلغارية كان بعض أتباعه قد تخلفوا فى مكان يدعى مالفيلا Malevilla (مدينة سملين Semlin) داخل المجر لشراء بعض الضروريات . وقبض عليهم المجريون وضربوهم ، ثم أرسلوهم إلى رفاقهم بعد أن جردوهم من كل شئ . وعلى الرغم من ذلك واصل والتر ورفاقه السير حتى مدينة بلجراد .

فوجئ قائد الحامية البيزنطية فى بلجراد بوصول حملة والتر المفلس ؛ لأنه لم يكن قد تلقى أية تعليمات من بيزنطة بهذا الخصوص . وربما يكون السبب فى ذلك راجعا إلى أن اليكسيوس كومنين كان قد وضع ترتيباته على أساس أن الحملة سوف تصل فى وقت متأخر عن هذا التاريخ[٦٢]. على أية حال عسكر الصليبيون قرب المدينة فى الوقت الذى أرسل حاكم المدينة إلى رئيسه فى نيش Nish يطلب أوامره ؛ فأرسل الأخير إلى القسطنطينية يطلب تعليمات الإمبراطور . فى تلك الأثناء كان الجوع قد عض بنواجذه القاسية بطون أفراد جيش والتر ، فبدأوا يسرقون الماشية والأغنام . ولجأ البلغاريون إلى السلاح وقتلوا عددا من جيش والتر وأحرقوا عددا آخر من جنوده أحياء داخل إحدى الكنائس واضطر الباقون إلى الفرار ..

بعد هذه الكارثة ، ظل والتر المفلس هائما على وجهه فى غابات بلغاريا . وإذ أدرك أنه يقود جماعة لايمكن السيطرة عليها ، انسحب إلى نيش تاركا رجاله مبعثرين فى كل مكان . وهناك قابله الحاكم البيزنطى نيكيتاس Niketas استقبالا طيبا وأمده هو ورجاله بالطعام ، ولكنه استبقاه حتى وصلته موافقة الإمبراطور . وتجمع أتباع والتر مرة أخرى وساروا حتى وصلوا إلى القسطنطينية وسمح الإمبراطور للجيش الصليبى أن يقيم بجوار المدينة انتظارا لقدوم جيش بطرس[٦٣] .

على الرغم من أن حملة والتر المفلس قد مضت عبر مساحة تصل إلى ألف ومائتى ميل طولا ، وعلى الرغم من أنه كان من الصعب السيطرة على هذه الأعداد الضخمة فى مسيرة بهذا الطول ، وفى زمن لم يكن يوجد فيه للقانون أية سطوة خارج أسوار المدن ، فإن المتاعب التى لاقتها هذه الحملة حتى القسطنطينية كانت هينة قياسا إلى ماجرى لبقية أقسام الحملة الشعبية كما سنرى . ومن ناحية أخرى ، نبهت هذه الحملة كلا من ملك المجر المسيحى ، وإمبراطور بيزنطة إلى وجوب التأهب واتخاذ التدابير الصارمة تجاه مثل هذه الجموع المشاغبة الآتية فى الطريق .

لقد كان اليكسيوس كومنين ، على أحسن الفروض ، يتوقع أن تصله بعض فرق الفرسان المرتزقة من الغرب اللاتينى للعمل فى الجيش الإمبراطورى ، كما كان يحدث على مدى سنوات طويلة من قبل ؛ ولكنه أبدا ، لم يتوقع مثل هذه الأعداد الهائلة على شكل هجرة جماعية كما حدث فى الحملة الشعبية . ومن ناحية أخرى ، كانت الأحداث التى واكبت حملة والتر المفلس قد نبهته إلى اقتراب الخطر . وتقول آنا كومنينا إن الإمبراطور كان يعرف مدى مايمكن للفرنج أن يسببوا من متاعب كما كان يعرف مدى جشع هذا الجنس (تسميهم آنا كومنينا الكلت Kelts) وحبه للمال . ومن ثم فإن الإشاعة التى دارت عن اقترابهم قد أخافت الإمبراطور ، فتأهب للقائهم بكافة السبل ، بما فيها الحرب إذا اقتضى الأمر . وتواصل المؤرخة إبنة الإمبراطور روايتها فتقول إن الذى حدث فى الواقع كان أكبر هولاً ، وأكثر رعبا من الإشاعة التى دارت : لأن الغرب بأسره ، وكل البرابرة الذين يعيشون بين البحر الادريانى والمضيق (مضيق جبل طارق) قد هاجروا معا إلى آسيا ، عبر بلدان أوربا ومعهم عائلاتهم تحت زعامة بطرس .. وبينهم عدد كبير من المتدينين ".. يفوقون رمال الشاطئ ، أو نجوم السماء عددا.."، يحملون سعف النخيل والصلبان على أكتافهم ، وبينهم عدد كبير من النساء والأطفال القادمين من شتى أرجاء الغرب(٦٤) .

على أية حال ، فإن بطرس قد غادر كولون فى حوالى ٢٠ ابريل سنة ١٠٩٦م (٦٥) ، بجيش كبير من المشاة ، وعدد من الفرسان ، والباقى من المعدمين من أهل الريف وسكان المدن. وسار على نفس الطريق الذى سار عليه والتر المفلس من قبل . وفى البداية سخر الألمان من أولئك الذين يتركون المضمون فى سبيل رحلة غامضة مجهولة المصير ، ولكنهم ما لبثوا أن انضموا إلى بطرس بالآلاف وبينهم بعض الأمراء (٦٦) ، كما ألهبت الفكرة الصليبية خيال

البعض فقادوا حملات أخرى منهم أميكو وفولكمار وجوتشولك كما سنرى . على أية حال سار بطرس بأتباعه الذين جمعهم "من كل شعب وقبيلة ولغة ووطن" على حد تعبير وليم الصورى(٦٧) وعندما وصل إلى حدود المجر أرسل يطلب من ملك المجر "كولومان" السماح لجيشه بعبور البلاد ، ووافق الملك المجرى بشرط ألا يتسببوا فى شغب أو نزاع أو يحاولوا نهب البلاد ، ووافق بطرس على هذه الشروط . وسارت الحملة الشعبية بقيادة هذا الراهب العجيب دونما متاعب حتى مدينة سملين . وكان بطرس يقود مسيرة الفقراء وهو يمتطى حماره الذى يشبهه ، والفرسان الألمان يمتطون خيولهم ، وخلفهم العربات الثقيلة التى تحمل مؤن الجيش ، وكانت الغالبية الساحقة من المعدمين السائرين على الأقدام ..(٦٨).

فى سملين بدأت مسيرة "جيش الرب" تكشف عن وجهها القبيح ، وبدأ الواقع يطل بوجهه ساخرا من المثال الذى أهانه أصحابه . ويبدو أن حاكم سملين ، الذى كان من الأتراك الغز أصلا ، قد خاف من اقتراب هذه الأعداد الهائلة ، كما أن مسيرة الصليبيين بقيادة والتر قبل فترة قصيرة قد علمته أن راية الصليب التى ترفعها جموع اللاتين تحجب راية الشر الإنسانى والطمع الدنيوى الذى يحرك المقهورين من أبناء الغرب الأوربى . وحاول الحاكم المذعور أن يتخذ بعض الإجراءات الأمنية . ولكن روح التعصب والهوس التى حكمت الكاثوليك الذين رأوا فى أتباع الكنيسة الشرقية أعداء للرب ، وجموع الجماهير التى أهاجها مشهد أدوات رفاقهم وأسلحتهم الذين سبقوهم تحت قيادة والتر المفلس وهى معلقة فوق المدينة ، كانت هى المحرك الفعال لغضب الصليبيين . وهاجموا المدينة وقتلوا غالبية سكانها صبرا بسيوفهم أو أغرقوهم فى النهر القريب .. وانقشع غبار المذبحة التى ارتكبها "الحجاج السائرون على طريق الخلاص" عن مشهد فظيع لأربعة آلاف قتيل ، وعدد لايحصى من الجرحى .. وتحولت مدينة سملين إلى مدينة أشباح ، يتصاعد دخان الحرائق فى كل ركن منها أنفاسا غاضبة من أفعال مسيرة "جيش المسيح" لم تكن تلك مذبحة ضد المسلمين الذين خرجت الحملة ضدهم ، أو ضد اليهود الذين اضطهدوا المسيح ، ولكنها مذبحة جرت على "الإخوة المسيحيين" الذين خرج الصليبيون لتحريرهم كما زعموا .

عندما علم نيكيتاس الحاكم البيزنطى لبلجراد بما جرى فى سملين على أيدى جنود جيش بطرس ، خاف أن يصيب مدينته نفس ما أصاب مدينة سملين التعسة على أيدى جنود جيش الخلاص القادم من الغرب ، فانسحب إلى نيش حيث كانت قيادة قوات الأقليم(٦٩) ، وعندما

رأى السكان أن الحامية البيزنطية قد انسحبت أخذوا ما يمكنهم حمله وأخذوا مواشيهم وأغنامهم ولاذوا بالغابات ..

وفى تلك الأثناء عرف بطرس أن ملك المجر قد أغضبته المذبحة فجمع جيشا كبيرا للانتقام، ومن ثم سارع بالهرب من سملين بعد أن نهب أتباعه أمتعة السكان وأملاكهم . وسار حتى بلجراد ، وهناك عسكر بقواته فترة أمام المدينة المهجورة . ثم دخل جيش بطرس إلى بلجراد البيزنطية لينهبوها أيضا ثم يلقونها فريسة للنيران .. وتابعت "قوات الرب" مسيرتها مخلفة الدمار والرعب فى كل مكان مرت به دليلا على أن السائرين على طريق الخلاص الجديد "الذى بناه الرب" كانوا قد نسوا الهدف الذى قد تحركوا فى سبيله ، والمثال الذى ألهمهم ، عندما أثارت أملاك المجريين والبلغار "المسيحيين" غرائز الطمع فى نفوسهم .

كان نيكتياس قد أرسل إلى القسطنطينية يخبر الإمبراطور بقدوم بطرس الوشيك ، وقبع فى مدينة نيش الحصينة ينتظر المبعوثين البيزنطيين الذين سيرسلهم اليكسيوس لمرافقة جيش بطرس حتى القسطنطينية . فعندما وصلت الإمبراطور أنباء جيوش الغرب القادمة اجتمع بقادة الجيش البيزنطى وأرسل عددا منهم إلى المناطق التى توقع أن يمر منها الصليبيون . وكانت تعليماته لهؤلاء القادة تقضى بأن يحسنوا استقبالهم ، وأن يمدوهم بحاجتهم من الطعام والمؤن، وأن يراقبوا تحركاتهم جيدا فإذا حادوا عن الطريق ، أو لجأوا لشن الغارات أو نهب البلاد ، فعليهم أن يردعوهم بمناوشات عسكرية خفيفة . وقد صحبت الفرق العسكرية البيزنطية أعداد من المترجمين العارفين باللغة اللاتينية كانت مهمتهم تسوية أى نزاع ينشب بين الصليبيين والأهالى[٧٠] .

وإذ خاف بطرس من انتقام الملك المجرى كما أسلفنا القول فقد آثر أن يسير بجيشه فى ظلمات الغابات حتى وصل إلى مدينة نيش حيث كان نيكيتاس ينتظر ما سوف تسفر عنه أحداث المستقبل . ولاشك فى أن مشهد جيش بطرس وهو يقترب من المدينة قد أثار مخاوف نيكيتاس لاسيما وأن "جيش الرب" كان قد اكتسب سمعة سيئة للغاية فى تلك الأنحاء كجيش من الجياع والمغامرين واللصوص الذين لايردعهم رادع عن ارتكاب أبشع ما يمكن للإنسان أن يرتكبه فى حق الإنسان . واقترب الجيش الكبير تتبعه العربات التى تحمل المؤن وأعداد كبيرة من الماشية والأغنام التى سلبها الصليبيون فى الطريق . وتمت المراسلات المعتادة من أجل السماح للصليبيين بالشراء من أسواق المدينة ، واشترط حاكم المدينة أن يأخذ بعض الرهائن من الصليبيين حتى يضمن عدم حدوث أية متاعب ..

وخرج الأهالى يبيعون للصليبيين ما يحتاجون إليه دون حدوث مشاكل خطيرة ، وفى الصباح عاد الرهائن وتأهب الجيش الصليبى للمسير ، ولكن "بعض صانعى المشاكل" على حد تعبير وليم الصورى تسببوا فى إثارة معركة بسبب نزاع جرى فى الليلة السابقة أثناء عمليات البيع والشراء من البلغار . وبدأ المشاغبون يحرقون الطواحين الواقعة فى الريف خارج أسوار المدينة ، وحولوا سبعا منها كانت قائمة على النهر إلى هشيم تذروه الرياح ، ثم أضرموا النيران فى مساكن القرويين الواقعة فى هذه المناطق وأحرقوا سكانها أحياء بداخلها .. ثم سارعوا للحاق بزملائهم وكأنهم لم يفعلوا شيئا .

وجد حاكم المدينة نفسه مضطرا لمعاقبة الصليبيين الذين كان قد استقبلهم بود شديد فى الليلة السابقة ، فهاجم مؤخرة جيش بطرس وأعمل سيوفه فى الصليبيين ، وأسر منهم عددا كبيرا . وحين علم بطرس بالمذبحة عاد أدراجه إلى المدينة ، وفى الطريق شاهد أفراد جيش بطرس عشرات الجثث من رفاقهم ترصع الطريق ، وتحكى عن الخسارة التى جلبها المشاغبون على رفاقهم . وجرت مفاوضات بين بطرس وكبار قادة جيشه من ناحية ، وبين السلطات البيزنطية فى مدينة نيش من ناحية أخرى لإقرار السلام بين الطرفين . ولكن بطرس الذى كان قادرا على إلهاب حماسة جماهير العامة فى الغرب الأوربى بالمثال الصليبى ، لم يكن على مستوى والتر المفلس كقائد يقود هذه الجموع المشاغبة على أرض الواقع . فتجدد القتال الذى شارك فيه جميع أفراد جيش بطرس . وانتهت هذه المعركة بفرار جيش بطرس بعد أن خسر عددا ضخما من أفراده ، فضلا عن الأموال التى كان قد جمعها من أمراء الغرب وأثريائه لشراء حاجات جيشه الكبير .

وبعد أيام ثلاثة من التشتت والاختباء عاودت شراذم جيش بطرس التجمع فى الثالث والرابع من شهر يوليو لتواصل المسير صوب صوفيا[٧١] . وفى صوفيا وصلت رسل الإمبراطور البيزنطى تحمل الأوامر إلى بطرس وكبار قادة جيشه ، وتبلغهم أن الإمبراطور قد استاء من أنباء الشغب وأعمال السلب والنهب والعنف التى ارتكبها الصليبيون فى حق رعاياه طوال مسيرتهم فى أراضى الإمبراطورية ، وأنه يجب عليهم أن يسرعوا للقاء الإمبراطور فى القسطنطينية ، مع مراعاة عدم البقاء فى أية مدينة إمبراطورية أكثر من ثلاثة أيام[٧٢] .

أخيرا وصلت شراذم الحملة الشعبية بقيادة بطرس إلى القسطنطينية فى أول أغسطس ١٠٩٦م ، بعد رحلة استمرت ثلاثة أشهر وأحد عشر يوما[٧٣] . وكان الإمبراطور يتعجل لقاء

قائد هذا الجيش العجيب ، فتم استدعاء بطرس للمثول بين يدى الإمبراطور . وربما طافت ابتسامة سخرية ورثاء على شفتى العاهل البيزنطى واعتملت فى صدره كوامن المشاعر التى اختلط فيها الحنق بخيبة الأمل وهو يقابل هذا الراهب المسن ، بهيئته الزرية وثيابه الرثة ، وجسده الهزيل . كان الإمبراطور يتوقع أن تصله مجموعة من فرسان الغرب الأشداء الذين طالما خدموا كمرتزقة تحت الراية البيزنطية ، وأن يجد فى حضرته قائد أولئك الفرسان بدلا من هذا الراهب الذى سمع عنه وعن جيشه المشاغب كثيرا من الأنباء السيئة . ويقول وليم الصورى إن الإمبراطور سأل بطرس عن هدفه ، وأن الأخير أخبره أن جيشا كبيرا من أمراء الغرب وفرسانهم سوف يتبعه على الطريق(٧٤) . وإذ أدرك الإمبراطور بخبرته أن الجموع التى جمعها بطرس لاتصلح للقاء فرسان الأتراك السلاجقة ، الذين مزقوا صفوف الجيش الإمبراطورى أكثر من مرة ، فإنه أحسن لبطرس بالمال وبالنصيحة ، وأوصاه بأن ينضم إلى جيش والتر المفلس وينتظروا سويا حتى تصل قوات الأمراء(٧٥) .

ولكن بطرس الذى غرته كثرة أتباعه ، بعد انضمامهم إلى جيش والتر ، رفض نصيحة الإمبراطور فى الوقت الذى تقبل فيه هداياه . لقد كان أتباعه يتحرقون شوقا لقتال المسلمين وهم واثقون من النصر . أليسوا هم جند الرب السائرين على طريق الخلاص الذى بناه ؟ أليسوا هم الفقراء الموعودين بوراثة ملك المسيح الدجال بعد تدمير جيوشه كما يخبرهم الكتاب المقدس؟ ألم يخبرهم البابا فى كليرمون أن من يموت منهم فى سبيل هذا الهدف سينال الخلاص؟ فما قيمة الخبرة القتالية ، أو الكثرة العددية ، وما قيمة الاستعداد العسكرى إذا كانوا سيخوضون حرب الرب الذى اختارهم لهذه المهمة ، ولتوقيع الانتقام على "الوثنيين المخذولين"؟.

لقد كان "جنود الرب" فى الحملة الشعبية أسرى للوهم الذى أنبته التعصب فى نفوسهم وباتوا يظنون أن نتائج المعركة ضد المسلمين مضمونة لصالحهم : ومن ثم فإنهم رفضوا تماما أن يستمعوا لنصائح الإمبراطور العارف بقدرات المسلمين وقوتهم . ومن ناحية أخرى ، كانت تصرفات هذه الجموع المشاغبة الطامعة فى الأراضى البيزنطية وفى ضواحى العاصمة الإمبراطورية هى التى حفزت الإمبراطور الحانق على نقلهم إلى آسيا الصغرى لكى تشهد رمالها نهاية مسيرة الفقراء ذات الألف ومائتى ميل .. ولنرجئ حديثنا عن ذلك إلى حين .

فبعد رحيل بطرس من ألمانيا ظلت جذوة الحماسة الصليبية مشتعلة متوقدة . ولم يكد يمضى وقت طويل على رحيل الناسك العجوز وجيشه العجيب حتى قام قسيس ألمانى من

سكان الراين يدعى جوتشولك بالسير على هدى خطاه[٧٦] . وتجمع حول هذا القسيس عدد كبير انضموا إليه من مناطق شرق فرنسا واللورين وجنوب ألمانيا ، وكانوا يتشكلون من الخليط المعتاد من الفرسان والجنود المشاة والعامة من الفلاحين وعامة فقراء المدن . وساروا على نفس الطريق الذى سارت عليه جماعات والتر المفلس وبطرس الناسك من قبل . ويبدو أن مسلك هذه الجماعة كان طيبا فى بداية الأمر ، لأنهم عندما وصلوا إلى مدينة ويسيلبورج Wieselburg على الحدود المجرية ، استقبلوا بترحاب وود بناء على أوامر الملك كولومان ملك المجر الذى أمر المجريين بأن يقدموا لهم البضائع بأسعار مناسبة . ولكن حدث أثناء المفاوضات التى استمرت عدة أيام أن سرق بعض الألمان وغيرهم كميات من الخمر من المجريين وشربوا حتى الثمالة و ".. أسلم جيشه نفسه للسكر والعربدة.." على حد تعبير وليم الصورى الذى تفيض كلماته بالإدانة لمسلك جماعة جوتشولك . وأخذ الصليبيون فى ممارسة أفعالهم العدوانية المعتادة ، فنهبوا الحقول ، وقتلوا الماشية والأغنام ، وقتلوا كل من قاومهم أو حاول دفعهم ، ويقول البرت الأيكسى أنهم ارتكبوا عدة جرائم يستحى أن يذكرها ، وينقل عن بعض شهود العيان أنهم ثبتوا واحدا من الشبان المجريين فى مكان السوق بعصا مرورها خلال جسده. ويقول وليم الصورى إنهم ذبحوا الناس ، وسرقوا البضائع التى كانت معروضة للبيع وانتهكوا كل حقوق الضيافة .

وعندما عرف الملك كولومان بهذه الأنباء المزعجة اهتاج غاضبا ، وجمع جيشا كبيرا وجهه لقتال أولئك المعتدين . ولجأ الصليبيون إلى مكان تحصنوا فيه ، واستعدوا للقتال . وفى تلك الأثناء أرسل الملك المجرى وفدا برسالة تطلب من جوتشولك ورفاقه التسليم[٧٧] . وبعد أن سلم الصليبيون سلاحهم حصدتهم سيوف المجريين وهلكوا جميعا باستثناء عدد قليل من الذين تمكنوا من الفرار والعودة إلى بلادهم لكى يحكوا ماجرى على جوتشولك فى أول يوليو سنة ١٠٩٦[٧٨] .

وقبل ذلك بيوم أو يزيد ، كان جيش المجر قد مزق عصابات فولكمار شر ممزق أمام مدينة نيترا Neitra[٧٩] أول مدينة كبيرة يصادفها الصليبيون داخل المجر . وهنا ينبغى أن نشير إلى أن أتباع فولكمار وجوتشلك قد شنوا بعض الهجمات ضد اليهود فى هذه المناطق ، بعد أن بلغت مسامعهم أنباء مذابح اليهود على يد قوات اميخو[٨٠] .

أما الكونت اميخو وعصابته ذات السمعة السيئة ، فقد ارتكبوا أبشع الجرائم[٨١] . وانضم إليه آخر هو وليم النجار ، وعدد آخر من النبلاء المتعطشين للدماء من فرنسا وألمانيا .

وتألف جيشهم من ذلك الخليط المعتاد من المغامرين والمعدمين ، من الرجال والنساء ، من الشيوخ والأطفال ، من الفرسان والجنود المشاة .. فضلا عن الفلاحين والعامة المشاغبين المسلحين بالعصى والهراوات والفئوس وما إلى ذلك من أدوات . وفى رأى ألبرت الأيكسى أن هذه المجموعة كانت من الرجال الخطاة والنساء والأطفال الذين رأوا فى الحملة الصليبية مجرد رحلة للمتعة ..

زعم أميخو أن صليبا قد وسم على جسده بفضل معجزة إلهية تدعوه إلى الحرب المقدسة ضد أعداء الرب . وبسبب هذه الرواية الكاذبة ، وبفضل شهرته كمحارب استطاع أن يجمع حوله عددا كبيرا من الجنود كان يفوق عدد أولئك الذين استطاع كل من فولكمار وجوتشولك جمعهم . وانضم اليه كثيرون من العامة المتحمسين للسير على درب القدس ، أملا فى مكاسب الدنيا ، أو طمعا فى خلاص الآخرة . وكانت هذه الجماعة تحمل أوزة أكدوا أنها ملهمة بالروح القدس ، كما كانت هناك عنزة زعموا أنها مسيرة بالروح القدس هى الأخرى . واتخذ كثيرون من الأوزة والعنزة دليلين يقودانهم إلى القدس ".. وكان معظم الناس يتبعونهما كالبهائم ، معتقدين تماما أن هذه هى الحقيقة .." وفقا لرواية البرت الآيكسى .

وسارت هذه الجموع المشاغبة تزرع الموت والدمار بين الجماعات اليهودية فى حوض الراين . وعندما وصل أميخو ورفاقه إلى حدود المجر طلبوا من ملكها كولومان السماح لهم بعبور مملكته ؛ ولكن الملك المجرى رفض دخولهم بسبب ما سمعه عن وحشيتهم ، وبسبب تجاربه الأليمة مع قوات الصليبيين الذين عبروا أراضى المجر من قبل . ويقول إيكهارد الأورى أن الملك رفض عبور الصليبيين لأن الفكرة التى شاعت فى المجر عن الصليبيين كانت تقول إنهم يقتلون المجريين كما يقتلون الوثنيين ولايفرقون بين المجريين المسيحيين وبين الوثنيين .

على أية حال ، فإن رفض كولومان السماح لجيش أميخو بدخول المجر أدى إلى قيام الصليبيين بحصار مدينة ويسيليورج على الحدود بالقرب من نهر الدانوب . وأخذوا يستعدون لبناء جسر لعبور النهر ومهاجمة المدينة . واستغرق ذلك ستة أسابيع ، وبدأت المناوشات فى هذه الأثناء بينهم وبين المجريين . وقامت عصابات الصليبيين بنهب المناطق الريفية المجاورة . وبدا للصليبيين أن النصر فى متناولهم ، إذ أخذ قادتهم يتشاجرون حول أحقية كل منهم فى ملك المجر بعد أن يتم لهم فتحها !! وعندما اكتمل بناء الجسر هاجم الصليبيون المدينة ، ولكن الهزيمة كانت من نصيبهم فردوا على أعقابهم ، وغرقت منهم أعداد كثيرة فى مياه نهر

الداتوب. وقضى المجريون على هذه العصبة تماما على حين فر أميخو ورفاقه بفضل خيولهم القوية .

كانت هذه العصبة هى آخر العصابات الشعبية الصليبية التى خرجت نتيجة للتبشير الشعبى والدعوة البابوية للحملة الصليبية . "لقد ارتكبوا كل ما هو خارج على القانون" كما يقول وليم الصورى . وكان المفروض أن يمضوا إلى الرحلة التى أخذوا على عاتقهم القيام بها طاعة لأوامر الرب ، فى نظام صارم على طريق الحج الذى قاموا به من أجل المسيح ، ولكنهم حادوا عن الطريق وارتكبوا الجرائم المجنونة . لقد كان المثال الذى حركهم جميعا مثالا غامضا تختلط فيه الأطماع الدنيوية بالعواطف الدينية المتعصبة . وحين بدأت عجلة الأحداث تدور تحركوا على أرض الواقع يدوسون جثة المثال بأقدامهم الحافية على طريق الخلاص . وحيثما تواجدوا فى المجر والبلقان ، بل وفى حوض الراين أيضا ، تركوا خلفهم بيوتا تحترق ، وقرى تنعى سكانها ، وجثثا ترصع الطريق .. دليلا على أن "جيش الرب" قد مر من هذا الطريق . لقد بات الطريق من غرب أوربا إلى القسطنطينية مرصعا بالقرى المحترقة ، والمدن المسلوبة ، وأكوام الجثث .

وكان على بيزنطة أن تعانى من تطرف الجموع القادمة من الغرب المسيحى ، هذه الجموع التى كان المفروض أنها قد رحلت من غرب أوربا لنجدة بيزنطة ومساعدتها ضد المسلمين . وفى الطريق تضافر الجوع والمرض مع المقاومة المحلية للفتك بأعداد كثيرة من الجموع الصليبية الشعبية . ولم تصل إلى القسطنطينية من هذه الجموع الغفيرة التى تحركت من بلدان الغرب الأوربى سوى شراذم هزيلة هى التى قادها والتر المفلس وبطرس الناسك ، والتى تركناها تحت أسوار القسطنطينية ونحن نتابع بقية العصابات الصليبية .

هذه الجموع المشاغبة ، التى كانت فى ضيافة الإمبراطور البيزنطى اليكسيوس كومنينوس، تصرفت بطريقة مخزية ، ".. وأخذوا ينهبون قصور المدينة ويحرقونها ، كما أخذوا يسرقون الرصاص من سقوف الكنائس ويبيعونه لليونانيين .." كما يحكى لنا الفارس المجهول[٨٢] . وإذ غضب الإمبراطور من فعالهم الشائنة أمر بنقلهم إلى آسيا الصغرى ، وهناك انقسموا إلى مجموعات عرقية لأن الفرنسيين كانوا ".. متكبرين بطريقة لاتطاق .." واختار النورمان قائدا لهم ، كما اختار التيوتون (الألمان) لأنفسهم قائدا . وفى منطقة كيفيتوت Civitot ، التى كانت منطقة الحدود بين أملاك السلاجقة وأملاك البيزنطيين ، عسكر الصليبيون مايقرب من

شهرين . وعلى الرغم من وفرة الأقوات ، كما يقول وليم الصورى ، بدأ الصليبيون يهاجمون مناطق الريف ويسرقون قطعان الماشية . وفى تلك الأثناء كانت الرسائل ترد إليهم من الإمبراطور البيزنطى تحذرهم وتوبخهم وتنصحهم بعدم المغامرة ضد المسلمين ..

ولكن الصليبيين ، الذين وصمتهم آنا كومنينا بالجشع والوحشية ، تصرفوا بطريقة مرعبة تجاه سكان هذه المناطق الذين كانت منهم نسبة كبيرة من المسيحيين . وتحكى آنا كومنينا أنهم كانوا يمزقون الأطفال ، أو يحرقونهم على النيران ".. كما أنهم كانوا يعرضون العجائز والمسنين لكل أنواع العذاب .." لقد كان "جنود الرب" يخوضون حربهم ضد السكان بطريقة لايرضى عنها الرب ، أو المسيح .

وبالقرب من مدينة نيقية وجدوا قلعة مهجورة اسمها أكسيريجوردو Xerigordo فاستولوا عليها ووجدوا بها كميات هائلة من المؤن والأطعمة . وعندما علم الأتراك السلاجقة أن الصليبيين فى هذه القلعة ، قدموا لقتالهم ، وفرضوا حصارا مضنيا على القلعة استمر ثمانية أيام عانى الصليبيون أثناءها كثيرا .. وانتهى الحصار بهلاك جميع الصليبيين داخل القلعة وأسر من تبقى منهم حيا ..

عند وصول أنباء هذه الكارثة إلى المعسكر الصليبى كان رد الفعل عنيفا ، وحاول الزعماء تهدئة الجماهير الغاضبة ، ولكن الجموع الخرقاء التى ظنت أنها تكون جيش الرب كانت واثقة من النصر ، فاحتجزوا الزعماء وأهانوهم واتهموهم بالجبن لأنهم لايريدون أن يثأروا لدم الإخوة المسيحيين . وفى تلك الأثناء ، كان قائد الجيش الإسلامى ، الذى يعرف مدى جشع الصليبيين وحبهم للمال ، يضع خطته للقضاء على بقية الجيش الصليبى . فأرسل إثنين من جواسيسه إلى معسكر الصليبيين فى كيفيتوت ليشيعا أن النورمان استولوا على نيقية ، وأنهم يقتسمون الغنائم التى استولوا عليهم هناك . وكان لهذه القصة المختلفة تأثير مذهل فى معسكر بطرس، فقد سادت إرادة "أسوأ العناصر" على حد تعبير وليم الصورى . وتغلبت مشاعر الطمع على نداءات التعقل .. وانطلق الصليبيون صوب نيقية فى فوضى غامرة تاركين النساء والأطفال ليقعوا فى الكمين الذى أعده المسلمون فى أحد الأودية الضيقة .

لقد خرج الصليبيون من كيفيتوت فى مسيرة الموت التى أنهت هذه الحملة الغريبة التى ضمت آلافا عديدة من غير المحاربين وعددا ضئيلا من الفرسان ، ولكنهم جميعا كانوا على ثقة من أن حربهم فى سبيل الصليب لابد وأن تنتهى بالنصر .. وانقض فرسان المسلمين على هذه

الجموع الخرقاء ، فى ذلك الوادى الضيق ، وأمطروهم وابلا من السهام والموت . وأخذت السيوف تزرع الموت فى هذه الأجساد الهزيلة التى أضناها الرحيل الطويل . وحاول الناجون أن يصلوا إلى كيفيتوت حيث الملاذ والأمان ، ولكن خيول الأتراك السلاجقة كانت فى أعقابهم ، ومعها الموت يقتنص الفارين .. وفوجئت جموع النساء والأطفال والمسنين بوجه المذبحة البشع يقتحم أنظارهم فى المعسكر الصليبى . وتعين على أفراد "جيش الرب" أن يشربوا من نفس الكأس التى طالما سقوها لضحاياهم على طول الطريق من الغرب الأوربى حتى أرض الشرق المضيافة .. فقد استضافت أجسادهم التى حصدها منجل الموت الفتاك . وأسر الأتراك بعض النساء الجميلات والشبان الأصحاء وأخذوهم عبيدا وإماء .

فى هذه المعركة قتل والتر المفلس وعدد آخر من قادة هذه الحملة العجيبة ، ونجا بطرس الناسك من الموت لسبب أو لآخر [٨٣] . وبذلك انتهت الحملة الشعبية على تراب الشرق الذى داعب خيال أولئك الذين ساروا على درب بطرس الناسك وأمثاله . وكما مرغ الصليبيون المثال الذى حركهم وألهمهم فى طين الواقع الذى جسدته تصرفاتهم الهمجية ، فقد انتهت آمالهم فى الثراء والخلاص تحت سماء "الشرق العجيب" . وحين وارى تراب هذا الشرق أجساد صليبيى الحملة الشعبية ،توارت مع هذه الأجساد أحلام كثيرة حملتها صدور أفراد جيش المقهورين الغربيين الذين أرادوا قهر الشرق الإسلامى وأهله .

ومن المهم أن نشير إلى أن موقف المؤرخين اللاتين المعاصرين من الحملة الشعبية بأقسامها المختلفة يكشف عن اختلاف منظور كل طبقة من طبقات المجتمع الأوربى تجاه الحركة الصليبية. ذلك أن سطور المؤرخات اللاتينية تشى بالإدانة لتصرفات أفراد الحملة الشعبية ، على الرغم من أن جيوش حملة الأمراء قد اقترفت من الفظائع والشنائع ما يفوق جرائم الحملة الشعبية ، والناظر فى صفحات هذه المؤرخات المعاصرة يكتشف موقفا معاديا ، أو موقفا يتسم بعدم المبالاة فى أحسن الأحوال ، من أحداث الحملة الشعبية ، ونهايتها المأساوية . وهو موقف يمكن تفسيره فى ضوء الحقيقة القائلة بأن معظم كتاب هذه المؤرخات كانوا من رجال الكنيسة ، أى أنهم كانوا يتبنون نظرة البابوية التى رأت فى الحملة الصليبية أداة من أدوات السياسة الخارجية والسياسة الداخلية على حد سواء .

ولكن الشعر العامى ، الذى كان مزدهرا فى تلك الفترة ، يكشف عن موقف مختلف تماما من حملة الفلاحين أو الحملة الشعبية . فالشعراء المجهولون الذين كتبوا باللهجات العامية

الأوربية كانوا لسان حال الطبقة التى أفرزت هذه الحملة ، كما كانت أشعارهم حبلى بالمعانى والقيم والمثل والأمانى الشائعة بين الناس . وكانت الحملة الشعبية هى التجسيد الحى لأمانى هذه الطبقة وأطماعها ؛ ومن ثم فإن الشعر الصليبى رفض أن يدينها كما فعل المؤرخون . فقصيدة أنطاكية ، مثلا ، تتجاهل التجاوزات وأعمال السلب والنهب التى ارتكبها صليبيو الحملة الشعبية فى القسطنطينية ، كما تضفى طابعا من البطولة الخيالية على أحداث كيفيتوت[٨٤]. وهناك رواية شعرية أخرى تناولت الأحداث التى دارت إبان الحملة الصليبية الأولى . وهذه القصيدة تحكى الأحداث التى أدت إلى نهاية الحملة الشعبية بشكل يمزج بين التاريخ والفن ، وعلى نحو يكشف عن الموقف الشعبى المتعاطف تماما مع الحملة التى خرجت تعبيرا عن طبقة المقهورين وأملهم فى الخلاص الدنيوى والأخروى[٨٥] .

هذا الاختلاف فى الموقف الفكرى من الحملة الشعبية ، لم يكن هو الاختلاف الوحيد فى موقف كل من طبقة الحكام (من النبلاء ورجال الكنيسة) وطبقة المحكومين . وإذا كانت جموع المشاركين فى الحملة الشعبية قد تصوروا أنفسهم "جنود الرب" الذين اختارهم لتوقيع انتقامه على أعدائه ، فإن تصرفاتهم على صعيد الواقع كانت جد مخالفة للمثال الذى اتخذوه مبررا لحركتهم . لقد اختلط العنف المجنون والطمع الإنسانى بأمل الخلاص الأخروى فى نفوس أولئك الذين كانوا طلائع الحركة الصليبية . وحين انتهت هذه الحركة الشعبية على رمال آسيا الصغرى، كان الطريق يشهد جموعا جديدة من جيوش الفرسان الذين اتخذوا الشرق مقصدا .. ولكنهم منذ البداية تصرفوا بدافع من أهداف دنيوية مرسومة .

وتلك قصة أخرى ..

هوامش الفصل الثالث

(١) حرص البابا على ضمان النجاح لخطته ، فأمر الأساقفة ومقدمى الأديرة الفرنسيين أن يحضروا معهم السادة الإقطاعيين البارزين فى مناطقهم ، أنظر عن خطابات البابا بشأن مجمع كليرمون :

AOL, tom. I, pp. 107-109.

وقبل أن يصل إلى كليرمون كان البابا يعلم أن ريمون السانجيلى، كونت تولوز، سيأخذ شارة الصليب، أنظر : Cantor, Med. Hist., pp. 320-321 .

وفى السابع والعشرين من نوفمبر ١٠٩٥م وصل عدد من الرسل إلى كليرمون حيث أخبروا البابا أن سيدهم ريمون السانجيلى سيأخذ شارة الصليب ، أنظر :

H. Hagenmeyer, "Chronologie de la Premiere Croisade. 1094-1100" ROL, VI, p. 225 .

(٢) لوقا ١٤ ر ٢٧ "ومن لايحمل صليبه ويأتى ورائى ، فلا يقدر أن يكون لى تلميذا" .

(٣) Robert the Monk, p. 4; Baldric of Dol, p. 7; William of Tyre, I,.p. 93 .

(٤) Fulcher of Chartres, pp. 65-66 ; Robert the Monk, pp. 2-3 .

(٥) Fulcher of Chartres, p. 67 ; Baldric of Dol, pp. 14-15; Guibert of Nogent, p. 11 .

(٦) Robert the Monk, pp. 4-5 .

(٧) Gesta Francorum, p. 2; Fulcher of Chartres p. 68 .

يقول فوشيه : "كم كان مناسبا ومفرحا لنا جميعا أن نرى كل هذه الصلبان المصنوعة من الحرير ، والقماش المذهب ، أو غيره من الأقمشة الجميلة التى قام الحجاج ، سواء من الفرسان أو غيرهم من العلمانيين والكنسيين ، بخياطتها على أكتاف ستراتهم . وقد فعلوا هذا بأمر البابا أربان الثانى عندما أقسموا على الرحيل .." .

(٨) Fulcer of Chartres, p. 68; William of Tyre, vol. I, p. 93 .

(٩) Bishop, The Penguin Book of the Middle Ages, p. 105; Mayér, The Crusades, pp. 12-13; Keen, The pelican Book, pp. 117-118 .

(١٠) Guibert of Nogent, "Historia quae dicitur Gesta Dei per Francos" RHC, Occ., IV, p. 16 .

(١١) كان النزاع حول التقليد العلمانى بين جريجورى السابع وهنرى الرابع ، والذى كان مايزال مشتعلا فى بابوية أربان الثانى ، قد جعل البابا يستبعد الإمبراطور الألمانى من أية خطة لشن حرب مقدسة فى الشرق. ولم تكن البابوية تستطيع أن تعتمد على فيليب الأول ملك فرنسا بعد أن وقعت عليه قرار الحرمان ، على حين كان وليم روفوس ملك انجلترا مشغولا بتوطيد سيادته . وكان النورمان فى جنوب إيطاليا وصقلية غير ناضجين فى نظر البابا للقيام بهذه المهمة . أما أسبانيا فكانت ذكريات هزيمة الزلاقة ماتزال ماثلة وكان الصراع ضد المسلمين قد انتكس موقتا . وكان سكان اسكندنافيا بأعدادهم القليلة بعيدا عن ذهن البابا الذى توجه بندائه إلي الفرنسيين الذى كان هو نفسه واحدا منهم ، أنظر :

Sumberg, La Chanson d'Antioche, pp. 144-45; Mayer, op. cit., p. 2; Cantor, Med. Hist., pp. 320-323 .

(١٢) Hagenmeyer, "Chronologie" ROL, VI, pp. 224-225; AOL, I, pp. 109-110 .

(١٣) Hagenmeyer, "Chronologie", p. 226 .

(١٤) AOL, I, p. 116 .

(١٥) Ibid, I, p. 119; Chronologie, p. 243 .

(١٦) أنظر نصوص هذه الخطابات فى : Riley - Smith (ed.), The Crusades, pp. 38-40 .

أنظر أيضا : AOL, I, pp. 113-116, 121-122; Chronologie, p. 251 .

(١٧) Fulcher of Chartres, p. 72 .

(١٨) Chronologie, p. 220 .

(١٩) يوشع براور ، عالم الصليبيين ، ص٤٤- ص٤٥ .

(٢٠) Bloch, Feudal Society, pp. 81-85; Wolff, the Awakening, pp, 116-118 .

ويجب أن نضع فى اعتبارنا أن كثيرين من علماء اللاهوت آنذاك لم يكونوا راضين عن تحديد يوم القيامة على هذا النحو ، وكانوا يتذكرون دائما قول بولس الرسول بأن يوم الدينونة سيأتى مثل لص الظلام : ومن ثم، فأنهم أدانوا هذه المحاولات لاختراق السر الذى أخفاه الرب .

(٢١) Grousset, Histoire, I, p. 11 .

(٢٢) Cantor, Med. Hist., p. 321; Cf. Riley - Smith, The Crusades, p. 12 .

(٢٣) Bloch, Feudal Society, p. 73 .

(٢٤)

(٢٥) La Chanson d'Antioche, p. 146 .

(٢٦) براور ، عالم الصليبيين ، ص٤٩ .

(٢٧) Fulcher of Chartres, p. 75; William of Tyre, I, pp. 83-94 .

والجدير بالذكر أنه جاء فى المزامير (٢٢ : ٢٧) "تذكر وترجع إلى الرب كل أقاصى الأرض ، وتسجد قدامك كل قبائل الأمم" .

(٢٨) Guibert of Nogent, RHC, occ. IV, p. 66; Gesta Francorum, p. 2.

(٢٩) William of Tyre, I, pp. 96-97 .

(٣٠) وصفت لنا أنشودة أنطاكية هذه الأحداث ، ولكن السياق التاريخى كان مشوشا ؛ إذ أن الأنشودة جعلت رحيل الحملة الشعبية قبل مجمع كليرمون ، أنظر :

Sumberg, La chanson d'Antioche, pp. 154-155 .

(٣١) Paul Meyer, "Un Récit en vers Francais de la Premiére Croisade fondé sur Baudri de Bourgueil", Extrait de la Romania, V (Paris 1976), pp. 12-13 .

ومن المهم أن نشير إلى أن الحملة الأولى حدثت فى زمن ازدهر فيه الشعر العامى فى فرنسا ، وكانت قصص التاريخ الشعرية تحل محل كتب التاريخ التقليدية لمن لايعرفون اللاتينية .

(٣٢) Cf. Norman Cohn, The Pursuit of the Millennium (rev.ed. New York 1970), pp. 61-107; Duncalf "Clermont", pp. 252-279 .

(٣٣) Albert d'Aix, RHC, Occ. IV, 273 .

(٣٤) William of Tyre, I, pp. 82-84 .

(٣٥) Alexiade, p. 309 .

(٣٦) Historia belli sacri, RHC, occ. III, 169 .

(٣٧) Sumberg, La chanson d'Antioche, pp. 140-142, 154-155 .

(٣٨) Albert d'Aix, RHC, IV, pp. 273-274 .

أنظر أيضا الترجمة الإنجليزية لرواية ألبرت الأيكسى فى :

Peters (ed.), The First Crusade, pp. 94-99 ;

(٣٩) William of Tyre, I, pp. 82-84 .

(٤٠) Alphendéry, l'église, pp. 59-60 ; Grousset, Histoire, I, pp. 5-11; AOL, I, pp. 92-100; Hagenmeyer, "Chronologie", pp. 217-218, 224 .

(٤١) يذكر المؤرخ المجهول أنه بسبب البؤس والمعاناة التى تعرض لها الجيش الصليبى أثناء حصار أنطاكية فى أواخر سنة ١٠٩٧م هرب وليم النجار وبطرس الناسك ، ولكن تنكرد اقتفى أثرهما وقبض عليهما وأعادهما "ملطخين بالخزى والعار" ، أنظر : Gesta Francorum, pp. 33-34 .

(٤٢) Gesta Francorum, pp. 33-34 .

(٤٣) Runciman, A hist. of the Crusades, I, p. 113 .

(٤٤) Albert d'Aix, in Peters (ed.), The First Crusade, pp. 94-95; Guibert of Nogent, pp. 91-92 .

(٤٥) Guibert of Nogent, pp. 94-95 .

(٤٦) Fulcher of Chartres, p. 71 .

(٤٧) Runciman, A hist. of the Crusades, I, p. 115; Duncalf, "Clermont", p. 266; Boase, Kingdoms and strongholds, pp. 16-17 .

(٤٨) Guibert of Nogent, in Peters (ed.), the First Crusade, pp. 91-92 .

(٤٩) Chronique de Zimmern, pp. 20-21, 23-26, 63-64; Runciman, A hist. of the Crusades, I, pp. 113-114; Duncalf, "Clermont", pp. 259-260 .

(٥٠) Robert the Monk, RHC, occ., III, p. 730 .

(٥١) Urban's letter to all the faithfull in Flanders, Dec. 1905, cf. Riley - Smith, (eds.) The Crusades, p. 38 .

(٥٢) Urban, s letter to his partisans in Bologna, 19 Sept. 1096, cf. Riley - Smith, op. cit, pp. 38-39 .

(٥٣) Urban's letter to the religious of the congregation of Vallombrosa, 7 Oct. 1096, cf. Riley - Smith, op. cit. pp. 39-40 .

(٥٤) Urban's letter to the counts of Besalu, Empurias, Roussillon and Cerdana and their Knights, c. jan. 1096-29 July 1099, cf, Riley-Smith, opé cit., p. 50 .

(٥٥) عن هذه الحملة أنظر :

Duncalf, "The Peasants' Crusade" American Historical Review, xxvi (1920-1021), pp. 440-53; "The first Crusade : Clermont to Constantinople", pp. 258 - 259 ; Runciman, A hist. of the Crusades, vol. I, pp. 121-123;

أنظر أيضا : جوزيف نسيم ، العرب والروم ، ص١٢٧ - ص ١٤٥ ؛ سعيد عاشور ، الحركة الصليبية (الأنجلو المصرية . ط. ثانية ١٩٧١) ، يوشع براور ، عالم الصليبين ، ص٤٥-ص٤٧ .

(٥٦) Fulcher of Chartres, p. 74 .

(٥٧) Guibert of Nogent, cf. Peters (ed.), The First Crusade, p. 91; William of Tyre, vol. I, pp. 93 .

(٥٨) Runciman, A hist. of the Crusades, vol. I, pp. 121-122 .

(٥٩) Albert of Aix, cf. Peters, p. 95; William of Tyre, vol. 1, 97 .

(٦٠) Runciman, op. cit, I, p. 122 .

(٦١) ظلت بلغاريا تحت الحكم البيزنطى حتى سنة ١١٨٥ ميلادية .

(٦٢) لايبدو أن أية اتصالات حول الموعد قد جرت بين القسطنطينية والغرب . وعلى الرغم من أن هنالك خطابين ؛ أحدهما منسوب إلى أربان الثانى وأمراء الصليبيين يخبرون الإمبراطور البيزنطى فيه بتكوين الحملة وموعد رحيلها . (AOIL, I, pp. 112-113) والثانى رد من الإمبراطور على الخطاب الأول يقول فيه أنه سوف يساعد الأمراء الصليبيين فى كل ما يحتاجونه - على الرغم من هذا ، فإن الدراسة التى قام بها الكونت ريان قد أثبتت أن هذين الخطابين مزوران ، وأنه قد تم تزويرهما فى القرن السادس عشر لخدمة أغراض الكنيسة ؛ أنظر :

Riant, "Inventaire", AOL, I, p. 117 .

(٦٣) اعتمدنا فى تتبع هذه الحملة على كل من البرت الآيكسى .

Peters (ed.) The First Crusade, pp. 95-6 .

ووليم الصورى William of Tyre, I, pp. 97-99 .

(٦٤) Anna Commena, Alexiade, pp. 308-309 .

(٦٥) Runciman, A hist. of the Crusades, vol. I, p. 123 .

ويقدر رنسمان عدد أتباع بطرس الناسك بحوالى عشرين ألف بينهم عدد كبير من النساء والأطفال.

(٦٦) Chronique de Zimmern, AOL, II, p. 23-24 .

(٦٧) William of Tyre, vol., I, p. 99 .

(٦٨) سوف نعتمد فى رواية مسيرة جيش بطرس حتى القسطنطينية بشكل أساسى على رواية كل من ألبرت الآيكسى ووليم الصورى ، وسوف تشير إلى أية مصادر أو مراجع أخرى فى مكانها ، أنظر :

Albert of Aix, pp. 96-99; William of Tyre, I, pp. 99-105;

(٦٩) Runciman, A hist. of the Crusades, vol. I, pp. 124-125.

(٧٠) Anna Comnen, Alexiade, pp. 310-211 .

(٧١) Hagenmeyer, "chronologie", pp. 242-242 .

(٧٢) William of Tyre, vol I, p. 105; Hagenmeyer, "Chronologie", p. 243; Runciman, A hist. of the Crusades, vol. I, pp. 125-127 .

أنظر أيضا : جوزيف نسيم ، العرب والروم واللاتين ، ص١٢٤ ؛ اسحق عبيد روما وبيزنطة ، ص٨٩ ؛ سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ١ ، ص١٣٩ .

(٧٣) Hagenmeyer, "Chronologie", pp. 245-246; Duncalf, "Clermont", pp. 259-262 .

(٧٤) William of Tyre, vol. I, p. 105 .

Anna Comnena, Alexiade, p. 311; Gesta Francorum, pp. 2-4; William of Tyre, vol. I, pp. 105-106 .

(٧٦) عن حملة جوتشولك أنظر :

Albert of Aix, pp. 99-100; William of Tyre, vol. I, pp. 110-112; Duncalf, "The Peasants' Crusade", pp. 440-453, "Clermont", pp. 262-264 .

(٧٧) William of Tyre, I, p. III; AOL, I, pp. 117-118 .

(٧٨) Hagenmeyer, "Chronologie", p. 242 .

(٧٩) Ekkehard of Aura, in Peters (ed.) The First Crusade, pp. 100-101 .

(٨٠) عن هذا الموضوع أنظر : قاسم عبده قاسم ، "الاضطهادات الصليبية ليهود أوربا من خلال حولية يهودية : الظاهرة ومغزاها" ، فى ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط ، المجلد الأول ١٩٨٢م ، ص١٣٧- ص١٦٦ .

(٨١) Albert of Aix, in Peters (ed.) The First Crusade, pp. 102-104; Ekkehard of Aura, pp. 101-102; William of Tyre, I, p. 113-115; Duncalf, "Chermont", pp. 264 - 265; Run-ciman, A hist. of the Crusades, I, p. 141 .

(٨٢) اعتمدنا فى رصد نهاية الحملة الشعبية فى آسيا الصغرى على كل من :

Gesta Francorum, pp. 2-5; William of Tyre, vol. I, pp. 106-109; Anna Comnena, Alexiade, pp. 311-313; Hagenmayer, "Chro-nologie", p. 245, pp. 241-254; Braford The Sowrd, pp. 38-39; Runciman, A hist. of The Crusades, vol. I, pp. 130-133 .

وكذلك : جوزيف نسيم ، العرب والروم واللاتين ، ص١٣٩ – ص١٤٥ .

(٨٣) تقول آنا كومنينا إن الإمبراطور أنقذه بعد أن فر من المعركة (Alexiade, p. 113) على حين يقول الفارس المجهول (Gesta, p. 5) إنه كان فى القسطنطينية فعلا وقت أن حدثت هذه المعركة ، ويوافقه وليم الصورى (vol. I, p.159) على هذا الرأى .

(٨٤) Sumberg, La Chanson d'Antioche, pp. 158-159 .

(٨٥) Meyer, "Un Récit en vers francai de la prémiere croisade", pp. 17-18 .

الفصل الرابع

الطريق إلى القدس : الإفلاس الإيديولوجي

سمات حملة الفرسان - مظاهر الاستعداد للرحيل - مشكلة تمويل الحملة وكيف تغلب الفرسان عليها - بداية رحيل الجيوش الصليبية - على الطريق إلى الشرق - مخاوف المجر ومناطق البلقان - اللقاء اللاتيني مع بيزنطه ومغزاه - الصليبيين فوق أرض المعركة - ظهور الروح الفردية للزعماء الصليبيين وبداية التنافس والخصومات - متاعب الصليبيين ومشكلة الهرب في معسكراتهم - الحصار في أنطاكية وحادثة الحربة - تجسد الإفلاس الإيديولوجي بعد سقوط المدينة - مواصلة السير على طريق القدس - المذبحة.

أشاحت البابوية بوجهها عن الزلزال الاجتماعي الذي أحدثته الحملة الشعبية ، ومضت في سبيلها تواصل الإعداد لحملة الفرسان . فقد وجه البابا أربان الثاني رسالته في كليرمون إلى "الذين يحاربون" ؛ ومن ثم فإنه ركز اهتمامه على خروج حملة الفرسان "لأنهم يستطيعون كبح وحشية المسلمين بسلاحهم .." كما قال في أحد خطاباته التي بعثها هنا وهناك لتنظيم الحملة الصليبية(١) .

وإذا كانت الأحوال الاجتماعية والاقتصادية المُحْبِطة ، والتي تفاعلت مع الأفكار الأخروية، هي التي أفرزت مسيرة المقهورين والفقراء التي عرفت باسم "الحملة الشعبية" ، وإذا كان المثال قد اختلط بالواقع في أذهان أفراد هذه الحملة الذين تبعثرت أحلامهم فوق رمال آسيا الصغرى، فإن تأثير الأفكار الأخروية ، بل والإيديولوجية الصليبية عموما ، لم يكن واضحا في مسيرة الفرسان ؛ على الرغم من أن أعداداً كبيرة من الفلاحين والعامة وغير المحاربين قد صحبت هذه الجيوش في رحلتها صوب الشرق . لقد تجلى الإفلاس الإيديولوجي واضحا في نفس اللحظة التي دارت فيها عجلة الأحداث التي أفرزت الحملة الأولى . لقد كان التركيز على الجانب الإيديولوجي مهما قبل تكوين الجيوش الصليبية ؛ ولكن عندما تكونت هذه الجيوش وبدأت مسيرتها الطويلة ، بدأت الجوانب الإيديولوجية تتوارى وتفسح مكانها للعوامل الدنيوية الخالصة . فمنذ بدأت مسيرة أول جيوش الأمراء في أغسطس سنة ١٠٩٦م ، وحتى سقوط مدينة أنطاكية في أيدي القوات الصليبية سنة ١٠٩٨م ، كان تأثير الجوانب الإيديولوجية ضعيفا على قادة الجيوش الصليبية وفرسانهم . إذ أن منافساتهم ومشاجراتهم ، وسعيهم

الدائم الدائب وراء المصالح الفردية ، كشفت عن دوافع أنانية ونفعية تماما كانت تحرك أبناء هذه الطبقة . كما أن حوادث الهروب المتكررة فى معسكرات الصليبيين ، والتى كان بعض أبطالها من أهم زعماء الحملة الصليبية ، تشى بالإفلاس الإيديولوجى الذى كشف عن نفسه فى كل مرحلة من مراحل هذه الحملة .

وفى غضون هذه الفترة كادت تختفى أخبار المعجزات والرؤى والأحلام المقدسة ، وبدأت العوامل الدنيوية تفرض نفسها . وطالما كانت الحملة تسير بسهولة وتحرز انتصاراتها فى يسر كانت تختفى هذه الأخبار التى كانت من أهم ملامح الإيديولوجية الصليبية ؛ فإذا جابهت أفراد الحملة مشكلة ما ، أو تهددتهم المخاطر ، أطلت عليهم من جديد أنباء الرؤى الإعجازية والأحلام المقدسة ، والظواهر الخارقة والمعجزات تذكرهم بالإيديولوجية التى نسوها فى خضم صراعاتهم ومنافساتهم وضغائنهم التى ميزت كثيرا من الأحداث التى جرت على الطريق إلى القدس . ومن المثير حقا أن الأحلام المقدسة كانت دائما من نصيب الفقراء الذين رافقوا الحملة..

وهذه قصة تستحق أن نرويها .

عندما حان وقت الرحيل انتزع المسافرون فى حملة الصليب أنفسهم من بين أحبائهم فى جو من التنهدات والزفرات والأسى والقبلات تصوره كلمات فوشيه الشارترى ووليم الصورى[٢] ، ووسط الدموع والنحيب تابع المودعون بنظراتهم أولئك الذين لم يكن بوسعهم أن يصاحبوهم إلى مسافة أبعد على الطريق إلى القدس .

هذا المشهد العاطفى سبقته شهور من العمل والاستعداد لخروج الحملة . كان اليوم الخامس عشر من شهر أغسطس سنة ١٠٩٦م قد تحدد لخروج حملة الفرسان . وفيما بين مجمع كليرموس فى السابع والعشرين من نوفمبر سنة ١٠٩٥م وهذا اليوم ، لم تكف البابوية عن مواصلة الجهد لنشر الدعوة الصليبية ، وتجنيد الفرسان . وأخذ أربان الثانى يعقد المجامع الدينية ويرسل الخطابات ويوجه رجال الكنيسة إلى شتى أنحاء الغرب الأوربى لتنفيذ مشروع البابوية العسكرى الجديد[٣] .

ومن ناحية أخرى ، كان الفرسان يعدون أنفسهم للرحيل فى الحملة التى اقترحها أربان ، وعندما انقضى فصل الشتاء ، وأهلت بشائر الربيع أخذ الفرسان يجهزون خيولهم ، ويعدون أسلحتهم . وكان أولئك الذين اتفقوا على الرحيل سويا على اتصال ببعضهم البعض طوال فترة الاستعداد . وتم الاتفاق بينهم على تحديد مكان اللقاء فى الشرق ، كما اتفقوا على أن يقوم

كل زعيم بقيادة قواته بشكل منفصل ، وألا يسير على نفس الطريق الذى سار عليه الآخرون حتى يمكنهم التغلب على مشاكل التموين والإمدادات الضخمة التى لم يكن هناك أقليم فى أوربا آنذاك يستطيع توفيرها لهذه الجيوش الضخمة . وكان الفرسان يتبادلون الرسائل التى يشجعون فيها بعضهم بعضا ، وينصحون بالرحيل المبكر(٤) .

كانت مشكلة التمويل والانفاق على الحملة من أكبر المشكلات التى واجهت حملة الفرسان؛ إذ لم يكن أبناء هذه الطبقة ليغامروا بخروج الجيوش النظامية دونما استعداد وتخطيط مثلما فعلت جموع الحملة الشعبية الخرقاء . لقد تريث الأمراء فى الخروج إلى الشرق حتى يمكنهم تدبير الموارد اللازمة للحملة صوب الشرق ، ولا غرو أن الشئون المالية للصليبيين كانت مرتبكة فإنهم كانوا يعتمدون بشكل أساسى على صدقات الناس وتبرعات النبلاء (٥) . وكان على كل أمير من قادة الجيوش الصليبية أن يحاول حل مشكلة التمويل بطريقته الخاصة . وهنا بدأت تظهر بعض الخصائص الحقيقية لحملة أربان الثانى .

فقد لجأ جودفرى البويونى ، دوق اللورين الأدنى ، إلى ابتزاز اليهود . ونسب إليه تصريح يقول بأنه سينتقم لدم المسيح من اليهود قبل أن يذهب إلى الحملة الصليبية . وسارع كالونيموس رئيس جماعة ماينز اليهودية بالكتابة إلى هنرى الرابع الألمانى ، والذى كان هو السيد الإقطاعى لجودفرى ، يطلب منه منع الأخير من اضطهاد اليهود . وفى الوقت نفسه ، لجأ اليهود إلى خط دفاعهم التقليدى ؛ فقدم يهود ماينز وكولون خمسمائه قطعة ذهبية إلى جودفرى على سبيل الرشوة . وعندما كتب هنرى الرابع إلى كبار أفصاله الإقطاعيين ، من العلمانيين والكنسيين ، يطلب منهم ضمان سلامة اليهود فى أراضيهم ، أجابه جودفرى ، الذى كان قد نجح فى ابتزاز اليهود وضمان التمويل لحملته ، بأنه لم يفكر قط فى اضطهاد اليهود(٦) . وهكذا كشفت أحداث هذه الحملة ، منذ بدايتها ، عن موقف مشابه لموقف الحملة الشعبية .

وقام آخرون ، من الراغبين فى الانضمام إلى الحملة الصليبية ، بالتخلى عن أملاكهم للكنيسة ومؤسساتها نظير الحصول على النفقات اللازمة لرحلتهم إلى الشرق . ففى آخر ديسمبر سنة ١٠٩٥ ، على سبيل المثال ، قام فرومولد Frumold أحد أبناء الطبقة الأرستقراطية البارزين (وكان يشغل منصبا كنسيا) بالتخلى عن أملاكه لأحد الأديرة لقاء ثلاثة ماركات من الفضة ، كما تعهد بأنه سوف يلتحق بالدير المذكور كراهب إذا قدر له أن يعود حيا من الحملة الصليبية (٧) . وطوال فترة الإعداد التى امتدت عدة شهور كانت مشكلة

تمويل الحملة هي الشغل الشاغل لفرسان الغرب الأوربى . وفى أواخر صيف سنة ١٠٩٦ كانت جيوش الأمراء على أهبة الاستعداد للتحرك على الطريق إلى القدس . بعد أن كان أولئك الأمراء قد انتهوا من الحصول على المال اللازم لتمويل حملتهم ، كما كانوا قد فرغوا من وضع الترتيبات اللازمة لحكم إماراتهم الإقطاعية أبان فترة غيابهم فى الشرق .

وهكذا ، بينما كانت جموع الحملة الشعبية تتخبط فى ممرات البلقان لتلقى نهايتها المزرية خارج حدود الإمبراطورية البيزنطية فى قفار آسيا الصغرى ، كانت حملة الفرسان الصليبية الكبرى تحشد قواتها الضارية وجيوشها المنظمة وفرسانها المدربين جيداً ؛ لتدفعهم على الطريق إلى القدس فى أواخر صيف سنة ١٠٩٦م . فقد تكونت عدة جيوش كبيرة على أساس من التقسيمات الجغرافية واللغوية والجنسية ، وعلى أساس من رابطة الولاء الإقطاعى التى ميزت جيوش ذلك الزمان .

كان أول هذه الجيوش هو جيش جودفرى البويونى Godfrey of Bouillon دوق اللورين الأدنى الذى انضم اليه فرسان الفلاندرز واللورين وشمال غرب فرنسا ، كما اشترك معه فى جيشه بلدوين أخوه [٩] . وتولى روبرت دوق نورماندى ، وشقيق ملك انجلترا ، قيادة جيوش الفرسان التى تجمعت من مناطق الشمال الفرنسى ، ومن نورماندى وغرب فرنسا ، فضلا عن كثيرين من أفصال أخيه الملك الإنجليزى . وتكون الجيش الثالث ، الذى كان عدده صغيرا ، تحت قيادة هوف الفيرموندوى Hugh of Vermandois الذى كان أول من رحل فى طريقه إلى الشرق ، وكان طبيعيا أن يتولى هذا الأمير قيادة جيوش منطقة وسط فرنسا التى كانت موطن آل كابيه . وتكون جيش رابع تولى قيادته كونت تولوز المدعو ريمون السانجيلى الذى كانت قواته تتألف من فرسان الجنوب الفرنسى والبروفنسال . ومن إيطاليا خرج جيش من النورمان الإيطاليين بقيادة بوهيموند وابن أخيه تنكرد الشهير .

ولاتهدف هذه الدراسة إلى رصد سير العمليات العسكرية لهذه الجيوش ، أو تتبع مسيرتها؛ وإنما سوف نكشف عن مدى التزام هذه الجيوش بالإيديولوجية التى ارتضت السير تحت لوائها .

كان هوف ، دوق فرماندوا ، هو أول من رحل من غرب أوربا ، وقبل رحيله أرسل رسالة مدوية تشى بقدر كبير من الغرور إلى الإمبراطور اليكسيوس كومنينوس عاهل الإمبراطورية البيزنطية [١٠] . وقد رحل بعد أن ترك أملاكه فى رعاية زوجته قاصدا إيطاليا ومعه قوة

صغيرة من فرسان وسط فرنسا ومن أفصال أخيه الملك . وفى الطريق انضم إليه عدد آخر من الفرسان كان بعضهم ممن لم ينلهم سيف الموت فى حملة أميخو المشئومة (١١) . وعلى أية حال، فإن الإمبراطور البيزنطى ، الذى علمته تجاربه المريرة مع جيوش الحملة الشعبية ألا يترك شيئا للصدفة فى علاقتة مع اللاتين ، اعتبر رسالة هوف بمثابة إنذار باليقظة والحذر . فأرسل أوامره إلى حاكم مدينة درازو البيزنطية وإلى قائد الأسطول البيزنطى فى هذه المنطقة ، بمراقبة الطرق البرية والبحرية تحسبا لوصول هذا الأمير اللاتينى وقواته ، وإبلاغه بوصولهم .

وعندما وصل هوف إلى هذه المدينة ، استقبلته القوات البيزنطة ورافقته إلى العاصمة الإمبراطورية فيما يشبه الحراسة . ولم يجد البيزنطيون صعوبة فى تنفيذ أوامر الإمبراطور لأن قوات هذا الدوق كانت صغيرة (١٢) . وعندما وصل هوف إلى القسطنطينية وجد الإمبراطور يستقبله بحفاوة ويغدق عليه الأموال والهدايا التى سال لها لعاب الضيف اللاتينى ؛ فاستجاب لطلب الإمبراطور وأقسم له يمين الولاء على الطريقة الإقطاعية (١٣). وهكذا تخلى أول الزعماء الصليبيين عن هدفه وقسمه بأن يحارب فى سبيل الرب ، لقد نسى الإيديولوجية التى حفزته على الرحيل المبكر ، وآثر أن ينعم بكرم الضيافة الإمبراطورى وهو ينتظر وصول بقية الزعماء إلى القسطنطينية التى حددوها مكانا للتجمع الصليبى . ومن جهة أخرى ، أراد اليكسيوس أن يجعل من هذا الأمير سابقة يسير على منواله الزعماء الصليبيون الآخرون ؛ فجعله يقسم على أن يعيد للإمبراطورية جميع الأراضى التى كانت تملكها من قبل .

كان الجيش الصليبى الثانى الذى وصل إلى القسطنطينية هو الجيش الكبير الذى جمعه دوق اللورين الأدنى ، جودفرى البويونى . وقد جمع جودفرى الأموال اللازمة لتجهيز المحاربين بكل وسيلة ممكنة على حد تعبير مؤرخة زيرن (١٤) ، ثم استأذن سيده الإمبراطور هنرى الرابع فى الرحيل إلى الشرق بحملته الصليبية . وفى الخامس عشر من شهر أغسطس سنة ١٠٩٦م ؛ أى فى الموعد المحدد للرحيل ، سار جيش جودفرى على نفس الطريق الذى سارت عليه من قبل الحملات الشعبية بقيادة والتر المفلس وبطرس الناسك وفولكمار وجوتشولك واميخو(١٥) . وعندما وصل جيش جودفرى إلى حدود المجر عند مدينة Tollenburg على نهر ليتا Leitha الذى يعتبر خط الحدود المجرية ، فى أول أكتوبر سنة ١٠٩٦م ، أرسل سفارة تطلب من ملك المجر السماح للجيش الصليبى بعبور أراضيه . وتعطل الجيش ثمانية أيام فى انتظار رد كولومان الذى كان يخشى أن يعانى شعبه مرة أخرى ما سبق أن عاناه من جيوش الحملة الشعبية . وبدأت المفاوضات بين الطرفين ، وفى رده على خطاب جودفرى قال كولومان ملك

المجر إن تصرفات أتباع بطرس وجوتشولك وفولكمار واميخو تدل على أنهم لم يكونوا من أتباع المسيح بالقول أو بالفعل (١٦) .

وتم عقد مؤتمر بين الجانبين توصلا فيه إلى اتفاق يقضى بأن يقدم للجيش الصليبى بلدوين شقيق جودفرى وعددا من الفرسان كرهائن لدى الملك المجرى لضمان عدم قيام الصليبيين بأية اعتداءات على المجر . وفى مقابل ذلك أمر كولومان بإمداد القوات الصليبية بكل حاجتها بأسعار مناسبة ، كما أمر بأن يكون هناك سوق متحرك لخدمة هذه القوات . ومن ناحية أخرى، أعلن جودفرى أن من ينهب شيئا من المجريين سيكون مآله الموت وسوف يصادر متاعه . وسار الملك المجرى برهائنه من الفرسان الصليبيين ومعه قوة كبيرة تراقب الجيش اللاتيني حتى عبر الأراضى المجرية بسلام ، فى نهاية شهر نوفمبر سنة ١٠٩٦م ، فأعاد بلدوين ورفاقه محملين بالهدايا والهبات(١٧) . لقد استطاع جودفرى أن يكبح جماح جنوده ، وبذلك مرت رحلتهم فى أراضى مملكة المجر دونما حوادث حتى وصلت إلى الحدود البيزنطية .

كانت السلطات البيزنطية قد استعدت للقاء الجيش الصليبى الذى وصلتها أنباء اقترابه عن طريق المجر فيما يبدو . وكانت مدينة بلجراد ، أول مدينة كبيرة داخل حدود الإمبراطورية البيزنطية ، قد باتت خرائب تنعى من بناها منذ نهبها جيش بطرس الناسك . ومن ثم أسرعت قوة من حرس الحدود البيزنطى إلى مدينة نيش لمراقبة تحركات جيش جودفرى ، وتم ترتيب مسألة الإمدادات والمؤن للجيش الصليبى بحيث عبر شبه جزيرة البلقان دون متاعب تذكر(١٨) .

كان وصول جيش جودفرى على الحدود البيزنطية بمثابة البداية للمشكلة الصليبية فى السياسة البيزنطية . ففى ذلك الحين لم تكن ظروف بيزنطة تستدعى وجود هذه القوات الضخمة . فقد كان الخطر السلجوقى قد تراجع وكان بوسع الإمبراطور أن يعالج الأمور بعدد قليل من المرتزقة مع الاستعانة بأساليب الدبلوماسية البيزنطية الراقية . ولم يكن الإمبراطور البيزنطى يتوقع وصول هذه القوات الهائلة التى جاءت بها الحملة الصليبية ؛ إذ كان هذا آخر ما يطرأ له على بال . إذ أنهم جاءوا بالآلاف ، وتحت قيادة مستقلة ، وأخذ ذلك الإمبراطور الذكى يبحث عن وسيلة يطوع بها الحملة الصليبية لخدمة أغراضه .

لقد كان هدف اليكسيوس هو تسخير هذه القوات فى خدمة أغراضه ، وقد تعامل مع جودفرى البويونى من هذا المنطلق حتى استطاع ترويضه وانتزع منه يمين الولاء فى النهاية(١٩) . لقد سار جيش جودفرى فى الأملاك البيزنطية حتى مدينة فيليبوليس Philippopolis ، وهناك وصلتهم الأنباء بأن هوف محتجز فى القسطنطينية ، فأرسل جودفرى يطلب إطلاق

سراح الدوق[٢٠] ومن ناحية أخرى ، تحركت مشاعر الطمع فى نفوس بعض زعماء الصليبيين حين عرفوا أن الدوق الذى ظنوه سجينا قد تلقى هدايا وهبات فخمة من الإمبراطور البيزنطى . وسارع عدد من هؤلاء الفرسان بالرحيل قبل الجيش قاصدين العاصمة الإمبراطورية ليحصلوا قبل رفاقهم على نفحات الكرم الإمبراطورى .

وفى اليوم الثانى عشر من شهر ديسمبر سنة ١٠٩٦م ، وصل جيش جودفرى إلى مدينة سليبريا Selybria على بحر مرمرة . وهناك انفرط عقد النظام الذى كان مثاليا فى الجيش الصليبى آنذاك بشكل فجائى ، وظل جنود جودفرى ينهبون الريف على مدى ثمانية أيام كاملة. وأرسل الإمبراطور رسله تدعو القائد الصليبى لوقف أعمال النهب ومواصلة السير حتى القسطنطينية . وسار الجيش الصليبى من جديد حتى القسطنطينية التى وصلها فى الثالث والعشرين من ديسمبر حيث عسكر خارج أسوار المدينة [٢١] .

وما أن استقر جودفرى فى معسكره حتى جاء هوف الفيرموندوى ورفاقه ، باعتبارهم سفراء للإمبراطور البيزنطى ، ليقنعوه بمقابلة الإمبراطور ، ولكن جودفرى رفض الدعوة بسبب تحذيرات سمعها فى معسكره تنصحه بعدم الوقوع فى شباك الخداع الإمبراطورى[٢٢] . ويبدو أن السبب الحقيقى فى رفض جودفرى لدعوة اليكسيوس هو وضعه كفصل إقطاعى لإمبراطور الغرب هنرى الرابع مما يجعل قسمه بالولاء للإمبراطور الشرقى مسألة خيانة لأنه يكون قد تخلى عن ولائه لسيده الغربى ، كما يبدو أن أهدافه الحقيقية كانت تتناقض مع أهداف البيزنطيين بحيث حاول أن يماطل لكى يكسب الوقت حتى قدوم رفاقه الصليبيين[٢٣] . على أية حال ، فإن هذا الرفض أغضب الإمبراطور فأمر بمنع المؤن عن الجيش الصليبى ، وقام بلدوين ، شقيق جودفرى ، بشن هجمات عنيفة على الريف للحصول على ما يلزم الجيش من المؤن[٢٤] . وتم إحراق هذه المناطق تماما ، سواء كانت أملاكا خاصا أو من أملاك الإمبراطور ، وهنا تجلت الشخصية الصليبية الحقيقية ، وتجلت خصائصهم الوحشية من أجل أمور دنيوية خالصة لا علاقة لها بالإيديولوجية التى اتخذوها مبررا لشن حربهم ضد الشرق . لقد ظل جنود الصليب يمارسون أعمال النهب على مدى ستة أيام كاملة ضد البيزنطيين المسيحيين الذين زعموا أنهم قادمون لمساعدتهم ضد المسلمين . وإن المرء ليتساءل عن السبب فى نغمة الفخر التى تتحدث بها المصادر اللاتينية وهى تصف تلك الأحداث ، على الرغم من أن هذه المصادر ذاتها قد أدانت التصرفات المماثلة التى قام بها جنود الحملة الشعبية . وفى تصورنا أن هذا الموقف يمكن تفسيره فى ضوء مستويات الفهم المختلفة لكل طبقة ونظرة أبنائها إلى الحركة

الصليبية . لقد رأى "الذين يصلون" و"الذين يحاربون" فى الإيديولوجية الصليبية فرصة لتغطية أهدافهم الحقيقية فى السلطة والثروة على حين رأى "الذين يعملون" فى هذه الإيديولوجية نفسها فرصة لتحقيق حريتهم من ربقة السلطة الإقطاعية . وكان هذا هو سبب رفض أبناء الطبقة الإقطاعية ، بجناحيها العسكرى والدينى ، لخروج العامة فأداتوا جرائمهم التى كتبوا عن مثيلاتها بفخر واعتزاز .

على أية حال ، اضطر الإمبراطور البيزنطى إلى التراجع عن قراره وسمح بإمداد الجيش الصليبى بالمؤن . وفى يناير ١٠٩٧م جدد اليكسيوس دعوته لجودفرى الذى جدد مماطلته ، وأرسل مجموعة من قادة الجيش لسماع اقتراحات الإمبراطور . وفى مارس عرف الإمبراطور أن وصول بقية القوات الصليبية قد بات وشيكا . فبدأ يضغط على الصليبيين ، ورد هؤلاء بغارات يومية على الريف . وعندما أحرز الصليبيون نصرا صغيرا على قوات المرتزقة العاملة فى خدمة الإمبراطور ساقهم غرورهم إلى مهاجمة المدينة الإمبراطورية نفسها .. ولكن القوات الإمبراطورية لقنت الجيش الصليبى درسا جعله يعرف ألا قبل له بمواجهة هذه القوات المدربة جيدا . وأخيرا رضخ جودفرى ، وقبل أن يقسم يمين الولاء ، وأن تنقل قواته عبر البسفور إلى آسيا الصغرى لتنتظر بقية الجيوش الصليبية . تلقى الدوق من هبات الإمبراطور وهداياه ما جعله ينسى طعم مرارة المهانة التى سقاها له (٢٥) . وباليمين الذى قطعه جودفرى على نفسه بالولاء للإمبراطور البيزنطى اليكسيوس كومنينوس ، تخلى عن الإيديولوجية التى حركته من الغرب باتجاه بيت المقدس . لقد أقسم وهو يأخذ شارة الصليب أن يحارب فى سبيل المسيح ، وها هو يقسم على أن يحارب فى سبيل إمبراطور الشرق .

ومن الأمور اللافتة للنظر أن أخبار المعجزات والرؤى والأحلام المقدسة لم تطالعنا فى صفحات المصادر التى كتبت عن مسيرة جودفرى وجيشه من اللورين حتى القسطنطينية ، فلم تكن هناك حاجة لمثل هذا السلاح الإيديولوجى ، فقد كانت مسيرة الجيش سهلة فى مجملها .

وتكشف مسيرة جيش النورمان الإيطاليين بقيادة بوهيموند Bohemond أمير تارنتو Ta-ranto ، وإبن أخيه تنكرد Tancred ، عن حقيقة الأفلاس الإيديولوجى فى حملة الفرسان . فقد رأى النورمان فى الحملة الصليبية عملا موجها ضد الإمبراطورية البيزنطية أكثر منها حربا مقدسة ضد المسلمين ، وهو الأمر الذى فطنت إليه المؤرخة البيزنطية آنا كومنينا والذى يشاركها فيه كثيرون من المؤرخين والباحثين المحدثين(٢٦) . وهو أمر تؤكده رواية المؤرخ المجهول الذى صاحب بوهيموند وكتب عن حملته ؛ إذ يقول (٢٧) : إن بوهيموند كان مشتركا

حصار مدينة أمالفى عندما واتته أنباء مسيرة الجيوش الفرنجية فى الحملة الصليبية ، وسأل عن هدف هذه الجيوش وتسليحها ، ثم مزق عباءته الثمينة وصنع منها صليبا رمزا لمشاركته فى هذا المشروع ، وقلده معظم فرسان النورمان المشاركين فى الحصار . وعاد بوهيموند إلى موطنه تارنتو حيث بدأ يعد العدة للرحيل .

وفى أواخر سنة ١٠٩٦م عبر البحر الأدرياتى ليصل إلى درازو Durazzo ، ومنها سار فى أحراش بلغاريا حتى وصل إلى غرب مقدونيا .. ثم سار فى مناطق ريفية غنية وهو يحكم سيطرته على جيشه ليمنعه من النهب حتى يحسن الإمبراطور البيزنطى الظن به . وعندما وصل الجيش إلى كاستوريا Kastoria رفض الأهالى أن يبيعوا شيئا لجنود بوهيموند ".. لأنهم حسبونا من اللصوص ولسنا حجاجًا .." على حد تعبير الفارس المجهول . ويبدو أن ذكريات السكان المريرة مع النورمان ، الذين اجتاحوا هذه المناطق فى الثمانينيات بقيادة روبرت جويسارد وبوهيموند نفسه ، كانت هى السبب فى خوفهم من النورمان وشكوكهم فى نواياهم . ووجد بوهيموند نفسه مضطرا لأن يطلق لجيشة العنان فى النهب على الرغم من حرصه على تجنب شكوك عاهل القسطنطينية ".. وهكذا استولينا على الثيران والخيول والحمير وكل شئ وجدناه.."[٢٨] فى أثناء هذه الأحداث ، وربما قبلها ، كان بوهيموند قد أرسل سفارة وصلت إلى الإمبراطور فى حوالى ٢٠ يناير[٢٩] ويبدو أن هدف بوهيموند من هذه السفارة كان هو الاجتماع بالإمبراطور على انفراد لكى يحصل منه على ما يساعده على تنفيذ خطته الطموح التى كانت أبعد ما يمكن عن أهداف الحملة الصليبية[٣٠] .

بعد ذلك ترك الجيش النورمانى الصليبى كاستوريا إلى بلاجونيا حيث وجد جنود هذا الجيش قلعة للهراطقة فهاجموها وأضرموا فيها النيران ، وقتلوا من بها حرقا أو بالسيف ، وعادوا إلى معسكرهم بغنائم كثيرة[٣١] . ثم جرت معركة بين القوات الإمبراطورية التى كانت تتألف من البجناك المرتزقة وبين جيش بوهيموند ، عندما هاجمت القوات البيزنطية مؤخرة الجيش النورمانى فى الثامن عشر من فبراير ١٠٩٧م عند نهر واردر Wardar وأسرع تنكرد لنجدة المؤخرة ورد الهجوم وأسر عددا من المهاجرين[٣٢] . وفى الثانى من إبريل وصلت دعوة إلى بوهيموند للاجتماع بالإمبراطور . فرحل من معسكره فى روسكوى Ruskoi وتوجه صوب القسطنطينية فى قوة صغيرة . ووصل إلى أسوار القسطنطينية حوالى ١٠ أبريل حيث رافقه إلى القصر الإمبراطورى جودفرى البويونى وبلدوين أخوه[٣٣] .

وفى القسطنطينية لقى بوهيموند ترحيبا حارا من الإمبراطور وصفته ابنته آنا كومنينا[٣٤]. وقبل أن يقسم يمين الولاء للإمبراطور الذى تعهد من جانبه بضمان المؤن والإمدادات [٣٥] . ولم يجد الإمبراطور البيزنطى أية صعوبة فى إقناع هذا الأمير الطموح بأن يقسم يمين الولاء له : ذلك أن بوهيموند كان على استعداد لأن يذهب إلى أبعد من ذلك فى سبيل الحصول على إمارة خاصة به كما ستكشف الحوادث التالية .

أما جيش الأمير النورمانى الذى كان يقوده ابن أخيه تنكرد ، فقد انتهز فرصة رحيل بوهيموند ، وأخذ فى نهب البلاد استجابة لرغبة كانت كامنة فى الصدور وحالت سياسة المداهنة التى اتبعها بوهيموند دون تحقيقها . وفى السادس والعشرين من إبريل وصل الجيش تحت قيادة تنكرد إلى أسوار القسطنطينية ؛ ولكن تنكرد واصل سيره حتى بيثينيا دونما توقف، ثم عسكر بجانب جيش جودفرى البويونى استعدادا للتحرك[٣٦] .

فى الوقت نفسه، أى بعد انقضاء فصل الشتاء ، وصل روبرت كونت الفلاندرز بجيشه[٣٧] تحت أسوار العاصمة الإمبراطورية . وكان قد أبحر من مدينة بارى Bari فى إقليم أبوليا بإيطاليا ، بعد زيارة قبر القديس بطرس فى روما ، وأرسى فى درازو . ثم أمضى فصل الشتاء فى منطقة الغابات وفى أرض عامرة بالمؤن والخيرات تجنبا لقحط الشتاء . وعندما اقترب فصل الربيع واصل مسيرته لكى يلحق بالآخرين . ولما وصلته رسل الإمبراطور البيزنطى سارع للقائه وأقسم له يمين الولاء ، وتلقى بعض الهدايا النفيسة . ثم لحق برفاقه الصليبيين .

أما أكبر جيش صليبى ، فهو جيش ريمون السانجيلى ، كونت تولوز وماركيز البروفنسال الثرى[٣٨] . وقد رحل معه أديمار أسقف لى بوى Adéhmar de Le Puy الذى عرفه البابا زعيما روحيا للحملة لكى يضمن سيطرة البابوية عليها . ولم ينته ريمون من تسليح جيشه سوى فى شهر أكتوبر سنة ١٠٩٦م ؛ عندما ذهب إلى أحد الأديرة لكى يصلى لشفيعه سان روبير ، ويأخذ قطعة من الذخائر المقدسة لهذا القديس ، ثم يصطحب معه راهبا من الدير لخدمته ، ويبدأ رحلته صوب الشرق[٣٩] . وكان ريمون السانجيلى هو أكبر السادة الإقطاعيين فى جنوب فرنسا . وكان هو أيضا أغنى الزعماء الصليبيين ، وكان رجلا مسنا تعدى الستين من عمره ، واشتهر بتدينه وانصياعه لتعاليم الكنيسة . ويبدو أنه كان يأمل فى أن تكون زعامة الحملة من نصيبه . وقد ساعد الكثيرين من الجنود الفقراء على تجهيز أنفسهم من أجل الرحيل فى حملته[٤٠] . كما انضم إلى حملته عدد هائل من غير المحاربين .

سار ريمون بجيشه عبر إيطاليا حتى دلماشيا . ولأن البلاد جبلية وزراعتها قليلة ؛ فقد

اعتمد السكان على الرعى وعلى مواشيهم .ويبدو أن السمعة السيئة التى سبقت الصليبيين إلى هذه الأنحاء جعلت السكان يعزفون عن مساعدة جيش ريمون سواء ببيع المؤن أو بإرشاد جنوده على الطريق . وعانى هذا الجيش من وعورة البلاد وقسوة الشتاء ؛ إذ يقول ريمون الإجويلرى الذى كان يسير مع الحملة إنهم لم يروا فى هذه المناطق حيوانًا بريًا أو طيراً على مدى أسابيع ثلاثة(٤١) . وعانى الجيش البروفنسالى من مجاعة قاسية لعدة أيام بسبب نفاد المؤن . وقد كان الأهالى يتركون مدنهم ويفرون إلى التلال والغابات الكثيفة هربا من الصليبيين ، كما لو كانوا يفرون من وحوش ضارية ".. ومعهم أولادهم وزوجاتهم ، وكل ما يملكون ؛ لأنهم كانوا يخافون من رؤية قومنا .." على حد تعبير وليم الصورى(٤٢). وهو مايجسد السمعة السيئة التى اكتسبها "جيش الخلاص" المسيحى فى هذه المنطقة المسيحية .

ويبدو أن سكان هذا الإقليم قرروا أن يلجأوا للعنف وأن ينتقموا لأنفسهم ؛ إذ كان بعضهم يتعقبون مؤخرة الجيش البروفنسالى ويتصيدون أفراده وينهبون متاعه مما اضطر ريمون إلى تعيين بعض الفرسان لقيادة المقدمة ورجع هو إلى الخلف ليتولى بنفسه حماية مؤخرة جيشه . وقد اضطر إلى دفع جزية أو إتاوة لضمان سير الجيش بسلام فى هذه المناطق(٤٣) وأخيرا عبر جيش ريمون هذه المناطق الوعرة ليصل إلى مدينة درازو .

ويبدو من كلام مؤرخ هذه الحملة البروفنسالية أن الصليبيين قد شعروا بالأمان حين دخلوا فى المناطق البيزنطية ، ويقول إنهم حين وصلوا درازو اعتبروا أنفسهم فى بلادهم ، ولكن هجمات البيزنطيين عليهم سرعان مابددت أحلامهم . وعلى الرغم من هذه المصادمات التى جرت بين جيش ريمون السانجيلى والقوات البيزنطية ، فقد كان الكونت المسن الطموح على استعداد للتعاون مع الإمبراطور اليكسيوس ، ويبدو أن السبب فى ذلك كان راجعا إلى رغبة ريمون فى أن يكون أكبر قادة القوات الصليبية . وعندما وصل الجيش الصليبى إلى رودوستو Rodosto فى الثامن عشر من أبريل سنة ١٠٩٧م قابلته الرسل الذين كان قد أوفدهم إلى الإمبراطور ومعهم رسل اليكسيوس يدعونه للقائه ؛ فرحل صوب القسطنطينية على رأس قوة صغيرة(٤٤) . ووصل ريمون إلى العاصمة الإمبراطورية حيث لقى الترحيب الحار وقوبل بمظاهر الحفاوة والمودة ، ولكن مفاوضاته الودية مع الإمبراطور توقفت عندما سمع الكونت بأنباء الهجوم الذى شنه الجيش البيزنطى على جيشه والذى نجمت عنه خسائر فادحة فى صفوف البروفنساليين(٤٥) الذين أذهلتهم الهزيمة وكبلهم اليأس ، وكادوا يعودون إلى بلادهم لولا تحذيرات الأساقفة ورجال الكنيسة الذين ذكروهم بالقسم الصليبى ، وخوفهم من مغبة عدم

الوفاء بهذا القسم الذى حولته البابوية إلى التزام قانونى[٤٦] . لقد جعلتهم الهزيمة ينسون الهدف الذى أعلنوا أنهم قد فارقوا الأهل والوطن فى سبيل تحقيقه.

وعلى الرغم من رنة المرارة التى يتحدث بها ريمون الأجويلرى عن هزيمة الجيش البروفنسالى على أيدى القوات البيزنطية : فإنه قد صدم باعتباره واحدا من رجال الكنيسة من هذا الهروب المخزى لقوات الجيش الصليبى . ومن ناحية أخرى ، فإنه يبدو أن الهجوم البيزنطى لم يكن بلا سبب : فالواضح أن البروفنساليين قد أرهقوا أنفسهم بأعمال النهب فى المرحلة الأخيرة من مسيرتهم ، فقد هاجموا إحدى المدن . ونهبوها عن آخرها ، وقتلوا سكانها وهم يصيحون "تولوز .. تولوز" – وكانت هذه صيحة الحرب الخاصة بجيش ريمون الإقطاعى التى رددوها بدلا من صيحة الحرب الصليبية "الرب يريدها" . ولم تكن مصادفة أن ينسى "جنود الرب" صيحة الحرب التى اتخذوها شعارا "لحملته" ، ويستخدمون صيحة الحرب الإقطاعية التى اعتادوا أن يستخدموها فى الغرب الأوربى .

على أية حال ، فإن رد الفعل البيزنطى هذه المرة كان عنيفا على غير العادة بسبب نفاد الصبر البيزنطى إزاء التصرفات الصليبية . وحين علم ريمون بما جرى على جيشه هاج هياجا شديدا ، وأصر على الانتقام . وأخذ الأمراء الصليبيون الآخرون : جودفرى وبوهيموند وبلدوين.. وغيرهم ، يهدئون من روعه . وعلى الرغم من أنهم أعلنوا غضبهم لما حدث : فإنهم رأوا أن الانتقام سوف يعوق مشروعاتهم ، ويعطل أهداف كل منهم[٤٧] . بل إن الإفلاس الذى عانته حملة الأمراء بدأ يكشف عن نفسه حين أعلن بوهيموند صراحة أنه سوف ينحاز إلى عاهل القسطنطينية إذا نشب أى نزاع .

وأخيرا نجح الزعماء الصليبيون فى تهدئة خاطر الكونت ، فأقسم على الطريقة البروفنسالية بأن يحمى شرف الإمبراطور وحياته ، ولكنه رفض أن يدين له بالتبعية قائلا إنه ما جاء إلى الشرق لكى يتخذ لنفسه سيداً آخر ، أو لكى يحارب فى سبيل أحد غير الرب الذى ترك وطنه وممتلكاته فى سبيله[٤٨] . كان هذا هو لب الإيديولوجية الصليبية ، وأيا كانت دوافع الكونت المسن الذى اشتهر بتدينه فى اتخاذ هذا الموقف ، فإن موقفه يدل على فهمه لمدى التناقض بين القسم الصليبى الذى يلزم الفارس بالقتال فى سبيل الرب وتحت راية الصليب وبين قسم الولاء الذى طلبه الإمبراطور والذى يلزم الفارس بالقتال فى سبيل الإمبراطور لاسترداد أملاكه التى استولى عليها المسلمون .

على أية حال ، وصل جيش ريمون السناجيلى إلى أسوار القسطنطينية فى السابع والعشرين من أبريل سنة ١٠٩٧ م بعد مسيرة استغرقت حوالى أربعين يوما[٤٩] عانى البروفنساليون أثناءها كثيرا . وفى أوائل مايو ، أى بعد أيام قليلة من وصول جيش ريمون ، وصل روبير دوق نورماندى أكبر أبناء وليم الفاتح وبصحبته ستيفن كونت بلوا وشارتر . ولم يكن هذا الأخير راغبا فى أن يذهب فى الحملة الصليبية ؛ ولكن زوجته أديلا Adela ، ابنة وليم الفاتح هى التى كانت صاحبة الأمر والنهى . وكانت راغبة فى أن يذهب زوجها فى الحملة الصليبية .. فذهب[٥٠] . وكان كل من روبير دوق نورماندى ، روبير دوق الفلاندرز ، وستيفن بلوا قد قابلوا البابا وهم فى طريقهم إلى الشرق حيث منحهم بركاته في الخامس والعشرين من نوفمبر سنة ١٠٩٦م [٥١] . وبينما آثر روبير دوق نورماندى وستيفن أن يقضيا الشتاء فى إيطاليا ، سبقهما دوق الفلاندرز كما أوضحنا من قبل . واستأنف الأميران رحلتهما إلى القسطنطينية فوصلاها فى ١٤ مايو تقريبا بعد رحلة سلمية ، وهناك استقبلهما الإمبراطور بترحيبه وهداياه المعتادة ، ولم يجد صعوبة فى الحصول منهما على يمين الولاء .

وعلي الرغم من ذلك فإن الإمبراطور لم يسمح لأفراد جيشهما بدخول المدينة ، وكان الجنود يشترون طعامهم من الأهالى خارج أسوار القسطنطينية ، ولم يكن مسموحا لهم بدخولها سوى بمعدلات ضئيلة تتراوحما بين خمسة وستة أفراد كل ساعة[٥٢] وبوصول روبير وستيفن إلى القسطنطينية كانت المرحلة الأولى من الحملة الصليبية الرسمية قد انتهت .

وواضح من ندرة شكاوى المؤرخين الغربيين ، الذين رافقوا جيوش الأمراء ، أن الموظفين البيزنطيين الذين عينهم اليكسيوس لمراقبة الجيوش الصليبية ، قد نجحوا فى التعامل مع هذه الأعداد الغفيرة التى مرت بأراضيهم . كما يتضح ، من ناحية أخرى ، أن قادة الجيوش الصليبية قد نجحوا ، إلى حد كبير ، فى كبح جماح رجالهم وميلهم الدائم إلى السلب والنهب . وعلى الرغم من أن الجنود وغير المسلحين فى الجيوش الصليبية كانوا يدركون أن عليهم أن يشتروا طعامهم ، فالواقع أنهم لم يكونوا يضيعون فرصة ما للسلب والنهب .

كانت نهاية المرحلة الأولى من مسيرة حملة الأمراء بمثابة صدام حضارى وسياسى بين الصليبيين والبيزنطيين . فقد انبهر هؤلاء الأجلاف القادمون من الغرب الفقير بجمال وروعة المدينة الإمبراطورية ، وكتب فوشيه الشارترى : ".. كم هى نبيلة وجميلة مدينة القسطنطينية ! ويا لها من أديرة عديدة وكنائس كثيرة تلك التى تضمها بين جنباتها ، شادتها أياد بارعة عجيبة .. ! وكم من الأشياء تسترعى انتباهك فى طرقها الرئيسية ، بل وفى شوارعها

الجانبية.."(٥٣) كان هذا هو لقاؤهم الأول مع الشرق . ولم يكن بمقدور أحد منهم أن يصل بخياله إلى تصور منظر العاصمة البيزنطية الكبيرة . ونظرا لأن الصليبيين قد جاءوا من أوربا الخالية من المدن ، حيث كان عدد السكان فى التجمعات السكانية يتراوح بين خمسة آلاف وعشرة آلاف نسمة ، فقد بهرتهم القسطنطينية بأسوارها التى تبلغ عدة أميال فى طولها ، وقبابها الذهبية التى تسمو وسط السحب ؛ فضلا عن قصورها وكنائسها وأسواقها وموانئها ، إلى جانب الآثار التى تحكى قصة مجدها الكلاسيكى . على أن أكثر ما أثار دهشتهم هى جماهير السكان الغفيرة(٥٤) . كانت القسطنطينية بوابة الشرق والمدخل العظيم إلى هذا الشرق الساحر الغامض .

هذا الصدام الحضارى كان يوازيه صدام سياسى تمثل فى اختلاف وتناقض أهداف كل من البيزنطيين والصليبيين . ولا تهمنا تفاصيل هذا الصدام السياسى(٥٥) سوى بقدر ما تكشف عن حقيقة الإفلاس الإيديولوجى لحملة الأمراء .

لقد بهت اليكسيوس بوصول منقذيه . ولأنه كان يعلم تماما أنه يستحيل كبح جماح هؤلاء الغربيين الطامعين ؛ فقد آثر التعامل مع قادتهم بشكل منفرد ، وعقد اتفاقه معهم واحدا تلو الآخر . وتنوعت رسائله ما بين الهدايا ، وقطع الإمدادات ، وتوجيه الضربات العسكرية حتى نجح فى أن يحصل منهم جميعا على يمين الولاء ، باستثناء ريمون السانجيلى الذى أقسم على الطريقة البروفنسالية بحماية شرف الإمبراطور وحياته . وهكذا ، نسى الصليبيون إيديولوجيتهم وهم يتقدمون واحدا تلو الآخر نحو القصر الإمبراطورى لكى يقسموا له يمين الولاء ، ولينال كل منهم نصيبه من هداياه وأمواله(٥٦) . لقد أقسموا ، وهم يأخذون شارة الصليب فى أوربا ، على أن يحاربوا فى سبيل الرب ، وأن يحجوا إلى الضريح المقدس بعد تحريره من أسر المسلمين . كان هذا هو الإطار الإيديولوجى الذى تحركوا داخله حتى دخلوا المدينة الإمبراطورية؛ وخرجوا منها يحملون قسما جديدا بالدفاع عن الإمبراطور الشرقى ، والقتال فى سبيل استرداد أملاكه من أسر المسلمين . فهل يحافظ الصليبيون على قسمهم الذى قطعوه للإمبراطور الذى يكرهونه ، بعد أن نكثوا بأيمانهم للرب الذى يعبدونه ؟

هكذا قطع الصليبيون على أنفسهم عهودا أمام الإمبراطور الذى تعهد بدوره بأن يمدهم بما يحتاجون اليه من المؤن والأموال والمرشدين والأدلاء .. وهناك على مسيرة عدة أميال قليلة من القسطنطينية ألفى الصليبيون أنفسهم للمرة الأولى فى "أرض العدو" . وهناك لحق بهم بطرس الناسك ومعه الشراذم الباقية من حملته المشئومة (٥٧) وفى آسيا الصغرى زارهم اليكسيوس

ليؤكد لهم تعهداته السابقة ، واعتذر عن قبول اقتراحهم بأن يقود الحملة ، ولكنه أمدهم بقوة صغيرة من الجنود والأدلاء العارفين بمسرح المعارك المقبلة وعلى رأسهم واحد من ضباطه يدعى تاتيكيوس Taticius ، وظل يرسل إليهم الإمدادات بطريق البر وبطريق البحر فى آن واحد ..

وبدا وكأن الأمور سوف تسير على هوى الصليبيين ، فقد بدأت القوات تفرض حصارها حول مدينة نيقية فى السادس من مايو سنة ١٠٩٧م ، ثم أحكموا الحصار فى الرابع عشر من هذا الشهر بعد أن جاءت بقية الفرق الصليبية إلى نيقية حيث توحد الجيش مرة أخرى . استمر الحصار سبعة أسابيع وثلاثة أيام . وفى أثنائها حاول قلج أرسلان إنقاذ مدينته ، ولكن حين أدرك أن هذه الحملة تختلف عن جموع الدهماء الذين قضى عليهم فى الحملة الشعبية كان الوقت قد فات فآثر أن يدخر قواته ليوم آخر .

وذات صباح ، وبينما أخذ الصليبيون يستعدون لمهاجمة المدينة ، فوجئوا بالبيارق البيزنطية تخفق فوق أسوار نيقية وأبراجها ؛ فقد سلم أهل المدينة مدينتهم إلى الإمبراطور الذى يعرفونه، قبل أن تسقط فى براثن الغربيين الذين كانوا يقذفون إليهم برؤوس تتلاهم من فوق أسوار المدينة لإرهابهم .

وهكذا سقطت نيقية [٥٨] التى كان الاستيلاء عليها مهما لتأمين ظهر القوات الصليبية وهى تتوغل فى آسيا الصغرى . ولكن استيلاء البيزنطيين على المدينة آثار ثائرة الصليبيين الذين رأوا أن الإمبراطور قد حرمهم فرصة نهب المدينة . ومما زاد فى حنقهم أن الحاكم البيزنطى الجديد لنيقية رفض أن يسمح لهم بدخولها سوى فى جماعات لاتزيد عن عشرة أفراد غير مسلحين وتحت رقابة جنوده[٥٩] . بيد أن الإمبراطور الذكى والعارف بأخلاقيات الصليبية أغدق هداياه وأمواله على أمراء الصليبيين وجنودهم . ويقول فوشيه الشارترى[٦٠] إن الإمبراطور أمر بتوزيع الذهب والفضة على الزعماء ، ووزع بعض العملات النحاسية على الجنود المشاة . وعن هذه المسألة يقول وليم الصورى[٦١] إن الناس من الدرجة الثانية ، وعامة الفرنج فى المعسكر الصليبى كانوا غاضبين "لأنهم أيضا بذلوا جهدا فائقا فى حصار المدينة ، وكان أملهم أن يستولوا على بعض الغنائم والأسرى والمؤن الكثيرة فى المدينة .." وهنا تتكشف أهداف الصليبيين الدنيوية واضحة جلية .. لقد سكت الزعماء بسبب الكرم الإمبراطورى الذى عبر عن نفسه فى هدايا الذهب والفضة والنفائس ، ولكن الفقراء الذين لم تعجبهم المكافأة الإمبراطورية غضبوا وجن جنونهم .. **فقد أضاع الإمبراطور المخادع فرصة طيبة لإظهار تدينهم وتقواهم من خلال العنف والقتل والنهب ..!!**

بعد نيقية تحركت المسيرة الصليبية من جديد ، وانقسم الجيش الصليبي قسمين : أحدهما ضم بوهيموند وتنكرد وروبير النورماندى ، وضم الجيش الآخر ريمون السانجيلي وجودفرى البويوني ، وأديمار ، وهوف ، وكونت الفلاندرز[٦٢] . وفى الطريق عرف الصليبيون أن الأتراك يعدون العدة لقتالهم . وكان قلج أرسلان قد تحالف مع بني الدانشمند لدرء الخطر الصليبي ، وجمع قوات كبيرة انتظرت القوات الصليبية فى ضوروليوم حيث اشتبك الطرفان فى قتال رهيب انتهى بأن أحرز الصليبيون نصرا مدويا[٦٣] . وفى بداية المعركة كانت كفة الأتراك هى الراجحة ؛ فبدأ الصليبيون يتذكرون إيديولوجيتهم ، ويحكى الفارس المجهول أن الصليبيين مرروا فى خطوطهم رسالة سرية تمجد الرب وتقول "اصمدوا معا ، وثقوا فى الرب وفى نصر الصليب المقدس ، اليوم ارضوا الرب وسوف تحصلون على غنائم كثيرة"[٦٤] وهو مثال واضح علي التلويح بالجانب الديني والإغراء بالمكاسب الدنيوية لحفز الصليبيين على الصمود فى وقت الشدة ، وهو موقف تكرر كثيرا فى أوقات الشدة والأزمات فيما بعد . ويقول فوشيه إن أديمار المندوب البابوى ومعه أربعة من الأساقفة ، وعدد كبير من القساوسة يرتدون ثيابا بيضاء أخذوا يتوسلون إلى الرب أن يدمر الأعداء ويغدق عليهم من رحمته ، "كانوا ينشدون وهم يبكون ، ويبكون وهم ينشدون .." [٦٥] . وهو ما يكشف عن أن جنود الرب كانوا يتذكرون الرب فى ساعات كربهم فقط .

استراح الجيش يومين فى ضورليوم حتى ينفض عن نفسه غبار المعركة . وكانت تلك معركة فاصلة فى تاريخ الحركة الصليبية ، فقد توقفت كل مقاومة منظمة منذ ذلك الحين وطوال مسيرة الجيوش الصليبية فى آسيا الصغرى . ولكن الهجمات الخاطفة التى كان الأتراك السلاجقة يشنونها باستمرار كلفت الصليبيين كثيرا من جنودهم ، وأرهقت أعصابهم . إذ كانت وحدات الفرسان رماة السهام تظهر فجأة ، وكأنما انشقت عنهم الأرض ويمطرون الصليبيين وابلا من سهامهم ، ثم يختفون فجأة وكأنما ابتلعتهم الأرض ثانية . وكم كانت هذه الهجمات مؤلمة وموجعة ، ولكنها لم توقف المسيرة الصليبية . أما المناخ ، فكان عدوهم الرئيسى ، وكم عانوا من نقص المياه والطعام عندما نفدت المؤن التى أمدهم بها الإمبراطور البيزنطى فى كرم وسخاء.

ويخبرنا فوشيه أن الكثيرين فقدوا خيولهم وبغالهم ؛ فلم يجدوا دوابا تحمل ملابسهم وطعامهم وسائر متاعهم ، فحملوها على ظهور الماعز والكلاب والخنازير .. ويا له من منظر يثير الأسى والضحك فى آن واحد ، لاسيما وأن بعض الفرسان المسلحين قد اتخذوا الثيران مطايا لهم بدلا من خيولهم التى نفقت بفعل العطش والحر وقلة الطعام[٦٦] . وأخيرا وصل

الجيش الصليبى المرهق إلى قونية فى منتصف أغسطس سنة ١٠٩٧م ، ولم يجدوا صعوبة فى احتلالها[٦٧] . وأقاموا بهذه المنطقة الخصبة الغنية لكى يستعيدوا نشاطهم .

فى الطريق إلى أنطاكية بدأت المطامع الشخصية للقادة تطل بوجهها القبيح معلنة عن المزيد من الإفلاس الإيديولوجى للحملة الصليبية الرسمية . فقد انفصل كل من تنكرد النورمانى وبلدوين عن الجيش الرئيسى وتوجها صوب إقليم قليقية الغنى وفى ذهن كل منهما مشروع يحقق طموحاته الخاصة . وعلى مدى سبعة أيام فرض تنكرد حصارا على مدينة طرسوس ، ثم وافق أهل المدينة الذين كانوا من الأرمن والبيزنطيين ومعهم حامية من المسلمين لحفظ المدينة - وافق هؤلاء على رفع راية تنكرد على أحد أبراج المدينة حتى يأتى بوهيموند ، عم تنكرد وقائد الجيش النورمانى ، لتسلمها .. وحين علم بلدوين أن راية الأمير النورمانى ترفرف على المدينة انتابته مشاعر الغيرة هو ورفاقه ، وأمر بإنزال هذه الراية وتمزيقها مهددا بأن يدمر المدينة وضواحيها إذا لم يتم ذلك . وإذ أدرك أهل مدينة طرسوس أن بلدوين أقوى من تنكرد ، بادروا إلى إنزال راية الأخير ورفعوا راية الأمير البروفنسالى . وانسحب تنكرد مغاضبا وتوجه إلى أذنه والمصيصة واستولى عليهما[٦٨] . وبعد ذلك وصل حوالى ثلاثمائة رجل كان بوهيموند قد أرسلهم للحاق بتنكرد ، ولما كان الليل قد بدأ يرخى سدوله على المكان فقد توسلوا إلى بلدوين أن يسمح لهم بقضاء الليل داخل أسوار المدينة لكى ينالوا حظهم من الراحة ويشتروا حاجتهم من المؤن والأغذية . ولكن الأمير البروفنسالى السعيد بنصره الصغير خاف من إخوته فى جيش الرب ، وخشى أن ينتزع رفاقه الثمرة التى كان قد نجح لتوه فى اقتناصها ؛ ومن ثم فإنه رفض أن يسمح لهم بدخوله المدينة . واضطر هؤلاء إلى قضاء الليل خارج أسوار المدينة . وفى سكون الليل تسلل المسلمون من داخل المدينة هاربين ، وعرجوا فى طريقهم على النائمين خارج الأسوار .. وذبحوهم .

وعندما اكتشف الصليبيون من أتباع بلدوين فى صباح اليوم التالى ماجرى على الصليبيين الذين رفض بلدوين دخولهم المدينة ، هاجوا وشرعوا أسلحتهم ضد بلدوين وكبار القادة الذين هربوا يحتمون بالأبراج . وأخيرا استطاع بلدوين أن يسيطر على الموقف بصعوبة بالغة . وبكلمات معسولة من النبلاء "..كانت ضرورية جدا فى هذا الوقت وهذا المكان .." هدأ الناس[٦٩] .

كان جيش تنكرد قد استولى على أذنة والمصيصة ، وفى تلك الأثناء ترك بلدوين حامية فى طرسوس وسار يريد اللحاق بالجيش الرئيسى بعد أن أدرك أن إقليم قليقية لن يحقق له

أطماعــه . وعندما وصل جيشه أمام المصيصة غضب تنكرد وأمر رجاله بحمل السلاح . وأرسل عددا من النبالة لجرح الخيول التى أطلقت للرعى أو للاستيلاء عليها . ثم شن هجوما على معسكر غريمه بلدوين ، ودار قتال وحشى بين الطرفين ".. كما لو كانا من ألد الأعداء.." على حد تعبير وليم الصورى .. ثم تراجع تنكرد بجيشه ، وفى الصباح اليوم التالى تم إقرار السلام(٧٠) . وأخذ تنكرد يواصل البحث عن فرصته فى إقليم قليقية ، على حين سار بلدوين ليلحق بالجيش الصليبى الرئيسى الذى كان قد وصل إلى مرعش فى الثالث عشر من أكتوبر ١٠٩٧م .

وفى السابع عشر من أكتوبر انفصل بلدوين ثانية عن الجيش الصليبى الرئيسى . ذلك أنه لم يستطع أن يمكث طويلا ؛ فقد كانت أطماعه تؤرقه ، وكان يريد أن ينافس تنكرد فى شهرته. فخرج بحثا عن مغامرات جديدة ، ولكنه لم يجد عددا كبيرا من الفرسان يرضون بصاحبته ، فسار على رأس قوة صغيرة من الفرسان وعدد كبير من المشاة متجها صوب الفرات حيث استطاع فى غضون شهور ثلاثة أن يحتل مناطق غرب الرها بمساعدة السكان المحليين (٧١) . وفى أول فبراير سنة ١٠٩٨م أرسل ثوروس Thoros (٧٢) أمير الرها ، الذى كان رجلا مسنا بلا وريث ، يطلب من بلدوين القدوم . وعرض عليه أن يتبناه وأن يشاركه الحكم فإذا توفى الحاكم يكون حكم الرها من حق الأمير الصليبى .. وبعد عدة تقلبات فى الأحداث رد بلدوين الجميل للحاكم الأرمنى المسن الذى تبناه ؛ فقد دبر مؤامرة انتهت بذبح الأمير الأرمنى المسكين على يد رعاياه ، وتخلى عنه بلدوين الشجاع بشكل يوحى أنه ضالع فى المؤامرة (٧٣) . وهكذا حقق بلدوين هدفه ، وتم بناء أول إمارة صليبية فى الشرق ، وهى إمارة الرها التى رفعت شعار بيت اللورين الأدنى فى أعالى دجلة والفرات .

واصل الجيش الصليبى الرئيسى سيره حتى أنطاكية ، شمال بلاد الشام ، وفى ٢١ أكتوبر بدأ الصليبيون فى فرض الحصار حول المدينة (٧٤) . وكان ياغى سيان حاكم أنطاكية قد عرف باقتراب القوات الصليبية فطلب الإمدادات من الشرق ، وجمع كثيرا من المؤن والأغذية تحسبا لحصار طويل .. وقبل أن ينتهى الشهر الثالث بدأ الجيش الصليبى يعانى من مشكلة نقص الأقوات . وعندما احتفل اللاتين بعيد الميلاد كانت أزمة الطعام قد كشّرت عن أنيابها . وعقد الزعماء مؤتمرا لتدبير وسائل الحصول على المؤن ، واتفقوا على تشكيل فرق للسلب والنهب من المناطق الريفية المجاورة يكون قوامها ما بين ثلاثمائة وأربعمائة فرد . ولكن كميات الطعام التى كان الصليبيون قد نهبوها من هذه المنطقة من قبل أرهقت الموارد المحلية ؛ فلم يجد

الغربيون ما ينهبونه . كما أن الأتراك والعرب بدأوا يدافعون عن أملاكهم بشكل منظم ، وبحيث كانوا يقضون على بعض فرق النهب الصليبية بأكملها ؛ فلا يعود من رجالها أحد ليحكي ماحدث ..

في هذه الأثناء لم يكف المسلمون من الأتراك والعرب عن شن هجماتهم على المعسكر الصليبي بشكل زاد من توتر القادة وأضاف إلى متاعبهم . وفي هذه اللحظات الخانقة بدأ بوهيموند ينفذ أولى خطوات المؤامرة التي حاكها لتحقيق حلمه الشخصي في بناء إمارة نورمانية على حساب الإمبراطورية البيزنطية ؛ فقد كان النورمان يرون في الحملة الصليبية عملا موجها ضد البيزنطيين أكثر منها حربا ضد المسلمين كما أسلفنا القول . ولكن المناورة الذكية التي آتت ثمارها لم تكن هي كل مافي جعبة ذلك النورماني الداهية . فقد أعلن بوهيموند عن عزمه على الرحيل وارتعدت فرائص الصليبيين هلعا ، وتظاهر بأنه سوف يبقى استجابه لضغوطهم (٧٥) .

وزادت وطأة المجاعة على الصليبيين ، ثم تفشى الوباء بينهم .. وبدأت حالات الهروب الجماعية بين الصليبيين تعلن عن المزيد من الإفلاس الإيديولوجي ؛ فقد البعض أملهم في الأرض التي تفيض باللبن والعسل ، وهرب البعض الآخر جبنا وهلعا ، على الرغم من الوعد البابوي بالغفران لمن يموتون . وأمر أديمار بصيام ثلاثة أيام في المعسكر الصليبي ، وتم طرد النساء المتزوجات وغير المتزوجات من المعسكر ".. لئلا يغضبن الرب بسبب سوء الحال .."(٧٦) وكان على أولئك النسوة المسكينات أن تدفعن ثمن الأزمة التي يعيشها الصليبيون ، فأخذن في البحث عن مأوى لهن في المدن المجاورة ..

ولكن البؤس الفادح الذي عاناه الصليبيون دفع بالكثيرين إلى الهرب . وكان بطرس الناسك ، "نبي الحركة الصليبية ومبشرها الملهم" ، من بين الهاربين . ولكن تنكرد تمكن من القبض عليه هو ووليم النجار وأعادهما مجللين بالخزي والعار في يناير ١٠٩٨ وأمر بوهيموند بأن يلقى في خيمة وهو موثق بالقيود حتى الصباح . ثم أنّبه وأطلق سراحه (٧٧) . وفي تلك الأثناء كان بوهيموند قد عقد صداقة خفية مع أحد ضباط الحامية الإسلامية في أنطاكية، وهو أرمني يدعى فيروز كان قد اعتنق الإسلام بشكل ظاهري (٧٨) . واتفق بوهيموند مع هذا الخائن على تسليم المدينة عن طريق البرج الذي يتولى حراسته ..

ولما أيقن بوهيموند أن اليأس قد تمكن من قلوب رفاقه ، لاسيما مع أنباء اقتراب جيش قربوغا لنجدة أنطاكية ، عرض عليهم خطته .. وثمنها . وكان الثمن الذي طلبه الأمير

النورمانى الطموح تأكيدا جديدا للإفلاس الإيديولوجى فى حملة الأمراء ، فقد طلب أن يكون له حكم أنطاكية ، وأذعن له الجميع ماعدا ريمون السانجيلى ..

فى هذه الأثناء هرب ستيفن بلوا . وعندما قابل الإمبراطور البيزنطى الذى كان فى طريقه لنجدة الصليبيين ، أفهمه ستيفن أن حال الصليبيين فى أنطاكية ميئوس منه ، فعاد الإمبراطور من حيث أتى [٧٩]. ومع ذلك تم إعداد كافة الترتيبات تحت جنح الليل ، وأرخى فيروز سلما من الحبال على أسوار أنطاكية ، وتسلل إلى داخل المدينة عدد من الفرسان وعلى رأسهم الأمير بوهيموند . وفتحوا أبواب المدينة لبقية الجيش .. ومع خيوط فجر الثالث من يونيو سنة ١٠٩٨م اقتحمت قوات الصليبيين المدينة النائمة ، وأخذ الصليبيون يسألون عن بيوت الأثرياء، ثم يندفعون إليها يقتلون الخدم والنساء والأطفال ، ويستولون على ما بها .. وجرت على السكان مذبحة رهيبة فى ذلك اليوم [٨٠] .

حاول الصليبيون الاستيلاء على قلعة أنطاكية فى نفس اليوم ، ولكنهم فشلوا وجرح بوهيموند أثناء الهجوم الفاشل . وفى اليوم التالى مباشرة ، وبينما "جنود المسيح" عاكفون على حصر غنائمهم ومنهوباتهم ، وبينما جلس الجنود يستمتعون بأداء الراقصات والمطربات من سباياهم[٨١] بدأت طلائع جيش الإنقاذ الإسلامى بقيادة قربوقا القادم من الموصل تظهر فى المنطقة ، وشنت هذه القوات هجوما سريعا راح ضحيته عدد من الصليبيين ولكنها فشلت فى إنقاذ المدينة . وعندما فشل قربوقا فى إنقاذ المدينة الأسيرة قرر أن يفرض الحصار على الصليبيين بداخلها ، وجرت عدة مناوشات بين الطرفين كان الصليبيون يعودون بعدها إلى الاحتماء بأسوار المدينة . وفى داخل المدينة التى اكتظت بالجثث وعضها الجوع بدأت متاعب الحصار المزدوج ، وبدأت معها عمليات الهروب الكبيرة داخل المعسكر الصليبى : مما جعل القادة يشددون من نوبات الحراسة على الأبواب والأبراج لمنع محاولات الهرب المتكررة . وأخذ بوهيموند ، الذى تولى القيادة العامة ، يشرف بنفسه على إجراءات الحراسة . وهوت معنويات الصليبيين إلى أسفل درك ..[٨٢]

وفى صباح اليوم الحادى عشر من يونيو جاء قس يدعى ستيفن إلى الزعماء برواية تقول إن المسيح تجلى له هو والعذراء والقديس بطرس فى الليلة السابقة ، وبشره بأنه سوف يساعد الصليبيين إذا عادوا إلى طريق المسيح[٨٣] . وأحضر أديار الكتاب المقدس وجعل ستيفن يقسم على صدق كلامه . كما أقسم الزعماء على عدم الهرب "خوفا من الموت أو رغبة فى الحياة Neque pro morte neque pro vita" . ثم تفشت المجاعة التى قضت على الكثيرين .

ولخص وليم الصورى أحوال الصليبيين أثناء حصار أنطاكية فى عبارة بليغة "فى الخارج كان السيف ، وفى الداخل كان الجوع"[٨٤] .. ومع تدهور الأحوال اتفق بعض الزعماء على الهرب سرا ولكن بوهيموند وأديمار عرفا بالمؤامرة فجمعا المذنبين ووبخاهم وذكراهم بالقسم الصليبى الذى قطعوه على أنفسهم وبالعار الذى سيلحقهم إذا هربوا وتخلوا عن جيش المسيح[٨٥] ..

فى هذه الأثناء كان ستيفن بلوا ورفاقه الهاربون قد قابلوا الإمبراطور ، وانضمت إليهم جموع جديدة من الهاربين ، وأثنوا الإمبراطور عن القدوم إلى أنطاكية . وعندما عرف المحاصرون فى أنطاكية بذلك هوت معنوياتهم إلى قاع اليأس . وبدا أنهم فى حاجة إلى معجزة تفتح أمامهم سبيل النجاة .

وتم تلفيق هذه المعجزة . ففى مساء اليوم الرابع عشر من يونيو زعم قس بروفنسالى مغمور أن القديس أندرو تجلى له عدة مرات وأخبره أن الحربة التى اخترقت جسد المسيح عليه السلام مدفونة فى كنيسة بطرس أمير الحواريين بأنطاكية .. وتم العثور على الحربة فى مكانها المحدد بطبيعة الحال[٨٦]. وكان هناك آخرون ادعوا أن أحلامهم حفلت بالملائكة والحواريين ، وأنها تدعم ما رواه الشخص البروفنسالى . ثم جدد الزعماء عهودهم وأقسموا على استمرار القتال وعلى أن يخلصوا لبعضهم البعض . هذه الرؤى والأحلام تجسيد لحقيقة أن محاولات القادة فى النضال قد فشلت فلجأوا مرة أخرى إلى الإيديولوجية والحافز الدينى ..

إن أحداث أنطاكية تكشف عن حقيقة مؤداها أن الكثيرين ممن تحطمت أحلامهم على صخرة الواقع كانوا قد نسوا الإيديولوجية التى خرجوا من بلادهم تحت تأثيرها بسبب أطماعهم الدنيوية ، فبدأت سلسلة من عمليات الهروب . وأدرك القادة مغبة هذه العمليات الهروبية فبدأوا يواجهونها فى عنف . لقد رأى بوهيموند فى هذا الهروب خطرا يتهدد حلمه الذى أوشك أن يتحقق ؛ إذ سلم له معظم الزعماء بحكم إنطاكية وسيادتها ، ولهذا ، فإنه لم يتورع عن إضرام النيران فى بعض مناطق المدينة ليرغم الصليبيين المختبئين بها على الخروج لأداء واجباتهم فى الحراسة والقتال وبدأ الزعماء يبحثون عن وسائل لإبقاء الصليبيين ودفعهم إلى القتال ؛ فعادوا يبعثون الإيديولوجية الصليبية من مرقدها ، وجاءت هذه المرة فى أكثر صورها إثارة لخيال البسطاء وإلهابا لمشاعر التدين العاطفى . لقد عادت الأحلام الإعجازية والرؤى المقدسة ، التى كانت هى النغمة الأساسية فى فترة التجهيز للحرب، تفرض نفسها على الصورة من جديد .

على أية حال ، شن الصليبيون هجوما ناجحا على قوات قربوقا فى الثامن والعشرين من يونيو ، ونهبوا معسكره أمام أنطاكية[٨٧] . وفى تفسير هذه الهزيمة يقول ابن الأثير إن كربوقا عامل رجال الجيش الإسلامى باستهانة ، وأعرض عن قبول مشورتهم : فلما هاجمهم الفرنج ولوا منهزمين ".. ولم يضرب أحد منهم بسيف ، ولا طعن برمح ، ولا رمى بسهم.."[٨٨] وتفرق الجيش المهزوم واختفى وتسلم بوهيموند قلعة أنطاكية من قائدها المسلم أحمد بن مروان.

كان سقوط أنطاكية بأيدى الصليبيين من الأهمية بمكان ؛ إذ كانت هذه المدينة العريقة تعد ثالث مدن الإمبراطورية الرومانية فى سالف الزمان . وفى هذه المدينة أمضى أنطونيوس وكيلوباترة فصل الشتاء ذات مرة . وهنا مارس بولس مهامه الرسولية . كما أن المدينة ارتبطت ببعض الأساطير المسيحية الباكرة .. والأهم من هذا وذلك أنها كانت مفتاح سوريا وجنوب بلاد الشام .

ولم يكن هناك جيش إسلامى آخر بعد جيش قربوقا يمكنه أن يعوق مسيرة الجيش الصليبى صوب القدس .. ولكن أطماع الصليبيين وإفلاسهم الإيديولوجى تكفل بهذه المهمة . فقد تسبب عناء الطريق الطويل ، ومتاعب الحصار الثنائى فى أنطاكية فى الفساد الأخلاقى أو الإفلاس الإيديولوجى للحملة الأولى . فقد انطلق الجشع والطمع المكبوت من أغلال الإيديولوجية . واختار لحظة انطلاقة حين توقفت الحرب . وتجسد فى بؤرة شريرة من الدسائس والمؤامرات التى امتدت خيوطها بين الزعماء الصليبيين أنفسهم .

فبعد هزيمة جيش قربوغا طالب بوهيموند الزعماء الصليبيين بالثمن : فوافقوا ما عدا ريمون السانجيلى الذى أحتفظ ببعض أبراج المدينة . وطالب الناس زعماءهم باستئناف السير إلى القدس . وعقد الزعماء مؤتمرا فى الثالث من يوليه سنة ١٠٩٨م واتفقوا على تأجيل السير حتى نوفمبر بسبب حرارة الجو .. ثم تفرق الجيش الصليبى وأخذ كل أمير يحاول تحقيق آماله والحصول على أملاك خاصة به[٨٩] .

وفى اليوم المحدد عاد الزعماء الصليبيون إلى أنطاكية ، وفى الفترة ما بين الخامس والثامن عشر من شهر نوفمبر عقدت اجتماعات كثيرة لمناقشة مشكلة حكم المدينة . وانقسم الصليبيون ثلاثة أقسام : بوهيموند فى جهة ، وريمون السانجيلى فى جهة ، وبينهما بقية الصليبيين الذين لم يتخذوا موقفا محددا . وأخذ كل من الخصمين يعزز مواقعه ، وتسبب هذا النزاع فى المزيد من تعطيل مسيرة الجيش الصليبى نحو القدس .. وأخيرا استخدم بوهيموند

القوة لطرد أتباع كونت تولوز من الأبراج التى كانوا يحتلونها بأنطاكية . كان هذا فى السابع من يناير سنة ١٠٩٩م وخلصت المدينة لحكم الأمير النورمانى(٩٠) ..

ويبدو أن القادة وجدوا الإقامة فى هذا الإقليم مريحة والطعام لذيذا ؛ فنسوا القدس . وأحس عامة الصليبيين أن إقامتهم سوف تدوم فى شمال بلاد الشام . وعندها ثارت فيهم مشاعر الإحباط لأن آمالهم كانت ماتزال بعيدة عن التحقيق . ويقول وليم الصورى إن الناس فى المعسكر الصليبى ثاروا عندما رأوا الزعماء يختلقون الأعذار للتأخير . وقالوا أنهم نسوا القدس فى غمرة منازعهم ومشاجراتهم التى كانت تشتعل عندما يستولون على مدينة جديدة.. وتمرد عامة الصليبيين وهددوا بعزل ريمون الساجيلى عن قيادة الجيش وإحراق أنطاكية (٩١) .

هنا فقط ، تذكر القادة الصليبيون هدف الرحلة الأصلى ، وساروا يريدون القدس فى أبريل سنة ١٠٩٩ بعد أن مكثوا بأنطاكية أكثر من تسعة أشهر(٩٢) . وواصل الجيش مسيرته حتى وصل إلى قمة جبل يشرف على المدينة المقدسة . وأخيرا .. صافحت عيون اللاتين مدينة القدس : هدف الرحلة الطويلة ، والذى كادوا أن ينسوه فى غمرة منازعتهم ومشاكلهم . وحين أسدل الليل ستاره امتطى تنكرد صهوة جواده ليرفع علم نورمانيا فوق كنيسة الميلاد قبل أن تطأ قدم أى صليبى تراب مدينة القدس المباركة .

كان الفصل الأخير فى قصة الحملة الأولى هو الذى فرضه الصليبيون على المدينة المقدسة على مدى أسابيع خمسة (٧ يونيو - ١٥ يوليو ١٠٩٩م) . ولم يكن هناك ما يلائم هذا الفصل الأخير فى ملحمة "الحرب المقدسة" أكثر من إشاعة أنباء بعض الرؤى المقدسة واشتراك القديس جورج فى المعارك . وفى يوم الجمعة ، الخامس عشر من يوليو سنة ١٠٩٩ ، وفى وقت الظهيرة ؛ أى ساعة الصلب فى التراث الدينى المسيحى ، تمكن اللاتين من اقتحام المدينة ، وأعقبت سقوطها مذبحة فظيعة ، وأبيحت على مدى أيام ثلاثة للنهب والسلب . وفاض الدم فى الشوارع التى ظلت أكداس الجثث طريحة بها لفترة طويلة ..

وفى هذا الجو الموحش ، الذى يلفه الصمت الرهيب ، وتغلفه الروائح الكريهة الصادرة عن المنازل المحترقة والجثث العفنة اجتمع الصليبيون فى كنيسة القيامة لأداء صلاة الشكر ..!! وترددت عبارة تقول "حمدا للرب" فى أرجاء الكنيسة العتيقة .

وهكذا انتهت الحملة الأولى .

هوامش الفصل الرابع

(١) Urban's Letter to the religious of the Congregation of Vallombrosa, 7 October 1096, in Riley - Smith (ed.), The Crusades, pp. 39 - 40 .

(٢) Fulcher of Chartres, p. 74; William of Tyre, I, pp. 96-97 .

(٣) بعد ثلاثة أيام فقط من مجمع كليرمون ، أى فى ٣٠ نوفمبر ١٠٩٥م ، أرسل البابا عدة خطابات إلى الأساقفة الذين لم يحضروا هذا المجمع تتضمن تعليماته بخصوص الدعوة الصليبية ، أنظر :

AOL, I, p. 109 .

راجع أيضا ما ذكرناه فى الفصل السابق حول هذا الموضوع .

(٤) William of Tyre, I, p. 96; AOL, I, p. 128 .

(٥) Keen, The Pelican History of Med, Europe, pp. 123 ,124 .

(٦) عن هذا الموضوع وتفاصيله ، أنظر : قاسم عبده قاسم ، "الاضطهادات الصليبية ليهود أوربا" ، ص١٤٦ ومابعدها .

(٧) Hagenmeyer, "Chronologie", p. 225 .

(٨) عن شخصية جودفرى البويونى والأسطورة التى تكونت حول دوره فى الحملة الصليبية فيما بعد، أنظر ما كتبه وليم الصورى الذى ألف كتابه فى زمن متأخر حيث كانت ملامح الأسطورة قد رسخت:

William of Tyre, I, p. 116 .

أنظر أيضا : جوزيف نسيم يوسف ، العرب والروم واللاتين ، ص ١٥٣- ص١٥٥ ؛ وأيضا :

Runciman, A hist. of the Crusades, I, pp. 145-146; Duncalf "The First Crusade" p. 266 .

(٩) عرف هوف باسم الأصغر Le Maisné ، لأنه كان الشقيق الأصغر لفيليب ملك فرنسا ، أنظر :
Runciman, op. cit., I, p. 142 .

(١٠) Anna Comnena, Alexiade, p. 314; AIL, I, pp. 121-122, 145; Chronologie p. 248 .

(١١) William of Tyre, I, p. 118 .

(١٢) Anna Comnena, Alexiade, p. 314; Fulcher of Chartres, p. 72 .

(١٣) عبد الغنى محمود عبد العاطى ، السياسة الشرقية ، ص ٢٨١ – ص٢٨٢ .

(١٤) Chronique de Zimmern, pp. 21-22 .

(١٥) يرى ستيفن رنسيمان أن موقف جودفرى المؤيد للإمبراطور فى صراعه ضد البابا ربما يكون هو السبب فى تحرجه من المرور عبر إيطاليا مثل بقية الزعماء الصليبيين . وربما يكون ادعاؤه بأنه من سلالة شارلمان ، الذى راجت آنذاك أسطورة حجه إلى الشرق ، هو الذى حفزه على السير على الطريق الذى سار عليه جده شارلمان فى حجه إلى القدس كما تزعم الأسطورة ، أنظر :

Runciman A hist. of the Crusades, I, p. 147 .

(١٦) William of Tyre, I, pp. 118-119; AOL, I, pp. 122-125; Duncalf, "The First Crusade", p. 266 .

(١٧) William of Tyre, I, pp. 116-121; Chronique de Zimmern, pp. 21-27.

(١٨) Runciman A hist. of the Crusades, I, pp. 147-148 .

(١٩) عن هذا الموضوع أنظر :

Cowdrey, "The Genesis", p. 12; Runciman, op. cit, I, pp. 147-151 ;

Grousset, Histoire I, pp. 14-15 ;

أنظر أيضا ، عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ١ ، ص١٤٦ - ص١٥٢ ؛ جوزيف نسيم ، العرب والروم واللاتين ، ص١٥٦ - ص١٦٥ ؛ إسحق عبيد ، روما وبيزنطة ، ص٩٣ - ص٩٦ ؛ عبد الغنى محمود ، السياسة الشرقية ، ص٢٨٢ - ص٢٨٣ .

(٢٠) William of Tyre, I, p. 124 .

(٢١) يقول وليم الصورى إن جودفرى وافق على ذلك بعد أن تعهد الإمبراطور بإطلاق سراح هوف ورفاقه. وهو فى هذا يساير البرت الآيكسى الذى يحاول تبرير أعمال النهب التى قام بها جنود الجيش الصليبى ، أنظر: William of Tyre, I, p. 124; Chronologie, p. 246 .

(٢٢) Albert of Aix, in Peters (ed), The First Crusade, p. 125; Willam mof Tyre, I, p. 124; Anna Comnen, Alexiad, p. 322 .

(٢٣) عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ١ ، ص١٤٩ .

(٢٤) Albert of Aix, p. 126; William of Tyre, I, pp. 124-125.

(٢٥) Albert of Aix, pp. 125-131; Anna Comnen, Alexiad, p. 323;

William of Tyre, I, pp. 127-132; Gesta Francorum, pp. 4-7; Chronique de Zimmern, p. 27; Runciman, A hist., I, pp. 149-151; Hagenmyer, "Chronologie", pp. 268-269 .

(٢٦) Alexiad, pp. 326-329 .

ويميل إلى هذا الرأى كل من : إسحق عبيد ، روما وبيزنطة ، ص٩٩- ص١٠٢ ؛ جوزيف نسيم ، العرب والروم واللاتين ، ص١٦٦ – ص١٧٧ .

(٢٧) Gesta Francorum, p. 7 .

(٢٨) Ibid, pp. 6-7; William of Tyre, I, 133-135.

(٢٩) Hagenmeyer, "Chronologie", pp. 267-8 .

(٣٠) Anna comnena, Alexiad, pp. 326-329 .

(٣١) Gesta Francorum, p. 8; William of Tyre, I, p. 135 .

(٣٢) Chronologie, p. 272 .

(٣٣) Chronologie, pp. 274-275; 278; Duncalf : "The First Crusade", pp. 271-272 .

(٣٤) Alexiade, p. 327 ;

(٣٥) Gesta Francorum, pp. 11-12; William of Tyre, I, pp. 136-138 .

(٣٦) Gesta Francorum, p. 13; William of Tyre, I, p. 138; Chronologie, p. 281 .

(٣٧) William of Tyre, I, pp. 138-139; Runciman, A hist., I, pp. 166-167 .

(٣٨) كان هو أول من أخذ شارة الصليب من زعماء الحملة الصليبية . والجدير بالذكر أنه قد استحوذ على إعجاب المؤرخة البيزنطية آنا كومنينا التى تثنى عليه ثناء كبيرا ؛ أنظر :

Alexiade, pp. 330-331.

(٣٩) Hagenmeyer, "Chronologie", pp. 247-248.

(٤٠) Duncalf, "The First Crusade", p. 272 .

(٤١) Raymond D, Aguiliers, in Peters (ed.) The First Crusade, p. 118 .

(٤٢) William of Tyre, I, pp. 139-140 .

(٤٣) Raymond d'Aguiliers, pp. 118-119; William of Tyre, I, p. 141 .

(٤٤) Raymond d'Aguiliers, p. 121; Hagenmeyer, "Chronologie", p. 279 .

(٤٥) حدث هذا الهجوم فى ٢٠ أبريل سنة ١٠٩٧م ، وعلى الرغم من أن ريمون السانجيلى قد وصل إلى العاصمة الإمبراطورية فى اليوم التالى : فإن أنباء الهجوم وصلته بعد ذلك ، أنظر :

Hagenmeyer, "Chronologie", p. 279; Duncalf, "The First Crusade', p. 279; Duncalf, "The First Crusade", pp. 273-274 .

(٤٦) Raymond d'Aguiliers, p. 141; William of Tyre, I. pp. 144-46 .

ومن الجدير بالذكر أن البابا أربان الثانى قد وقع عقوبة الحرمان على كل صليبى ترك صفوف الحملة قبل الوصول إلى القدس . كما أن أديمار ، المندوب البابوى ، وغيره من الأساقفة أدانوا أولئك الذين تركوا الحملة قبل تحقيق غرضها وطلبوا إجبارهم على الوفاء بالتزاماتهم النابعة من قسمهم ، أنظر:

Brundage, Medieval Canon law, pp. 37-39.

(٤٧) Raymond d'Aguiliers, in Peters (ed.) The First Crusade, p. 142;

Gesta Francorum, p. 13; William of Tyre, I, 146 .

(٤٨) Raymond d'Aguiliers, p. 141; Fulcher of Chartres, pp. 79-80 ;

William of Tyre, I 146; Hagenmeyer, "Chronologie", pp. 280-281 .

(٤٩) Chronologie, p. 282.

(٥٠) Runciman, A hist. of the Crusades, I, 162.

(٥١) Chronologie, p. 258 .

(٥٢) Fulcher of Chartres, pp. 79-80 ; William of Tyre, I, pp. 148-149 .

(٥٣) Fulcher of Chartres, p. 79 .

ومن المهم أن نشير إلى أن كاتبًا مجهولا بهرته القسطنطينية ؛ فكتب كلاما يشبه كلام فوشيه يشيد بجمال وعظمة المدينة ، وهو غير الفارس المجهول الذى رافق جيش بوهيموند ، أنظر :

Gesta Francorum Iherusalem expugnantium, RHC, occ. III, p. 494 .

(٥٤) يوشع براور ، عالم الصليبيين ، ص٥١ – ص٥٢ .

(٥٥) عن هذا الموضوع ، أنظر : عبد الغنى محمود ، السياسة الشرقية ص٢٩٠ – ص٢٩٨ ؛ جوزيف نسيم ، العرب والروم واللاتين ، ص ١٩١ – ص٢٢٤ ؛ إسحق عبيد ، روما وبيزنطة ، ص١٠٤ – ص١٠٥ .

(٥٦) Fulcher of Chartres, p. 80, William of Tyre, I, p. 146; Chroniques de Matthieu d'Eddesse avec la continuation de Grégoire le pretre jusqu'en 1162, (trad. par : M.

Edward Dulaurier, paris 1858), p. 124 .

(٥٧) William of Tyre, I, pp. 148-149.

(٥٨) عن الأحداث التى جرت أثناء حصار نيقية ، ثم تسليمها للبيزنطيين أنظر :

Gesta Francorum, pp. 14-16; Fulcher of Chartres, pp. 80-83; Anna Commena, Alexiade, pp. 340; Matt. d'Eddesse, pp. 214-216 ; William of Tyre, I, pp. 153-167; AOL, I, 142-145 .

حيث يناقش خطاب ستيفن بلوا لزوجته عن أحداث نيقية ، أيضا :

عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ١ ، ص١٦١ – ص١٦٣ ؛ جوزيف نسيم ، العرب والروم واللاتين ، ص١٩٨ – ص١٩٩ ؛ عبد الغنى محمود ، السياسة الشرقية ، ص٢٩٣ – ص٢٩٨ ؛ إسحق عبيد، روما وبيزنطة ، ص١٠٥ .

Anna Comnena, Alexiade, p. 340 . (٥٩)

Fulcher of Chartres, p. 83 . (٦٠)

William of Tyre, I, p. 167 . (٦١)

Gesta Francorum, p. 18 . (٦٢)

Gesta Francorum, pp. 19-22 ; Fulcher of Chartres, pp. 83-87; William of Tyre, I, (٦٣) 169-173; Runciman, A hist. of the Crusades, I, pp. 183-187 .

أنظر أيضا : عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ١ ، ص١٦٥ – ص١٦٧ .

"Estote omnimodo Unanimus in fide Christi et Sanctae Crucis uictoria, quia hodie (٦٤) omnes diuites si Deo placet effecti eritis".

Cf. Gesta Francorum, p. 20 .

Fulcher of Chartres, p. 86 . (٦٥)

Fulcher of Chartres, pp. 87-88; Gesta Francorum, p. 23 . (٦٦)

Runciman, A hist. of The Crusades, I, pp. 188-189 ; (٦٧)

عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ١ ، ص١٦٧ .

Gesta Francorum, pp. 24-25 ; Fulcher of Chartres, p. 89; William of Tyre, I, pp. (٦٨) 180-182 .

William of Tyre, I, pp. 182-184 . (٦٩)

Ibid, I, pp. 184-186 . (٧٠)

Fulcher of Chartres, pp. 89-90; William of Tyre, I. p. 188; Chronologie, pp. (٧١) 512 - 513 .

(٧٢) كان ثوروس حاكما أرمنيًا يحكم الرها من قبل البيزنطيين ، ولما استولى الأتراك السلاجقة عليها سمحوا له بأن يستمر فى حكمها . ومع أنباء هزيمة قلج أرسلان تم سحب الحامية التركية وبقى ثوروس مستقلا.

(٧٣) عن هذه الأحداث وتفاصيلها أنظر :

Matt. s'Eddesse, pp. 217-218; Fulcher of Chartres, pp. 90-91; William of Tyre, I, pp. 189-194 ; Hagenmeyer, "Chronologie", pp. 532-533; Runciman, A hist. of the Crusades, I, pp. 204-208 ;

أنظر أيضا : عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ١ ، ص١٨٠ - ص١٨٤ ؛ عبد الغنى محمود عبد العاطى، السياسة الشرقية ، ص٢٥٣ - ص٢٥٥ .

(٧٤) Hagenmeyer, "Chronologie", pp. 514-516 .

(٧٥) Raymond d'Aguillers, in Peters (ed.), The First Crusade, p. 160 .

(٧٦) Fulcher of Chartres, p. 95; Raymond d'Aguiliers, p. 153, p. 160 ; William of Tyre, I, pp. 204-220, Hagenmeyer. "Chronologie", pp. 529-530 .

(٧٧) Gesta Francorum, 28-33; Raymond d'Aguilier, p. 159.

(٧٨) يذكر ابن العديم (زبدة الحلب ، جـ٢ ، ص١٣٣ - ص١٣٤) أن فيروز كان يحمل ضغينة ضد ياغى سيان لأنه صادر أمواله ؛ فراسل بوهيموند خفية ؛ أنظر : عاشور ، الحركة الصليبية، جـ١ ، ص٢٠٣.

(٧٩) Gesta Francorum, p. 63-65' Fulcher of Chartres, p. 97 ; William of Tyre, I, pp. 274-278 ; Hagenmeyer, "Chronologie", ROL, VII, pp. 283-284 .

(٨٠) عن أحداث المرحلة الأولى من الصراع حول أنطاكية أنظر :

Fulcher of Chartres, pp. 98-99; Gesta Francorum, pp. 45-84; Matthieu d'Edesse, pp. 216-222; Michel le Syrien, III, pp. 183-184; Raymomd d'Aguiliers, p. 161, pp. 166-168; Hagenmeyer "Chronologie" , ROL, VII, pp. 278 - 288; William of Tyre I, pp. 257 - 260, 274-278.

أيضا : ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، جـ١٠ ، ص٢٧٥ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ، ص١٣٣- ص١٣٥ ؛ ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص١٣٥ ؛ عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ١ ، ص١٨٨ - ص٢٠٥ .

(٨١) Raymond d'Aguiliers, in Peters (ed.), The First Crusade, p. 174 .

(٨٢) Gesta Francorum, pp. 56-57 ; William of Tyre, I, pp. 266-268 .

(٨٣) Raymond d'Aguiliers, pp. 181-183; Gesta Francorum, pp. 57-59 ; Hagenmeyer, "Chronologie", pp. 298-299 .

(٨٤) William of Tyre, I, p. 266 .

(٨٥) Ibid, I, pp. 289-290 .

(٨٦) Gesta Francorum pp. 59-60;Fulcher of Chartres, pp. 99-101; Raymomd d'Aguiliers, pp. 178-185; Matthieu d'Eddesse, pp. 223-224 ; William of Tyre, I, pp. 280-282 ; Hagenmeyer, "Chronologie", ROL, VII, pp. 303-304 .

وقد ذكر ابن الأثير (جـ ١٠ ، ١٠٣٣) مانصه ".. كان معهم راهب مطاع فيهم ، وكان داهية من الرجال فقال إن المسيح عليه السلام كان له حربة مدفونة بالقسيان الذى بأنطاكية ، وهو بناء عظيم، فإن وجدتموها فإنكم تظفرون ، وإن لم تجدوها فالهلاك محقق . وكان دفن قبل ذلك حربة فى مكان فيه.. ووجدوها" . والجدير بالذكر أن الصليبيين أنفسهم ، بعد هزيمة قربوقا تشككوا فى قصة الحربة المقدسة، وشاع بينهم أن القصة من ابتكار ريمون السانجيلى .وعندما امتحن الشخص الذى روج هذه القصة على الطريقة الجرمانية بأن مرَّ بجسده فى النيران ، توفى بعدها متأثرا بجراحه مما زاد فى البلبلة . أنظر :

William of Tyre, I, pp. 324-325 .

(٨٧) Gesta Francorum, pp. 68-71 ; Raymond d'Aguiliers, pp. 189-194; Matt. d'Eddesse, pp. 223-224; William of Tyre, I, 282-284 .

(٨٨) ابن الأثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص١٠٣ .

(٨٩) Gesta Francorum, pp. 72-80 ; William of Tyre, I, pp. 301-319; Hagenmeyer, "Chronologie". ROL, VII, pp. 314-335 .

(٩٠) Gesta Francorum, 74-82; William of Tyre, I, 298-313 .

(٩١) William of Tyre, I, p. 313-315 .

(٩٢) تفاصيل المسيرة إلى القدس وأحداث الحصار ليست موضوع هذا البحث الذى يهتم برصد مظاهر الإفلاس الإيديولوجى ؛ ومن ثم فإننا سنضرب صفحا عنها .

ملاحق الدراسة

١- الحج والأفكار الألفية (١)

".. فى الوقت نفسه بدأت أعداد لاتحصى تتوجه إلى ضريح المخلص فى القدس من جميع أنحاء العالم ، وفى أعداد أكبر مما كان أى إنسان يظن أنها ممكنة قبل ذلك . ولم يكن الذاهبون هم فقط بعض العامة وأبناء الطبقة المتوسطة ؛ بل كان هناك العديد من الملوك العظام والكونتات والنبلاء . وأخيرا – وهذا شئ لم يحدث من قبل – انطلق بعض الفقراء . وكان كثيرون يتمنون الموت هناك بدلا من العودة إلى الوطن .

"وهكذا حدث أن رجلا ، من أهل أوتون Autun فى برجنديا ، كان بين المسافرين إلى هناك كان يدعى لتبالد Lethbald . وعندما شاهد كل هذه الأماكن المقدسة وصل فى النهاية إلى المكان الذى صعد منه السيد المسيح إلى السماء فوق جبل الزيتون على مرأى من الكثيرين . وثمة وعد بأن المسيح سوف يأتى إلى هذا المكان ليعدل بين الأحياء والموتى .

"هناك وجد نفسه طريحا على الأرض ، منتشرا مثل الصليب ، واندمج مع الرب فى فرح لا يوصف . ثم وقف ، ورفع يديه تجاه السماء ؛ مجاهدا قدر طاقته أن يصل إليها . ثم نطق بهذه الكلمات التى تعبر عن رغبة قلبه : "سيدى يسوع . يا من نزلت من أجلنا عن عرش جلالتك إلى الأرض منقذا لبنى البشر ، يامن تجسدت فى هذا المكان الذى تكتحل عيناى بمرآه فى اللحم البشرى ، ثم رجعت إلى السماء التى منها جئت . إننى أصلى ، وأرجو رحمتك الفائقة وسلطانك العظيم ، أنه إذا قدر لروحي أن تفارق جسدى فى هذه السنة ، فلا تدعنى أذهب بعيدا عن هذا المكان . ولكن ، ليحدث هذا داخل حدود المكان الذى شهد صعودك . لأننى أومن أننى تبعتك بالجسد حتى أصل إلى هذا المكان ، لكى تتبعك روحى فى الفردوس وهى هانئة فرحة" وبعد هذه الكلمات ذهب إلى النزل مع رفاقه .

---

(١) نص مأخوذ من كتاب التاريخ لرودلف جلابير ، الذى كان من رهبان دير كلونى بعد سنة ١٠٠٠م يكشف عن أن الناس اعتبروا الحج تتويجا لإنجازات المرء فى الحياة الدنيا .

Rodulf Glabert, History - Extracts, in Jerusalem Pilgrims, p. 174 .

"ثم حان وقت الغذاء . وجلس الآخرون حول المائدة ، ولكنه ذهب إلى فراشه وهو يبدو فى أتم صحة مثل شخص يتأهب ليغفو برهة من الزمن . ثم حدث بينما هو يتأهب للنوم أن رأى شيئا ما . وتحدث فى نومه قائلا : "المجد لك ياإلهى ، المجد لك ياإلهى" . وسمعه رفاقه وطلبوا منه أن يستقيظ ليأكل شيئا ، ولكنه لم يشأ ، واستدار قائلا إنه يشعر بوعكة . ثم رقد حتى المساء .

"ثم جمع رفاق سفره ، وطلب التناول ، وتقبل الطعام المقدس . وودعهم ثم أسلم الروح .

"وكثيرون يعودون من القدس لا ينشدون سوى إعجاب الناس ؛ ولكنه كان متحررا من هذه الآفة بحق . وباسم الرب يسوع طلب بثقة ما ناله . وقد أخبرنا رفاقه بهذه الأخبار عندما رجعوا هنا ثانية .." .

٢- سلام الرب فى مجمع شارو سنة ٩٨٩م[1]

"سيراً على نهج أسلافى ، دعوت أنا Gunbald كبير أساقفة بوردو ، الأساقفة إلى مجمع دينى فى شارو .. واجتمعنا هناك باسم الرب وأصدرنا القرارات التالية :

١- الحرمان ضد أولئك الذين يقتحمون الكنائس : إذا اقتحم أى فرد كنيسة ما ، أو سرقها ، سوف يكون محروما من الكنيسة ما لم يقدم ترضية .

٢- الحرمان ضد أولئك الذين يسرقون الفقراء : إذا سرق أى فرد من فلاح ، أو أى شخص فقير آخر ، احد الخراف ، أو ثورا ، أو بغلا ، أو بقرة ، أو عنزة ، أو خزيرا ، يحرم من الكنيسة ما لم يقدم ترضية .

٣- الحرمان ضد من يسيئون للاكليروس : إذا قام فرد ما بمهاجمة ، أو إمساك ، أو ضرب قس ، أو شماس ، أو أى من رجال الكنيسة ممن لايحملون سلاحا (درعا أو سيفا ، أو رداء معدنيا أو خوذة) ، ولكنه يمضى مسالما ، أو يقبع فى منزله ، فإن المعتدى يجب أن يحرم ويقطع من الكنيسة ، ما لم يقدم ترضية ، أو ما لم يكتشف الأسقف أن رجل الكنيسة قد جلب هذا على نفسه نتيجة لخطئه" .

---

(١) Briant Tierney (ed.), The Middle Ages, vol. I, p. 136 .

٣- هدنة الرب - أسقفية تيروان سنة ١٠٦٣م[١]

"دروجو ، أسقف تيروان ، والكونت بلدوين أرسيا هذا السلام بالتعاون مع رجال الكنيسة والشعب في هذه الأرض .

"أيها الإخوة الأعزاء في الرب . هذه هي الشروط التي يجب عليكم مراعاتها خلال فترة السلام التي تسمى عادة هدنة الرب ، والتي تبدأ بغروب شمس الأربعاء وتمتد حتى شروق شمس الأثنين .

١- خلال هذه الأيام الأربعة والليالي الخمس لايجب أن يهاجم رجل ، أو امرأة ، أو يجرح ، أو يذبح آخر . كما يجب ألا يهاجم أو يستولى على ، أو يدمر قلعة ، أو حصنا ، أو قرية ، بالحيلة أو بالعنف .

٢- إذا خرق أي فرد هذا السلام وعصى أوامرنا هذه ، ينفى ثلاثين يوما للتكفير عن ذنبه، وقبل أن يترك الأسقفية يجب أن يقدم تعويضا عما سببه من أذى . وإلا سيحرم من الرب ويطرد من الشركة المسيحية .

٣- وكل من يساعدوه ، أو يشاركوه ، بطريقة ما : سواء بمشورتهم أو بالمعاونة ، أو بالمناقشة ، ما لم يكن ذلك بقصد نصحه بالتكفير عن ذنبه وترك الأسقفية ، سيحرمون ما لم يقدموا ترضية .

٤- إذا سقط أي مخالف للسلام مريضا ، أو مات ، قبل أن يتم التكفير عن ذنبه ، فلا يجب أن يزوره أي مسيحي ، ولايجب أن يحرك جثمانه من المكان الذي رقد به ، أو أن يتقبل شيئا من أملاكه .

٥- بالإضافة إلى ذلك ، أيها الأخوة ، يجب مراعاة السلام بالحفاظ على الأراضي والحيوانات وكافة الممتلكات. وإذا أخذ أحد من آخر حيوانا ، أو ثوبا خلال أيام الهدنة ، يحرم ما لم يقدم ترضية . فإذا أراد أن يقدم ترضية عن جرائمة فيجب عليه أولا أن يعيد ما سرقه من أشياء ، أو قيمتها ذهبا . ويجب أن يكفر عن ذنبه سبع سنوات داخل الأسقفية . فإذا مات قبل أن يقوم بالترضية ويتم التكفير عن ذنبه ، يجب ألا يدفن جسده ، أو ينقل من موضعه ، ما لم تقم عائلته بالترضية عنه للشخص الذي أذاه .

---

(١) Briant Tierney (ed.), The Middle Ages vol. I, pp. 136 - 137 .

٦- خلال أيام هذا السلام . لايجب أن يقوم أحد بغارة عدوانية على ظهور الخيل ، ما لم يكن ذلك باستدعاء من الكونت ؛ وكل من يذهبون فى سبيل الكونت يأخذون ما يكفيهم هم وخيولهم فقط من المؤن .

٧- كل التجار الذين يمرون عبر أراضيكم يجب أن يتمتعوا بالسلام فى ظلكم .

٨- يجب عليكم أيضا حفظ هذا السلام طوال أيام الأسبوع من الآحاد الأربعة التى تسبق عيد الميلاد ، حتى عيد الغطاس ، ومن عيد التراتيل حتى عيد الخمسين .

٩- ونحن نأمر جميع القساوسة فى أيام الأعياد ويوم الأحد أن يصلوا من أجل جميع من يحفظون السلام ، وأن يلعنوا جميع من يخرقونه ، أو يساندون من يخرقونه .

١٠- إذا اتهم أى فرد بانتهاك السلام ، وأنكر هذه التهمة ؛ فيجب أن يتناول ويتعرض لمحنة الحديد الساخن . وإذا وجد مذنبا يجب أن يكفر عن ذنبه داخل الأسقفية ، طوال سنوات سبع .

٤- حياة القن فى العصور الوسطى[1]

صورة طبيعية للطريقة التي كان الأقنان يمارسون بها مختلف مهامهم من خلال حوار بين سيد إقطاعى وواحد من أقنانه . والنص يرجع إلى حوالى سنة ١٠٠٠ ميلادية .

"السيد : ما الذى يعرفه رفاقك ؟

الفلاح : إنهم يعملون على المحراث ، ورعاة أغنام ، ومربو ثيران ، وقناصون ، وصيادو سمك ، ومدربو صقور ، وتجار محليون ، وإسكافيون ، وملاحون ، وخبازون .

السيد :فما الذى تقوله أنت يارجل المحراث ؟ كيف تؤدى عملك ؟

رجل المحراث : سيدى ، إننى أبذل جهدا فائقا ؛ فإننى أخرج مع ضوء الفجر ، أسوق الماشية إلى الحقل ، ثم أربطها فى المحراث . وحتى ولو كان الطقس سيئا فى الشتاء فإنى لا أجرؤ على البقاء بالمنزل خوفا من سيدى : ولكن عندما أضع النير فى أعناق الثيران ، وأثبت سلاح المحراث به ، يجب أن أحرث حقلا كاملا ، أو أكثر ، فى اليوم .

السيد : هل لك مساعدون ؟

رجل المحراث : معى صبى يقود الثيران بمنخس ، وهو أيضا مبحوح الصوت بفعل البرد والصياح .

السيد : ماذا تفعل غير ذلك فى يومك ؟

رجل المحراث : من المؤكد أننى أودى مزيدا من العمل . إذ يجب أن أملأ مذود الثيران بالتبن ، ثم أسقيها وأخرج الروث .

السيد : إن هذا لعمل شاق حقا .

رجل المحراث : ومع هذا ، فإنه عمل شاق لأننى لست حرا .

السيد : ماذا لديك لتقوله أيها الراعى ؟ هل عملك شاق أيضا ؟

---

(١) Wrighr, Thomas, Anglo - Saxon and old English vocabularies, (Trubner and co., London 1884), vol. I, pp. 88 .

الراعى : إنه كذلك بالفعل . ففى الفجر الرمادى أقود أغنامى إلى المرعى وأقف لأرقبها ، سواء فى الحر أو فى البرد ، ومعى كلابى ، حتى لاتلتهمها الذئاب . ثم أعيدها إلى الحظيرة ، وأحلبها مرتين يوميا . ثم أنظف حظيرتها ؛ وأصنع الجبن والزبد ، كما أننى مخلص لسيدى .

السيد : يامربى الثيران ، ماهو عملك ؟

مربى الثيران : ياسيدى إن عملى مرهق ، فعندما يحل رجل المحراث الثيران من المحراث ، أقودها إلى المرعى ، وأظل أحرسها من اللصوص طوال الليل . ثم أسلمها فى الصباح لرجل المحراث ، وقد أكلت وشربت جيدا .

السيد : ماهى حرفتك ؟

صياد السمك : إننى صياد سمك ؟

السيد : ما الذى تحصل عليه من عملك ؟

صياد السمك : الطعام والملابس والنقود ؟

السيد : كيف تصيد السمك ؟

صياد السمك : أذهب فى قارب ، وأضع شباكى فى الماء ، ثم أرمى مرساتى وخيوطى ، واحتفظ بما تصيده .

السيد : كيف يكون الحال لو أن السمك لم يكن نظيفا ؟

صياد السمك : أرمى السمك غير النظيف وآكل النظيف .

السيد : كيف تبيع أسماكك ؟

صياد السمك : فى المدينة .

السيد : من يشتريها ؟

صياد السمك : سكان المدينة ، فأنا لا أستطيع أن أصيد القدر الذى يمكننى أن أتاجر فيه .

السيد : ما هى الأسماك التى تصيدها ؟

صياد السمك : الرنجة والسلمون ، وخنزير البحر ، وسمك الحفش ، والمحار ، وأبو جلمبو .

السيد : هل تحب صيد الحوت ؟

صياد السمك : لا

السيد : لماذا ؟

صياد السمك : لأننى أفضل أن آخذ سمكة أستطيع قتلها بدلا من سمكة تستطيع بضربة واحدة أن تقتلنى ، أو تغرقنى ، أنا وجميع رفاقى .

السيد : ومع ذلك فإن كثرة من الناس يمكن أن تصيد الحيتان دون أن تتعرض للخطر ، وهم يحصلون على ثمن كبير لقاء عملهم .

صياد السمك : حقا ماتقول . ولكنى لا أجرؤ بسبب جبنى .

٥- شاعر مجهول يعبر عن حب الصليبى للرب[١]

١

أنتم يامن تحبون الحب الحقيقى
أفيقوا وكفاكم نوما
فقد أعلن الطائر عن النهار
ويقول لنا فى أغنياته
إن يوم السلام قد جاء
وسيمنحه الرب برحمته الواسعة
لأولئك الذين فى حبه
سوف يأخذون الصليب ومن أجل خطاياهم
سوف يعانون الألم آناء الليل وأطراف النهار
والآن سينظر صوب أولئك الذين هم حقا أحباؤه

٢

إن من يهجر سيده وقت الحاجة
يستحق الدينونة
وسوف يكون هكذا ، وتذكروا جيدا
وسوف يتحمل الألم ويعانى إهانات كثيرة
فى يوم حسابنا الأخير
حينما ينظر الرب مخضبا بالدم
وجنبيه مثقوبين وراحتيه وقدميه

---

(١) قصيدة عنوانها "أنتم من تحبون الحب الحقيقى" "Vous qui ameis de vraie amour"

Bédier and P. Aubry, Les chansons des Croisades (Paris, 1909), pp. 20-22 .

حيث أن ذلك الذى سيكون له الفعل الأحسن

فى هذه الحياة ، سوف يرتعد هلعا

سواء عن رضى أو كراهة

٣

ذلك الذى وضع على الصليب من أجلنا

لن يحينا حيا مزيفا

ولكن فى حب كامل

ومن أجلنا ، فى رحمة هائلة

وفى رقة ، حمل الصليب المقدس

بين ذراعيه وأمام صدره ، رغم الكرب

ثم سمر من نواحى ثلاث ..

من اليدين والقدمين التى ثقبت بالألم تماما

٤

لقد سمعت مثلا سائرا يقول :

"التاجر العاقل ينفق المال من حافظته"

و"صاحب القلب الطائش هو الذى يرى الحسن فيختار القبيح"

هل تعرفون بم وعد الرب

أولئك الذين سيأخذون صليبه ؟

أنه لثواب حسن بالتأكيد

الفردوس ، وكان وعدا صادقا

ذلك الذى يمكنه أن يربح مكافأته

أحمق إذا انتظر حتى الغد

٥

فليس الغد لنا
ويمكن أن نتأكد من ذلك
فكم رجل يتصور أن قلبه سليم تماما
وبعد أربعة أيام لا يستطيع أن يأخذ
شيئا من أملاكه أو معرفته
لأنه يرى الموت يمسك بلجامه
حتى أنه لا يستطيع أن يحرك يدا ولا قدما
ويترك فراشه الوثير
ويفضل مرقدا من القش
ولكنه يثوب إلى الإقرار بذنبه بعد فوات الأوان

٦- مجمع كليرمون يمنح غفرانا للصليبيين ١٨ - ٢٧ نوفمبر ١٠٩٥م(١)

لم تصلنا القوانين الكنسية التى أصدرها مجمع كليرمون فى أية صيغة رسمية ؛ وإنما وصلت لنا فى مجموعات خاصة للمراسيم البابوية ، تحتوى النصوص الكاملة لبعض المراسيم ، ونبذا من البعض الآخر ، ومعها ملاحظات شخصية كتبها المشاركون .. هذا المرسوم يمنح غفرانا محدودا للغاية ، فهو عبارة عن مجرد إعفاء من التكفير والتوبة . ولكن الملاحظ أن هدف الحملة الصليبية كما يحدده المرسوم هو تحرير القدس .

"أن من يذهب إلى أورشليم ، بدافع الإخلاص فقط ، وليس طلبا للشرف أو المال ، لتحرير كنيسة الرب ، يمكن أن يجعل هذه الرحلة بديلا عن أى عمل يكفر به عن خطاياه" .

---

(١) R. Somerville, The Councils of Urban II - 1. Decreta Claromontensia (Annurrium Historiae Conciliorum Supplementum 1. Amesterdam, 1972), p. 74.

Cf . Louis and Jonathan Riley - Smith (eds.), The Crusades, p. 37 .

٧- خطاب البابا أربان الثانى إلى كل المؤمنين فى الفلاندرز ديسمبر ١٠٩٥م[1]

"إننا نعتقد ، أيها الأخوة ، أنكم علمتم منذ زمن طويل من مصادر عديدة بالأخبار المحزنة عن أن البرابرة ، فى هياجهم ، قد غزوا ونهبوا كنائس الرب فى الأقاليم الشرقية . والأسوأ من ذلك أنهم استولوا على مدينة الرب المقدسة ، التى ازدانت بعذابه وقيامته ، وأنهم - وهذا قول فيه تجديف - باعوها وباعوا كنائسها فى عبودية مقيتة . وإذ فكرنا بإخلاص فى هذه المصيبة، وحزنا بسببها ، فإننا زرنا بلاد الغال وحرضنا السادة والرعايا بحمية فى هذه الإقليم على تحرير الكنائس الشرقية . وفى مجمع عقد فى أوفرنى ، كما هو معلوم ، فرضنا عليهم التزاما بأن ينجزوا مثل هذا المشروع العسكرى لمحو كافة خطاياهم . وعينا نائبا عنا قائدا لهذه الحملة وهذا العمل ، وهو ابننا العزيز أديمار ، أسقف لى بوى . ويترتب على هذا أن كل من يقرر أن يذهب فى هذه الرحلة يجب أن يطيع أوامره كما لو كانت صادرة منا ، ويجب أن يخضع لسلطانه تماما فى الحل والعقد فى أية قرارات تبدو متصلة بعمله . وإذا نادى الرب أى رجال من بينكم لأخذ هذا القسم ، فإنهم يجب أن يعلموا أنهم سوف ينطلقون ، بعون الرب ، فى عيد صعود مريم العذراء [١٥ أغسطس] وأن بوسعهم أن ينضموا إلى رفاقهم فى هذا اليوم" .

---

(١) Riley - Smith, op. cit., p. 38 .

٨- خطاب أربان الثانى إلى أتباعه فى بولونيا ، ١٩ سبتمبر ١٠٩٦م[١]

"تقدم شكرنا إلى نيافتكم ،لأنكم على الرغم من وجودكم بين الانشقاقيين والهراطقة ، وقف بعضكم دائما بصلابة فى الدفاع عن العقيدة الكاثوليكية ؛ على حين أن الآخرين ممن تجلت لهم الحقيقة برحمة الرب تركوا سبيل الخطأ ، وهم الآن حكماء فى مذاهب العقيدة الكاثوليكية . ومن ثم فإننا نشجعكم يا أحباء الرب ، على أن تواصلوا بشجاعة السير على درب الحقيقة ، وأن تحاولوا إنهاء ما بدأتوه على هذا الشكل الطيب ، فى نهاية أفضل . لأنه ليس ذلك الذى يبدأ ، وإنما ذلك الذى يواصل حتى النهاية هو الذى سينال الخلاص . وقد عينا خاصة لمحبتكم أخانا المبجل الأسقف برنارد ، الذى تناسب رعايته المقدسة ، نيابة عنا ، جماعتكم كرعية . وإذا كنتم تحبون الرب ، فإنكم يجب أن تظهروا هذا الحب لنائبه ؛ لأن المسيح نفسه قال عن مثل هذا الشخص ؛ إن من يسمعكم يسمعنى وقد سمعنا أن كثيرين منكم قد هاجهم الشوق للذهاب إلى أورشليم ، وهو مايجب أن تفهموا أنه قد سرنا كثيرا . ويجب أن تعلموا أيضا أنه إذا ذهب أى رجال منكم إلى هناك لا لرغبتهم فى المكاسب الدنيوية، وإنما فقط لخلاص أرواحكم ولتحرير الكنيسة ، فإننا بمقتضى سلطتها ، وبسلطة كل كبار الأساقفة ، وكل أساقفة بلاد الغال ، بفضل رحمة الرب العظيم وصلوات الكنيسة الكاثوليكية ، نعفيهم من التكفير المفروض عليهم لقاء خطاياهم التى اعترفوا بها اعترافا كاملا ، لأنهم خاطروا بأملاكهم وحياتهم فى حب جيرانهم . ولكننا لانسمح للرهبان أو القساوسة بالذهاب ما لم يحصلوا على إذن من أساقفة ومقدمى أديرتهم . كذلك يجب على الأساقفة أن يحرصوا على عدم السماح لرعايا أبرشياتهم بالذهاب بدون النصيحة وبدون علم القساوسة المسبق . كما يجب أن تراعوا أن الشباب المتزوجين لايجب أن يندفعوا فى رحلة طويلة كهذه دون موافقة زوجاتهم . وليساعدكم الرب العظيم ، فى خشيته وفى حبه ، وليقودكم هو وقد تحررتم من الآثام والأخطاء ، وليرشدكم إلى أن تفهموا كيف تحبونه فوق كافة الأشياء ، وتبدون له الأخلاص الحقيقى" .

---

(١) Riley - Dmith (ed.), op. cit., pp. 38-39 .

٩- من أربان الثانى إلى جماعة دير فالومبروسا - ٧ أكتوبر ١٠٩٦م[1]

"لقد سمعنا أن بعضكم يريدون الانطلاق مع الفرسان الذاهبين إلى القدس بقصد طيب لتحرير المسيحية . وهذا هو نوع التضحية الحقه ؛ ولكن خطته جاءت من أشخاص غير مناسبين ، لأننا كنا نستفز أذهان الفرسان للذهاب إلى هذه الحملة ، لأنهم قد يكونون قادرين على كبح وحشية المسلمين بسلاحهم ويعيدون للمسيحيين حريتهم السابقة : ونحن لانريد لأولئك الذين الذين هجروا العالم ونذروا أنفسهم للحرب الروحية أن يحملوا السلام أو يذهبوا فى هذه الرحلة ؛ بل أننا نمنعهم من عمل ذلك . كما أننا نمنع المتدينين - من القساوسة والرهبان - من أن ينطلقوا فى هذه الصحبة دون إذن من أساقفتهم أو مقدمى أديرتهم وفقا لحكم القوانين الكنسية المقدسة . فإن سلامة التقدير فى مهنتكم الدينية يجب أن تمنعكم من المخاطرة بإهانة الكرسى الأسقفى أو تعريض أرواحكم للخطر ، وقد سمعنا أن زميلكم ، مقدم دير سان ريبارتو ، يفكر فى ترك جماعتكم وترك نظامكم الديرى بأسره . وهكذا ، فإننا فى هذا الخطاب نرسل له أمرا ، وبه نعنى أننا نمنعه من أن يجرؤ على حكم نفس الدير بعد ذلك دون إذن من رئيسكم العام ، الذى تسمونه المقدم الأسمى . وإذا لم يمتثل بالطاعة ، هو وكل من يجرؤ على ترك جماعتكم ، يجب قطعه بسيف الحرمان الرسولى .

تحرر فى كريمونا فى السابع من أكتوبر . ونحن نريد منكم قراءة هذا الخطاب على الرهبان المجتمعين والإخوة العلمانيين ولتعلم الأديرة الأخرى بمحتواه".

---

(١) Riley - Smith, op. cit., pp. 39 - 40 .

مصادر ومراجع الدراسة

أولا : مصادر ومراجع عربية :

القرآن الكريم .

الكتاب المقدس ، طبعة أورشليم

ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن على بن أبى الكرم محمد بن محمد عبد الكريم بن عبد الواحد الشيبانى): الكامل فى التاريخ . دار صادر - بيروت ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م .

إسحق تاوضروس عبيد : روما وبيزنطة من قطيعة كونفوشيوس حتى الغزو اللاتينى لمدينة قسطنطين . دار المعارف - القاهرة ١٩٧٠م

جوزيف نسيم يوسف : العرب والروم واللاتين فى الحرب الصليبية الأولى . دار المعارف - القاهرة ١٩٦٣م "أنشودة رولان ؛ قيمتها التاريخية وما أثير حولها من جدل ونقاش" ، ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط (تحرير قاسم عبده قاسم ورأفت عبد الحميد) ، ص٧٧ - ص١٠٤ . دار المعارف - القاهرة ١٩٨٢م

رأفت عبد الحميد : الدولة والكنيسة ، الجزء الثانى) . دار المعارف - القاهرة ١٩٨٢م

سعيد عاشور : الحركة الصليبية (جزءان) .ط. ثانية ، الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٧١م ، أوربا العصور الوسطى (الجزء الأول) ، ط. خامسة ، الأنجلو المصرية . القاهرة ١٩٧٥م

الطاهر أحمد مكى : ملحمة السيد - دراسة مقارنة .ط. ثانية ، دار المعارف . القاهرة ١٩٧٩م

ابن العبرى (غريغوريوس الملطى) : تاريخ مختصر الدول (نشره أنطوان صالحان) بيروت ١٩٥٨م

ابن العديم (كمال الدين عمر بن أحمد بن العديم) : زبدة الحلب من تاريخ حلب (جزءان ، تحقيق سامى الدهان) .دمشق ١٩٥٤م .

عبد الغنى محمود عبد العاطى : السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية فى عهد الإمبراطور اليكسيوس كومنين ١٠٨١م - ١١١٨م . رسالة دكتوراه ، المنصورة ١٩٨١م .

عطية عبد الرحيم عطية : عدة المجاهدين فى الكتاب والسنة . المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٤٠٠هـ/١٩٧٩م .

قاسم عبده قاسم : أهل الذمة فى مصر العصور الوسطى - دراسة وثائقية . دار المعارف - القاهرة ١٩٧٧م .

"الاضطهادات الصليبية ليهود أوربا من خلال حولية يهودية : الظاهرة ومغزاها" ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط ، ص١٣٧- ص١٦٦ .

"الشعر والتاريخ : دراسة تطبيقية على شعر الحركة الصليبية" الموسم الثانى للجمعية التاريخية المصرية ١٩٨٢م .

ابن القلانسى (أبو يعلى حمزة) : ذيل تاريخ دمشق (نشرة أمدروز) بيروت ١٩٠٨م

نورمان ف . كانتور : التاريخ الوسيط : قصة حضارة ، البداية والنهاية (ترجمة وتعليق قاسم عبده قاسم). دار المعارف ، القاهرة ١٩٨١م .

وسام عبد العزيز فرج : "الإمبراطور باسيلى الثانى سفاح البلغار (٩٧٦-١٠٢٥م) : العوامل التى أثرت على السياسة فى عصره" ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط ، ص١٦٧ - ص٢٠٢ .

يوشع براور : عالم الصليبيين (ترجمة وتقديم وتعقيب : قاسم عبده قاسم ومحمد خليفة حسن) . دار المعارف - القاهرة ١٩٨١م .

ثانيا : مصادر ومراجع أجنبية :

(أ) مجموعات المصادر :

L'An mille; Oeuvres de : Luitprand - Raoul Glaber - Ademar de Chabannes, Adalbron, Helgaud - Tours - France, 1947 .

AOL : Archives de l'Orient Latin, 2 toms, Publiées sous le patronage de la societé de l'Orient Latin . - Paris 1881 - 1884 .

A Source Book for Medieval Economic History, edited by : Roy C. Cave and Herbert H. Coulson. - Biblo and Tannen, N.P. 1965 .

The Crusades ; Idea and Reality, 1095-1274, edited by : Louis and Jonathan Riley - Smith. - London 1981 .

The First Crusade : The Chronicle of Fulcher of Chartres and other source materials, edited by : Edward Peters . University of Pennsylvania Press, Philadelphia, 1971 .

The High Middle Ages, 1000-1300, edited by : Byrce D. Lyon. Macmillan, London 1964 .

Jerusalem Pilgrims before the Crusades, edited by : John Wilkinson . Aris and Phillips, England 1977 .

The Medieval World, 300-1300, edited by : Norman F. Cantor - Macmillan 1968 .

The Middle Ages, vol I; Sources of Med. History, 3 rd ed., edited by : Brian Tierney . A. Knopf, New York 1978 .

PPTS : Palestine Pilgrims' Text Society, vol. IV, Saewulf (1102-1103 A.D.), transl, by : The Lord bishop of Clifton . London 1896 .

RHC : Recueil des Historiens des Croisades, Publié par les soins de l'Académie des Inscriptions et Belles - Lettres Paris 1841 - 1906 .

ROL : Revue de l'Orient Latin, Publié sous la direction de MM. Le Marquis de Vogué et Ch. Schefer, (12 toms). Paris 1893 - Bruxelles 1964 .

(ب) مصادر ومراجع مستقلة :

Albert d'Aix : Historia Hierosolymitana, RHC, oco., IV .

Anna Commena : The Alexiad, transl. from the Greek by : E.R. A . Sewter. Penguin 1979 .

Amoymous : Gesta Francorum et Aliorum Hierosolimitaiorum, The deeds of the Franks and other pilgrims to Jerusalem, edited and transl. by : Rosalind Hill. Thomas Nilson, London 1962 .

Augus Machay : Spain in the Middle Ages, from frontier to empire, 1000 - 1500 . Macmillan, London 1979 .

Baudri de Bougueil (Baldric of Dol) : Historia Jerosolomitana RHC, occ., V.

G. Barraclough : The Medieval Papacy . Thomas and Hudson, London 1969 .

Benjamin W. Wheeler : "The reconquest of Spain before 1095", in Setton, vol. I, pp. 31-39 .

Charles T. Wood : The Age of Chivalry, manners and morals 1000-1450 . London 1970

Claude Cahen : "The Turkish invasion : The Selchukids" in Setton, vol. I, pp. 135-176.

Comte Riant : "Inventaire critique des lettres historiques de Croisade", AOL, I, pp. 1-195 .

G. G. Coulton The Medevial Scene. Cambridge 1930 .

H.E.J. Cowdrey : "The Gensis of the Crusades : The Springs of western ideas of holy war", in the Holy war, pp. 9-32 .

Le duc de Casbris : La Conquete de la Terre Sainte par les Croisés. Paris 1973 .

Einhardt ; The life of Charlemagne. Penguin 1969 .

Ernle Bradford : The sword and the scimitar, the saga of the Crusades . London 1974 .

Ekkehard of Aura : Hierosolymitam, RHC, occ. V.

Ernst Nys : La droit de guerre et les précurseurs de Grotuis. Brussels 1919 .

Frederick Duncalf : "The First Crusade : from Clermont to Constantinaple", in Setton, Vol. I, pp. 253-279; "The Peasants' Crusade" American Historical Review, xxvi (1920-21), pp. 440-453 .

Fredrich H. Russell : The just war in the Middle Ages . Cambridge 1973 .

Fulcher of Chartres : A history of the expedition to Jerusalem 1095 - 1127, edited by : Harold S. Fink. Knoxville 1969.

Guibert de Nogent : Historia quae dicitur Gesta Dei per Francos, RHC., occ. IV .

Hans Erhard Mayer : The Crusades, transl. by John Gillinghamteanu . Oxford 1972 .

Henri Pirenne : Economic and social history of Medieval Europe (9 th ed). London 1972.

Hanri Hagenmeyer : "Etudes sur la chroniques de Zimmern" AOL, II, pp. 17-88 .

"Chronologie de la premiére Croisade 1094 - 1100" ROL, VI, pp. 214-293 ; 490-549 ; VII, pp. 275-503 .

James A. Brundage : Medieval Canon law and the Crusaders The Univ. of Wisconsin 1969.

"Holy war and Med. lawyers" in the Holy war, pp. 99-140 .

Joseph Béfier et Pierre Aubry (ed.) : Les Chansons des Croisades avec leurs mélodies . Paris 1909 .

Kenneth M. Setton : History of the Crusades, 3 vols. Philadelphia . 1955 .

Louis Bréhier : L'Eglise et l'Orient au moyen age, les Croisades . Paris 1907 .

Lewis A.M. Sumberg : La Chanson d'Antioche, étude gistorique rt litterairs . Paris 1968 .

Margaret Deansily : A hist. of the Medieval Church . Metheum London.

Marc Bloch : Feudal Society . Univ. of Chicago, 1961 .

Maurice keen : The Pelican History of Medieval Europe. Penguin 1982.

Matthieu d'Edésse : Chroniques de Matt. d'Edessre (926-1136) avec la continuation de Grégoire le pretre jusqu'en 1163, traduites par. M. Edmond Dulaurier . Paris 1858 .

Michaud : Histoire des Croisades. 2 toms . Paris 1877 .

Michel Psellos, Chronographie, ou histoire d'un siécle de Byzance (976-1077). 2 toms, Texte établi et traduit par : Emile Renauld . Paris 1926 .

Michel le Syrien : Chroniques de Michel le Syien, Patriach d'Antioch (1166-1199), editée et traduite par : J.B. Chabot. 4 toms. Paris 1899-1910 .

Morris Bishop : The Penguin Book of the Middle Ages Penguin 1971 .

D.C. Munro : "The speech of Pope Urban II at Clermont", American Historical Review, 11 (1905), pp. 231-247 .

Norman Cohn : The pursuit of the Millenium (rev. ed.) New York 1970 .

Paul Alphandery : Chrétienté l' idée des Croisades , Les Premiers Croisades. Paris 1954 .

Paul Meyer : "Fragment d'un Chanson d'Antioche en Provincal ", AOL , II, pp. 466-509 .

"Un récit en vers Francais de la premiére Croisade fondé sur Baudri de Bourhueil ", Extrait de la Romania, tom, V.

Peter Charaanis : "Aims of the Medieval Crusaders and how they were viewed by the Byzantines ", in Church hist , vol . XXI, No . 2 June 1952 .

Philippe Wolff : The Awakening of Europe , transl . from French by : Anne Carter Penguin 1968 .

Ralph Glaber , Historiarm, libri quinque (the five books of his histories) , See The High Middle Ages.

Raymond d'Aguiliers : Historia Francorum qui ceperunt Iherusalem, RHC., occ., III .

Roberti Monachi (Robert the monk) : Historia Heira Heirosolymitana, RHC, occ., III.

E.K. Rand : Founders of the Middle Ages. Dover, New York 1957 .

René Crousset : Histoire des Croisades et du Royaume France de Jerusalem . Plon. Paris 1934 .

Robert Regout : La doctrine de la guerre Juste d St. Augustin a nos Jours d'aprés les theologiens et les canonistes catholiques Paris 1935 .

Robert S. Goyt and Stanley Chodorow : Europe in the Middle Ages (3rd ed).

J . J. Saunders : Aspects of the Crusades. Univ. of Canterbury 1962 .

Sidney Painter : A hist. of the Middle Ages, Macmillan , London 1953 .

"Western Europe on the eve of the Crusades " in Setton, vol . I, pp. 3-29 .

Steven Runciman : A hist . of the Crusades , 3 vols. Harper Torchbooks 1964 .

"The Pilgrimages to Palestine bedore 1095" in Setton, vol. I, pp. 68-78 .

Thomas Balfinch : The Age of Chivalry and legends of Charlemagne, or Romance of the Middle Ages New York 1962 .

Thomas Patrick Murphy (ed.) : The Holy war, Ohio State University

Walter Ulmann : Med. Political Thought. Penguin 1979 .

William of Tyre : A hist . of the deeds done beyond the see, trensl. and annonated by : Emily Atwater babcock and A.C. krey. Colombia Univ. Press 1943 .

رقم الإيداع ٩٩/٩٨٥٨

الترقيم الدولى 7 - 011 - 322 - 977

دار روتابريتت للطباعة ت: ٣٥٥٢٣٦٢ - ٣٥٥٠٦٩٤

٥٣ شارع نوبار - باب اللوق

دكتور قاسم عبده قاسم



الخلفية الأيديولوجية للحروب الصليبية









للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية
FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES